دكتور محمود فوزي

حرب السويس ١٩٥٦

ترجمه عن الإنجليزية د. مختار الجمال

دار الشروق

حرب السويس
١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

صمم الغلاف : الفنان حلمى التونى

دكتور محمود فوزي

حرب السويس ١٩٥٦

ترجمة عن الإنجليزية

د. مختار الجمّال

الطبعـــة الأولى

١٩٨٧م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET LONDON W1, UK, TEL 63 / 2743/4 TELEX SHOROK 257796

كلمة المترجم

ليس من السهل الكتابة عن الكبار . ولقد كان الدكتور محمود فوزى كبيراً بكل المقاييس . واستطاع أن يكون رائدا لمدرسة فى الدبلوماسية المصرية الحديثة فرضت نفسها ومازالت تفرض نفسها حتى اليوم . ولقد ترك الدكتور فوزى بعده جيلا من المريدين والتلاميذ الذين آمنوا بأسلوبه فى الحياة وفى الدبلوماسية وهو اسلوب تستشعره دون أن تستطيع تعريفه . وإن كانت ملامحه البارزة الظاهرة هى التى تطفو وحدها على السطح ويبقى الكثير من مكون هذا الأسلوب الفريد غائبا عن أى شخص يتناول دكتور فوزى وكتابه الذى بين يديك ببساطة أو سطحية

فهذا الكتاب الوحيد الذى توفر دكتور فوزى على إخراجه -بهذه الصورة من بين مذكراته – التى لاتزال متناثرة ومبعثرة فى مكتبه ببيته الأنيق بالهرم – لايقول الكثير علنا وبوضوح ولكنه يقول الكثير بين ثنايا السطور . وفى اختيار الكلمات واحمل وطريقة تناول الأفكار والملاحظات كان هذا أسلوب دكتور فوزى الذى وضح فى هذا الكتاب

وقيمة هذا الكتاب ليس فى أسلوبه فحسب . ولا فى انه الأثر الوحيد المكتوب لأبى الدبلوماسية المصرية الروحى . ولكن قيمته وخاصة السياسية والتاريخية والأكاديمية إنما تكمن فى أنه الوثيقة المصرية الوحيدة التى كتبها مسئول مصرى كبير عاصر أحداث السويس وكان من بين صناع هذه الأحداث

وهذا ماجعل الجامعات ومراكز الدراسات السياسية والأكاديمية فى بريطانيا وغيرها ينتظرون صدور هذا الكتاب بفارغ الصبر بعد ان علموا أنه سيصدر باللغة الإنجليزية . وبعد ان تأكدوا أنه سيصدر بلاتحريف أو اضافة أو حواشى أو ملاحظات من أحد . وهو الشرط الذى أصرت عليه أسرة المرحوم الدكتور فوزى . أما الشرط الثانى – والذى أوصى به الدكتور فوزى نفسه – فهو أن يصدر الكتاب باللغة التى كتب بها أولا . ثم بترجمته العربية بعد ذلك

ولصدور الكتاب قصة تروى فقد ذهبت اسرة الدكتور فوزى بمخطوط الكتاب إلى السيد كمال حسن على وكان وقتها نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للخارجية . وطلبت منه أن يعمل على طبعه .

وعهد السيد كمال حسن على بالنسخة إلى الصديق السمير يوسف شراره سفير مصر الحالى فى لندن . والذى كان وقتها مديرا لمعهد الدراسات الدبلوماسية . وحرص السفير يوسف شرارة على تنفيذ وصية المرحوم فوزى الذى ربطته به صلات وثيقة وقاوم بشدة أية اقتراحات لتقديم الكتاب أو شرحه أو التعليق عليه . وأصر على أن يظهر كما هو . وأن يحافظ على كل كلمة فيه باعتباره وثيقة هامة ـ تخضع فيما بعد للتحليل والتعليق ممن يشاء ـ ولكنها يجب أن تحتفظ بنقائها الأصلى بلا أى تغيير أو تحريف أو تبديل وهو ما وافق عليه مشكورا الأستاذ محمد المعلم صاحب دار الشروق بالقاهرة وبهذا أمكن أن يظهر الكتاب للنور .

وهذا بالضبط ما التزمت به أيضا عند الترجمة . فقد توقفت كثيرا عند بعض الجمل أحاول أن استشف ماكان يقصده الدكتور فوزى بها . وخاصة أنه كان ضليعا فى اللغة الإنجليزية مثلما كان ضليعا فى اللغة العربية . وساعدنى على ذلك أننى عاصرت هذه الأحداث بالقرب منها عندما كنت منتدبا بمكتب رئيس الجمهورية وقتدئذ وأتيحت لى الفرصة لترجمة معظم الوثائق والمستندات الخاصة بأحداث السويس .

لم يكن الدكتور فوزى يستخدم اللغة مجرد وسيلة لايصال المعلومة فهذا آخر ماكان يفكر فيه . ولكنه كان يؤمن بأنه لايمكن الفصل بين الأسلوب والمضمون ولم يكن يحب المباشرة .. فهو أبعد عن أن يكون مباشرا فيما يرمى إليه . ولم يكن يستخف بعقلية المستمع أو القارئ ولكنه كان يخاطب ذكاءه بأقل عدد من الكلمات الحبلى بأدق المعانى وأعمقها لهذا فالكتاب الذى بين يديك ليس مجرد ذكريات متفرقة عن حدث مر بمصر . ولكنه قطعة سياسية ثمينة يجب أن تعاد قراءتها والتمعن فيها لأن كل سطر يحوى من المعانى البعيدة الكثير

ولن اتحدث عن مضمون الكتاب . فهو يتحدث عن نفسه . ولن أعلق على شيء احتراما لوصية الدكتور فوزى . ولكنى احييّ هذا الدبلوماسى العريق الذى شاء قبل وفاته أن ينتقى من بين مذكراته المبعثرة هذا الحدث الفريد فى تاريخ مصر . فسجله بقلمه .

وجاء تسجيله صادقا ورائعا وممثلا لصوت مصر الذى دوى فى العالم كله معلنا اجتيازها عن جداره أصعب امتحان تبتلى به دولة صغيرة عندما تهاجمها ثلاث دول بشراسة . ومعلنا أيضا لكل الشعوب أن مصرـ بصمودها وبشعبها وبجيشها وبقيادتها وبدبلوماسيتها وبأهميتها ـ هى محط أنظار العالم وبؤرة إهتمام كل الدول صغيرها وكبيرها . هكذا شاء القدر وهكذا تحمل رجالها المسئولية .

دكتور مختار الجمال



نبذة عن حياة الدكتور محمود فوزى

- ولد عام ١٩٠٠ ودرس فى جامعات القاهرة وروما وليفربول وكولومبيا .
- التحق بوزارة الخارجية المصرية وعمل فى المناصب التالية :

ـ نائب قنصل فى نيويورك ونيواورليانز من ١٩٢٦ ـ ١٩٢٩ .

ـ قنصلا لمصر فى «كوب» باليابان من ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ .

ـ سكرتيرا أول فى سفارة مصر بأثينا من ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ .

ـ قنصلا لمصر ثم قنصلا عاما فى ليفربول من ١٩٣٧ ـ ١٩٤٠ .

ـ مديرا لاحدى إدارات وزارة الخارجية من ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ .

ـ قنصلا عاما لمصر فى القدس من ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ .

ـ مندوبا لمصر فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عام ١٩٤٦ . وفى نفس العام عين مندوبا مناوبا لمصر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة .

ـ سفيرا لمصر لدى المملكة المتحدة عام ١٩٥٢ .

ـ استدعته الثورة ليكون أول وزير لخارجية مصر من عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨ كما استمر وزيرا للخارجية بعد الوحدة مع سوريا من عام ١٩٥٨ حتى ١٩٦٤ وكان فى هذه الاثناء عضوا فى مجلس الرئاسة (من ١٩٦٢ حتى ١٩٦٤) .

ـ عين نائبا لرئيس الوزراء للشئون الخارجية من ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨

ـ ثم رئيسا لوزراء مصر من أكتوبر ١٩٧٠ حتى يناير ١٩٧٢ .

ـ وكان آخر منصب شغله نائبا لرئيس الجمهورية من ١٩٧٢ حتى ١٩٧٤ عندما استقال واعتزل الحياة العامة. وتوفى عام ١٩٨١ .



نبذة عن المترجم

- الدكتور مختار الجمال خريج جامعات القاهرة واكسفورد وريدنج بالمملكة المتحدة وزميل كلية الدفاع الوطنى بالقاهرة وعضو المعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية بلندن .

- عمل ملحقا دبلوماسيا بسفارة مصر فى باكستان وسكرتيرا ثالثا بسفارة مصر بالهند وسكرتيرا ثانيا بسفارة مصر فى الأردن وسكرتيرا أول وقائما بالأعمال بالنيابة بسفارة مصر بقطر ومستشارا وقائما بالأعمال بالنيابة بسفارة مصر فى أرجواى ووزيرا مفوضا وقائما بالأعمال بالنيابة بسفارة مصر بلندن حتى أغسطس ١٩٨٦ .

- يحمل درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة ريدنج بالمملكة المتحدة .

- ترجم أكثر من أربعين كتابا فى الدبلوماسية والسياسة الدولية والاستراتيجية وألف قاموسا للمصطلحات السياسية والدبلوماسية وحاصل على وسام الجمهورية .

- أثناء احداث السويس ١٩٥٦ انتدب للعمل بمكتب رئيس الجمهورية .

- يعمل حاليا بمعهد الدراسات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية ويدرس مادة « تاريخ الدبلوماسية ومصطلحاتها » .

المحتويات

وسيلان (سرى لانكا) ، وفى البداية استقلت ثمانية بلاد أفريقية . ثم تبعها حوالى أربعين بلدا أفريقيا مستقلا فى افريقيا ـ حركة استقلال وانحسار الاستعمار ـ بين مقاومة البلاد الاستعمارية القديمة وخاصة فرنسا والمملكة المتحدة ، وموقف الولايات المتحدة المناهض للاستعمار ـ العناصر الأخلاقية والقانونية والقائمة على المصالح فى السياسة ـ الانقسامات والتناقضات المحتومة ـ رأى دالاس فى جمال عبد الناصر ، ومع هذا فإن دالاس يواجه حلفاء الولايات المتحدة أثناء أزمة السويس ـ الحياد أو عدم الانحياز ـ موقف دالاس ضد سياسة مصر الحازمة ودوافعها بالمقارنة بموقف الهند ويوغوسلافيا ـ الموقفان الهندى والمصرى بمناسبة المشكلة الكورية ـ جلدوين . ويب من المملكة المتحدة يهاجم موقف مصر ورد مصر عليه ـ الهند تتأرجح فى بادئ الأمر ثم تثبت .

الفصل الثالث : تجمع العاصفة :

التمهيد لتأميم قناة السويس والأزمة ـ زيارة دالاس لمصر واجتماعه بزعمائها ـ تشرشل يكتب لدالاس منتقدا مواقف الولايات المتحدة المواتية لعبد الناصر بوجه خاص . ودالاس يرد بتقرير توضيحى ـ السفير جيفرسون كافرى وهنرى بايرود ـ الأن دالاس ـ الأسلحة الأوربية لمصر ليست وشيكة ـ الهجوم الإسرائيلى على غزة فى فبراير ١٩٥٥ مشروع السد العالى ـ تحول الموقف السوفيتى بالنسبة لعبد الناصر نحو التعاون ـ السوفيت يجسون النبض بالنسبة لمشروع السد العالى ـ صفقة الأسلحة السوفيتية ـ محمود فوزى يقابل ماكميلان فى نيويورك ـ موضوع صفقة الأسلحة يثيره ماكميلان منتقدا فيقابل بالصد ـ مشاورات فى واشنطون وأماكن أخرى بشأن مساعدة مصر فى مشروع السد العالى ـ فوستر دالاس يقابل السفير المصرى أحمد حسين ويبلغه بأنه تم سحب عرض المعونة .

الفصل الرابع : اشتعال الموقف :

التوقعات بما سيحدث بعد الانسحاب البريطانى ـ توقعات المصادر الغربية العديدة ـ تصاعد الصعوبات المحيطة بالعلاقات بين مصر وشركة القناة ـ عدم اكتراث الغرب بعقد مؤتمر للدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية ـ القلق من الوجود والتدخل السوفيتى ـ مصر حريصة على عدم إظهار سيطرتها قبل الأوان ـ اجتماع شارل ويبكو مع الممثلين المصريين . اجتماع مع محمود فوزى ٢٦ يوليو ١٩٥٩ : خطاب عبد الناصر معلنا تأميم قناة السويس

ـ مصادفة متعمدة مع يوم ذكرى الرحيل النهائى لفاروق من مصر ـ سياسة الغرب مصممة على السيطرة على القناة المعارضة فى مصر لمد امتياز شركة قناة السويس ترجع إلى عام ١٩٠٩ إن لم يكن قبلها ـ اغتيال بطرس غالى رئيس وزراء مصر لتحبيذه مد الامتياز ـ استمرار المعارضة لمد الامتياز اتجاهات بريطانية مختلفة بالنسبة للقناة حسب مدى السيطرة البريطانية على مصر ـ وجهات نظر متعددة خاصة بوسائل ضمان حرية الملاحة فى القناة ـ مواقف مصر الثابتة المستندة إلى معاهدة القسطنطينية والسيطرة المصرية النهائية على القناة ـ بعد التأميم : اقتراب العاصفة ثم الحرب ، ومعارك سياسية واقتصادية وعسكرية . ومشاكل خاصة بالمرشدين والمالية والاقتصاد ككل ـ عبد الناصر يعلن عن عرض تقدم به بلاك لإقراض مصر بليون دولار من أجل توسيع القناة . بشرط موافقة مصر على مد الامتياز وهو عرض قوبل بالرفض ـ تأكيد واضح ومستمر لملكية مصر للقناة ـ شركة قناة السويس هى التى أممت وليست القناة لأن القناة ملك لمصر دائما ـ المعارك حول المرشدين بالتفصيل ـ إيزنهاور يتحدث فى مؤتمر صحفى فى ١١ سبتمبر ضد استخدام العنف ـ ومع هذا تستمر الاستعدادات العسكرية من جانب المملكة المتحدة وفرنسا إلى محكمة العدل الدولية بالنسبة للجوانب القانونية ـ الإدارة القانونية بوزارة الخارجية البريطانية ترى أن مصر لم تنتهك معاهدة ١٨٨٨ . رد فعل عنيف من جانب إيدن على تقرير هذه الإدارة

الفصل الخامس : من الحوار إلى العدوان :

المدعوون وغير المدعوين لمؤتمر لندن ومن بينهم بما ـ مصر ترفض الدعوة ولكنها تحضر فى لندن من خلال مراقب خارجي ـ الأهداف الغربية المستمرة هى استعادة السيطرة على القناة ـ فشل مهمة منزيس ـ تصريح عبد الناصر أمام مجلس الأمة المصرى ـ استبعاد السفن والبضائع الإسرائيلية من المرور فى القناة ، حتى أثناء الاحتلال البريطانى ـ رأى لويد ودالاس فى عبد الناصر ـ الموقف الأمريكى والسوفيتى غير الواضح تجاه عبد الناصر ـ مهمة منزيس فى شئ من التفصيل ـ مصر تبدأ فى الشعور بأنها اجتازت مرحلة الخطر ـ التماسك والوقت من بين أفضل أسحلة مصر ـ تلخيص موقف مصر ـ خطابات بولجانين إلى إيدن وموليه ـ تصريح علنى للكرملين ـ رد إيدن على بولجانين ـ موقف إيدن يتعارض مع الموقف البريطانى بشأن المضايق التركية ومعارضة التدويل ـ مايقال من أن التهديد السوفيتى

شعرت به واشنطن أكثر مما شعرت به لندن أو باريس ــ نجاح مصر فى إدارة القناة يدحض الموقف الغربى ــ باكستان ترفض الاشتراك فى جمعية المنتفعين بقناة السويس ــ النرويج وأسبانيا وإيطاليا تعرب عن نيتها للخضوع لواقع الأمر وترفض دوران سفنها حول رأس الرجاء الصالح ــ دالاس لايستطيع أن يضمن أن تدفع السفن الأمريكية الرسوم لجمعية المنتفعين بدون موافقة الكونجرس ــ المؤتمر ينتهى إلى ترك أمر دفع الرسوم لتقدير كل دولة ــ تصريح الممثل الفرنسى عن تفكك المؤتمر ووصفه بأنه أسوأ هزيمة غربية منذ ميونخ ــ رأى عبد الناصر فى جمعية المنتفعين بالقناة ــ الاتصالات البريطانية والفرنسية مع مجلس الأمن فى ٢٣ سبتمبر ١٩٥٦ ــ الاتصال المصرى فى ٢٥ سبتمبر ــ مجلس الأمن يجتمع فى ١٥ أكتوبر ١٩٥٦ ــ مشروع القرار البريطانى الفرنسى ــ الكلمات التى ألقاها لويد وبينو ودالاس وكلمة فوزى فى ٨ أكتوبر ــ دالاس يقترح عقد اجتماعات خاصة بين ممثل الأطراف الثلاثة الرئيسية ، لويد يقترح ذلك رسميا فيما بعد : همرشولد وكذلك المجلس ــ المباحثات الخاصة تستمر حتى ١١ أكتوبر ــ المجلس يجتمع مرة أخرى فى ١٣ أكتوبر لبحث النتائج ــ مشروع القرار البريطانى الفرنسى المقدم للمجلس يحتوى على ستة مبادئ تم الاتفاق عليها فى المباحثات الخاصة ، وفى الجزء الثانى منه يتعرض لمسائل تهدف إلى استعادة السيطرة على القناة كما حدث فى مؤتمر لندن ــ الموافقة بالإجماع على الجزء الأول ، بينما يستخدم الاتحاد السوفيتى حق الاعتراض على الجزء الثانى ــ رأى ايزنهاور ودالاس فى الأنباء والشائعات الخاصة بعدم الارتياح البريطانى للسياسة الأمريكية ــ انتهاء المباحثات الخاصة ، تقديم مشروع قرار لمجلس الأمن ، الموافقة عليه فى ١٣ أكتوبر ــ الإعراب عن مشاعر متضاربة بعد اتخاذ القرار ــ مباحثات دالاس ولويد وبينو على العشاء فى شقة دالاس ــ بعد أن عرف فوزى من الولايات المتحدة بوجود أسئلة اقترحها بينو لفيلم تليفزيونى من إعداد هيئة الإذاعة البريطانية احتج عليها فوزى ، جزء من نقد فوزى ــ تكتيك مصر فى « عزل » القناة عن السياسة كما جاء فى قرار المجلس ــ الإعراب عن الدهشة من ادعاء لويد بأنه لم يكن يعلم مسبقا بالهجوم الإسرائيلى الوشيك على مصر . وخاصة معادلة ذلك بالموقف فى المجر ــ الإنذار البريطانى الفرنسى لإسرائيل ــ مصر تطالب باعتبار إسرائيل معتدية ــ الولايات المتحدة تقدم مشروع قرار يقوم على « الانتهاك الإسرائيلى لاتفاقية الهدنة ، والمطالبة بوقف الأعمال العدائية » .

الفصل السادس : ما بعد الحرب :

اجتماع الجمعية العامة باقتراح من يوغوسلافيا فى ٣ نوفمبر ـ دالاس يقدم مشروع قرار للجمعية قائم على الوقف الفورى للأعمال العدائية وانسحاب القوات الأجنبية ـ تدهور الموقف بسبب إغلاق القناة والاضطرابات المؤثرة على البترول ورفض الولايات المتحدة الاعتماد على المملكة المتحدة ـ قلق أمريكى من احتمال تدخل عسكرى سوفيتى ـ استقالة ناتنج فى ٣ نوفمبر ـ إيزنهاور يتحدث تليفونيا مع إيدن ويصر على وقف إطلاق النار ـ إيدن يلعق جراحه ـ مشروع قرار تقدمه كندا وكلومبيا والنرويج لتشكيل قوة طوارئ تابعة للأمم المتحدة ـ طلب السوفيت اجتماع مجلس الأمن فى ٥ نوفمبر ـ خطاب ايزنهاور فى ٥ نوفمبر إلى بن جوريون ـ خطاب تشرشل إلى إيزنهاور ورد إيزنهاور عليه ـ إحد عشر نائبا من المحافظين يقدمون مشروع قرار إلى مجلس العموم يستنكرون فيه الضغط الأمريكى ويطالبون فيه الحكومة البريطانية بضمان السيطرة الدولية على قناة السويس ـ رد الفعل البريطانى والفرنسى على الولايات المتحدة وعلى استنكار استخدام القوة والقول بأن المادة الأولى من ميثاق الأطلنطى لم تمنع الولايات المتحدة من استخدام القوة فى كوريا . ومشيرا إلى أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد انحاز ضد المملكة المتحدة وفرنسا ـ المؤتمر الصحفى لفوزى ـ همفرى وآخرون فى واشنطون يمارسون ضغوطا على إسرائيل بالانسحاب من خلال التمويل والبترول بما فى ذلك خطر نسف سوريا لأنابيب البترول ـ تصريح بن جوريون فى الكنيست ، برفض الانسحاب غير المشروط . وعرضه ميثاق عدم اعتداء على مصر ـ استنكار إيزنهاور وهمرشولد لموقف بن جوريون وإسرائيل ـ خطاب إيزنهاور إلى بن جوريون ورد بن جوريون عليه ـ همرشولد يصر فى مباحثاته مع فوزى على حرية المرور فى النهاية . وإن كان يرفض طلب إسرائيل والآخرين أن يكون هذا شرطا سابقا على الانسحاب ـ الإستعداد لتطهير القناة ـ تشكيل قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة على أساس موافقة مصر ـ اختلاف موقف همرشولد عن فوزى بشأن الانسحاب النهائى لقوة الطوارئ ـ المؤتمر الصحفى لفالدهايم المؤيد لموقف مصر وموقف يوثانت عام ١٩٦٧ .

ملخص وتعليق عام :

اللعبة ـ المصريون مصممون على التخلص من الاستعمار ـ فرنسا مصممة على إبقاء

سيطرتها على القناة ، والمملكة المتحدة مصممة على إبقاء سيطرتها على القناة وعلى مصر ـ الولايات المتحدة تريد استبعاد فرنسا والمملكة المتحدة من الشرق الأوسط والحلول محلها ـ الاتحاد السوفيتي يريد استبعاد كل الغربيين من المنطقة ونشر نفوذه ـ مصر تصر دائما على أن شركة القناة مصرية ـ مد امتياز شركة القناة منذ عام ١٩٠٩ ـ التيارات والتيارات المضادة ، الولايات المتحدة ومصر ، الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة ، الموقف السوفيتي المتناقض مع نفسه ، ما يبدو أنه تناقضات هندية ، تأثير الإسلام ـ مصر تحبذ المؤتمر الدولي ـ المتناقضات الاقتصادية والسياسية ـ دالاس يغضب المملكة المتحدة وفرنسا ـ رأى همرشولد فى عبد الناصر ، عدم موافقة دالاس ثم موافقته على أن يوجه نظر فوزى إلى نوايا فرنسا الحربية ـ تعليق نيكسون فيما بعد على مشروع السد العالى ـ الذهاب إلى مجلس الأمن ـ رأى إيدن فى الإصرار الفرنسى على العمل العسكرى ـ لويد يحاول عبثا أن يدافع عن موقف المملكة المتحدة ـ رأى إيزنهاور ودالاس فى دعوة إيدن ثم فى سحب الدعوة ـ جزء مما حدث بعد حرب السويس . العراق والأردن ولبنان .

مقدمة

مر حوالى عشرين عام قبل أن يصدر كريستيان بينو كتابه « السويس عام ١٩٥٦ » - فى عام ١٩٥٦ كان وزيرا لخارجية فرنسا وكان واحدا من ثلاثة طلب منهم مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الاجتماع به « اجتماعا خاصا » بحضور همرشولد الذى وصفه البعض بأنه يقوم بدور الموجه للمناقشة فى محاولة من أعضاء المجلس للتغلب على الصعوبات والتوصل إلى مقترحات خاصة بمشكلة قناة السويس . وكان المدعوان الآخران هما سلوين لويد وزير خارجية المملكة المتحدة ومحمود فوزى وزير خارجية مصر .

وقد انتهى سلوين لويد من كتابه « السويس عام ١٩٥٦ » بعد مرور حوالى اثنى عشر عاما من اشتعال ازمة قناة السويس . وقد نشره جوناثون كتيب فى ٦ يوليو عام ١٩٧٨ . وكان من المقرر أن ينشر الكتاب فى وقت لاحق ، ولكن نظرا لوفاة لويد بعد وقت قصير من الانتهاء من وضع الكتاب تقرر تقديم موعد نشره .

وقد ساورت لويد وآخرين شكوك بشأن تأليفه لهذا الكتاب ، وقد عبر عنها بقوله : « لقد انتاب بعض أصدقائى شكوك حول وضع هذا الكتاب . ومن المؤكد أننى لم أكن أريد أن أحيى خلافات العام الماضى . إن ما أردت أن أفعله أن أسجل - بكل ما أستطيعه من دقة وبعد شهور وشهور من قراءة السجلات والكتب - ما أعتقد أنه حدث ولماذا . لقد كتبت ما كتبت من أجل التسجيل ولأن سجلى كان ضائعا بين السجلات » .

وهو ما يحدث لى أيضا فهأنذا أكتب الآن بكل ما أستطيع بوضوح واختصار . ولكنى شعرت ، كما قد يشعر آخرون فى مثل ظروفى بأننى مدين لشعبى ولآخرين بشيئين بالذات لابد من تسجيليهما .

الأول : أمور لم تكن معروفة سوى لى وللجانب الآخر الذى كنت أتعامل معه وهو ما يتطلب إما أن أسجل هذه الأمور بالكامل أو أصحح أو أكمل ما سجلوه .

والثانى : تحليلى لهذه الأمور وتقييمى لمغزاها والطريقة التى عولجت بها . ولايمكن أن يقوم أحد بهذين الأمرين بالوكالة . ولهذا فلابد أن أستمر فى هذه المهمة وربما وأنا مبتسم .

وربما كان من المناسب أن نتذكر هنا أن جون فوستر دالاس قال ذات مرة فى نهاية أزمة قناة السويس : « إن أحدا لا يعرف الحقيقة ولن يعرفها أحد حقا ولمدة خمسة وعشرين عاما على الأقل ، والسبب فى ذلك أن كل الوقائع ليست معلنة . ولهذا السبب أيضا فإن أحدا لايعرف هل أديت عملى كوزير للخارجية بشكل جيدا أم بشكل سيئ . وفى هذا عزاء كبير لى عندما يكون الناس على يقين من أننى كنت مخطئا وأن ينتقدونى بقسوة إننى أدرك عندئذ أنهم لايعلمون حقا لأن الوقائع لم تكن معلنة . إن لى فى هذا بعض العزاء .

إننى أتذكر هذا وأشعر بالارتياح عندما ينتقدنى الناس بقسوة . كما يفعل بعضهم . وهذا سلاح ذو حدين فعندما ينهال عليك الثناء ، عليك ألا تأخذه فى اعتبارك ، لأن الناس لا يعرفون أيضا ، كما أن أصدقاءك لا يعرفون كذلك » .

إن الموجة الجديدة من الكتب والمقالات عن قناة السويس ليست عارضة ولا هى نوع من أفكار ما بعد الحدث . إن القناة اليوم ـ بعكس ما قد يظنه المرء ـ تعتبر أكثر أهمية من أى وقت مضى . إنها هامة لمصر ، وللدول المصدرة للبترول وللاقتصاد العالمى وللسلام العالمى وللازدهار ككل . إنه لأمر هام اليوم وغدا أكثر من قبل : ما يحدث للقناة أو حولها وما يؤثر على أمنها واستمرارها

وتطورها ، إذا وضعنا فى الاعتبار نمو التجارة العالمية حاليا ومستقبلا .

لقد كتب لورد تريفيليان الذى كان يسمى سير همفرى تريفيليان عندما كان سفيرا لبريطانيا فى القاهرة عام ١٩٥٦ ، كتب عن سلوين لويد فى كتابه عن قناة السويس : « لقد كان لويد رجلا طيبا اجتاحه إعصار واقتلعه من مكانه . وكان هذا كثيرا عليه وقد بذل كل ما فى وسعه فى نهاية حياته ليبرر السياسة البريطانية . ولكنى أظن أنه لم يكن مقنعا » .

كما أن سير أنتونى ناتنج الذى استقال من منصبه كوزير للدولة لوزارة الخارجية البريطانية احتجاجا على سياسة حكومته . كتب بشكل مشابه معلقا على كتاب لويد .

ونحن نجد مثلا لورد تيدر يعلق على السجلات الرسمية وما شابهها قائلا : « ربما لا تكون هى المصدر الأمثل . ومن المؤكد أنها ليست المصدر الوحيد الذى ينبغى أن نعتمد عليه . وأتوقع أن معظمنا قد رأى ـ بشئ من التفكه . وربما بشئ من الغضب ـ تقارير وأوامر من الواضح أنه وضع فى الاعتبار عند صياغتها ما سيكتبه المؤرخ مستقبلا . أو ما تعودنا أن نسميه « من أجل التسجيل » . إن صياغة الإرشادات والأوامر « من أجل التسجيل » هى فن راق جدا وأمر محسوب بالنسبة للمؤرخ . ولاشك أن هناك كثيرا من الوثائق عن أزمة السويس كتبت « من أجل التسجيل » .

بل إن جوردن ووكر وهو وزير سابق بمجلس الوزراء قال : « إن هناك مايوحى بأن بعض الوثائق قد أعدمت عن عمد » .

وقال بن جورين بعد اثنى عشر عاما من أزمة السويس : « إن إيدن ذهب إلى باريس بعد المسألة حتى يضمن إعدام كل الوثائق الأصلية . ولكنه وجد أن لدى نسخا منها . وجدير بالذكر أنه عندئذ فقط أصبح صديقا لإسرائيل » .

وفى هذا المقام ، لاحظ جيوفرى وارنر أحد المعلقين أنه بالرغم من أن فتح

سجلات الحكومة البريطانية لعام ١٩٥٦ بشكل طبيعى والذى سيتم فى أول يناير ١٩٨٧ سيؤدى إلى بعض المعلومات الجديدة ، إلا أنه من المشكوك فيه أن تؤدى بنا إلى إعادة النظر بشكل جذرى فيما نعرفه من قبل عن السويس من الروايات الأولية الموجودة . وبعض هذه الروايات أكثر دقة بكثير من بعضها الآخر . وكلها تخدم غرضا ما بدرجات متفاوتة ، ولكن هناك عددا كافيا منها مما يمكن المؤرخ ، من استخدام عملية المقارنة والمواجهة ، أن يعيد بناء صورة متكاملة بشكل معقول عما حدث ولماذا حدث .

لقد أعلن سلوين لويد فى ٣١ أكتوبر بأنه من الخطأ تماما القول بأن حكومة صاحبة الجلالة حرضت إسرائيل على هذا العمل . فلم يكن هناك اتفاق مسبق بيننا بشأنه . وذهب أنتونى إيدن إلى أبعد من ذلك عندما قال فى ٢٠ ديسمبر : « أريد أن أقول عن مسألة المعرفة المسبقة ، وبشكل صريح تماما للمجلس ، بأنه لم تكن هناك معرفة مسبقة بأن إسرائيل ستهاجم مصر . لم تكن هناك مثل هذه المعرفة » . ويعلق وارنر : « لامعرفة مسبقة ، ولا اتفاق مسبق ، ولا تحريض . هذا هو موقف الحكومة البريطانية عام ١٩٥٦ ولعدة سنوات بعد ذلك » .

واستمر وارنر قائلا : « إنه كان من الصعب أن يثير تواطؤ البريطانيين والفرنسيين والإسرائيليين الدهشة عام ١٩٥٦ ، إلى حد ما لأنه حتى قبل تأميم قناة السويس فى يوليو ، كان لدى الثلاثة أسباب لتوجيه ضربة إلى نظام البكباشى ناصر فى مصر .

والواقع أنه عُقد اجتماع فى شيكرز (المقر الصيفى لرئيس الوزراء البريطانى) فى ١٤ أكتوبر ، أى فى اليوم التالى مباشرة لاتخاذ مجلس الأمن قرارا عن مشكلة قناة السويس . وكان من الحاضرين إيدن وناتنج ، ومن الجانب الفرنسى : البرت جازييه الذى كان يعمل وزيرا للخارجية الفرنسية بالإنابة فى غياب بينو لحضور جلسات مجلس الأمن بنيويورك ، وموريس شال رئيس أركان القوات الجوية الفرنسية .وطبقا لما قاله ناتنج فإن الجنرال شال عرض خطة محتملة

للعمل ـ تمت الموافقة عليها فى النهاية ـ من أجل تمكين بريطانيا وفرنسا من السيطرة الفعلية على قناة السويس. والخطة ، كما عرضها ، هى أن إسرائيل ترغب فى أن توجه إليها دعوة لمهاجمة مصر عبر شبه جزيرة سيناء . وأن فرنسا وبريطانيا ، بعد أن تتيحا للقوات الإسرائيلية وقتا كافيا للاستيلاء على كل سيناء أو معظمها ، ستوجهان أمرا إلى « الجانبين لسحب قواتهما من قناة السويس . للسماح لقوة بريطانيا فرنسية أن تتدخل وتحتل القناة بزعم انقاذها من التدمير بسبب القتال . وهكذا تتمكن الدولتان من الادعاء بأنهما إنما « يفصلان بين المتحاربين » و « يطفئان نارا خطيرة » ، بينما يسيطران فى حقيقة الأمر على الممر المائى بأكمله وعلى مينائية من الطرفين : بورسعيد والسويس .

إن ما لم يذكره سلوين لويد فى روايته هو ما قاله لناتنج عند عودته إلى لندن وهو « أنه ستجرى مزيد من المشورات فى باريس بين الممثلين الفرنسيين والإسرائيليين». وأعرب عن أمله فى الاشتراك بشكل مباشر فى هذه المباحثات على المستوى السياسى بأى حال . ولكنه لايستطيع أن يستبعد ذلك ، لأن هناك عددا من المشكلات السياسية والعسكرية الهامة التى تعنينا . والتى يجب أن تسوى فى وقت قصير جدا . وقيل عن هذا إن عدم ذكر اسم لويد أمر على درجة كبيرة من الأهمية بالطبع ، لأن ذلك يمكنه من الادعاء بأنه لم يكن يدرك طبيعة أو مدى الاتصالات بين الفرنسيين والإسرائيليين ، وأن البريطانيين لم يكن لديهم اقتراحات يقدمونها ، وأنهم كانوا يستجيبون فحسب للاقتراحات التى تعرض عليهما .

وقال إيدن : إنه فى ١٠ أكتوبر أبلغ مجلس الوزراء بأنه يعتقد أن إسرائيل ستهاجم مصر ، فى ٢٣ أكتوبر قال إن ذلك أمرا محتملا . وفيما بعد كان يعتقد أن الإسرائيليين يتقدمون فى عملياتهم العسكرية بهدف مهاجمة مصر ، وأن تاريخ قيامهم بذلك هو ١٠ أكتوبر ولهذا فإن إيدن كان يشك فى أنه إذا قامت إسرائيل بالهجوم فإننا مع الفرنسيين يجب أن نصدر إنذارا إلى الجانبين . فإذا رضخ

ناصر ، فإن هيبته ستتلقى ضربة مميتة . وإذا لم يرضخ ، فإنه سيكون هناك تبرير كاف لعمل بريطانى فرنسى لضمان سلامة القناة . ومن الأفضل أن نبدو وكأننا نحفظ التوازن بين مصر وإسرائيل بدلا من أن نقبل التعاون الإسرائيلى فى هجوم لهم على مصر .

وهكذا فإن اثنتين من الدعاوى الثلاثة التى قدمها البريطانيون فى حينه ـ بأنه لم يكن هناك اتفاق مسبق بشأنه ـ يتضح جليا أنهما غير صحيحتين .

لقد أصر بن جوريون على أننا لا يجب أن نكون البادئين بالحملة وأن نقوم بدور المعتدى ، بينما يبدو البريطانيون والفرنسيون كملائكة للسلام الذين يأتون بالهدوء للمنطقة . ولم يكن مستعدا لقبول تقسيما للمهام ، بحيث ـ كما يقول : « تتطوع إسرائيل بأن تصعد إلى منبر الخزى حتى تتمكن كل من بريطانيا وفرنسا من غسل يديهما فى ماء الطهارة » .

ويتساءل جيوفرى وارنر : « هل يرقى هذا إلى درجة التواطؤ ؟ ليس طبقا لسلوين لويد الذى يحاول أن يجادل قائلا : إن معيار التواطؤ هو الحافز . وهل العمل سئ السمعة أو قائم على الغش ؟ ولكن هل هذا هو المعيار ؟

إن أحد أعضاء الحكومة من ذوى المقاعد الخلفية وهو سير بوثباى ، كان أكثر دقة ـ بالتأكيد ـ عندما كتب لصحيفة التايمز فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦ مدافعا عن الحكومة ضد هذا الاتهام . كتب يقول : « إن تعريف التواطؤ فى القاموس هو اتفاق أو تفاهم سرى بهدف الخديعة أو الغش وإذا كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية قد قررتا فى أكتوبر الماضى الهجوم على مصر بهدف التخلص من ناصر واحتلال قناة السويس ، واستخدام إسرائيل كأداة لتحقيق سياستهما بإعطائها الضوء الأخضر لغزو شبه جزيرة سيناء لتبرير تدخلها فى أعين العالم ، فإنه يثبت عليهما جرم التواطؤ بالمعنى المقبول للكلمة » . ويعلق وارنر : « إن أحدا لايستطيع أن يضيف إلى هذه المقولة الدقيقة لما أقدمت عليه الحكومتان البريطانية

والفرنسية فى أكتوبر ١٩٥٦ . ويبدو أن هناك عددا كبيرا من الكتب عن أزمة قناة السويس والذين اشتركوا فيها ومنها كتاب بالفرنسية وله ترجمة بالإنجليزية . وكتاب آخر من تأليف جاك جورج بيكو ، الذى كان مديرا عاما لشركة قناة السويس ، وكتاب آخر من تأليف ليونارد موسلى بعنوان «آل دالاس» ويقصد بذلك الثلاثة المشهورين من أسرة دالاس وهم فوستر وألان واليانور . والكتاب يعالج جزئيا أزمة السويس .

إن هذا يبدو وكأنه إحياء لموضوع عظيم كان لدى الكثيرين عنه انطباع خاطىء بأنه أصبح قديما وطواه النسيان . وهناك إحياء مشابه ومرتبط بالموضوع ارتباطا وثيقا ويعدنا بمكتبة جديدة ليست عن أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ بالضبط . ولكن عن مجال أوسع من الفكر والجهود المتعلقة تاريخيا بربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر . وكيف أن هذه الأفكار والجهود ترجع إلى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وكيف أنه كانت هناك مخاوف مستمرة من أن مستوى سطح البحر الأحمر قد يكون أعلى من مستوى سطح البحر المتوسط وكيف أن الجهود قبل حفر قناة السويس الحالية . كلت قائمة على أساس الاعتماد على النيل لهذا الاتصال واستخدامه كنوع من الوسيط .

بل إن هناك من كتبوا بشئ من الحنين للماضى عن أحداث المنطقة التى تقع فيها القناة الآن وخروج موسى واليهود من مصر . والطريق ذى الاتجاهين لعيسى ومريم . والحروب المتعددة التى وقعت والأديان والحضارات والتجارة التى حدثت وإغلاق القناة عمدا بشكل متكرر .

وكان أول إغلاق للقناة لمدة يومين أثناء ثورة عرابى . والمرة الثانية وقعت عندما غزا البريطانيون مصر عام ١٨٨٢ . وللمره الثالثة كانت عام ١٩٥٦ بعد التأميم والهجوم الثلاثى على مصر . وهناك إغلاق آخر لبعض الوقت بعد حرب ١٩٦٧ وحتى ٥ يونيو ١٩٧٥ .

ويقول لنا جاك جورج بيكو : كما رأينا كانت هناك أوقات لم تستطع فيها

الشركة أن تمنع الدول القوية من فرض إرادتها . وهكذا استطاع الأسطول البريطانى خلال الحربين العالميتين أن يمنع سفن العدو من الاقتراب من مدخلى القناة

وهكذا قامت الشرطة والجيش المصرى منذ عام ١٩٥٠ وما بعدها أحيانا بوقف السفن الإسرائيلية . أو السفن التى يشتبه بأنها تحمل بضائع إلى الموانى الإسرائيلية . ولكن فى الحالتين فإن الشركة كانت تحتج رسميا ضد إعاقة حرية الملاحة . كما أنها رفضت . سواء عن طريق سيطرتها أو بتدخل وكلائها من أن يكون لها علاقة بالطريقة التى تتبعها الحكومة المصرية فى إصدار أوامرها بتفتيش السفن . تماما كما فعلت مع البريطانيين من قبل .

ويقدم لنا بيكو مزيدا من التفاصيل قائلا : خلال السنوات السبع والثمانين من حياة القناة تحت سلطة الشركة العالمية . تم إغلاقها فى وجه الملاحة فى عدة مناسبات . ولكن فى كل مرة كان الإغلاق مؤقتا بسبب الأحداث الطارئة . وفى عام ١٨٨٢ أدى التدخل البريطانى الذى أعقب ثورة عرابى باشا إلى إغلاقها لبضع ساعات قليلة . وفى عام ١٩١٥ فإن الإجراء التركى ضد مصر أدى إلى وقف حركة المرور فى القناة لبضعة أيام . وفى النهاية فى عام ١٩٤٠ و ١٩٤١ أدى القصف الجوى الألمانى إلى وقف الملاحة لمدة ٧٦ يوما . فى مجموعها ولكن كانت كل مرة لاتتعدى أسبوعا .

وفى عام ١٩٥٦ . بعد التأميم بثلاثة أشهر . أغلقت القناة لأول مرة بمعرفة مصر نفسها كرد فعل للهجوم الفرنسى البريطانى الإسرائيلى . وقد استمر ذلك أكثر من خمس شهور متعاقبة . ولكن لم يكن هناك وقت كاف لكى تتغير ترتيبات التجارة وعادتها بشكل جاد . وتم استئناف المرور عام ١٩٥٧ على أساس مشابه لما كان متبعا قبل التأميم .

وفى عام ١٩٧٤ ــ مع هذا ــ لم تكن هناك ملاحة فى القناة منذ الحرب

المصرية الإسرائيلية فى يونيو ١٩٦٧ . واستطاع عالم التجارة أن يتعود على العيش بدون قناة السويس .

إن هناك مزيدا من الكتب يظهر وهناك مقالات تكتب عن تحسين القناة حاليا ومستقبلا وعن دورها فى التجارة الدولية وعلاقاتها الأخرى .

وهناك رواية تقول : إن المرة الأولى التى ظهرت فيها فكرة ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط ـ عن طريق قناة تتفرع من النيل ـ كانت أثناء الأسرة الثانية عشر حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد كما ذكرنا من قبل .

وفكرة قناة مباشرة بين البحرين التقطها دى ليسبس من العرب الذى جاء فى تاريخهم وصف واضح لهذه الفكرة .

وقد كانت هناك مراحل متعاقبة .

فقدماء المصريون حفروا قناة واسعة صالحة للملاحة من النيل إلى المنطقة التى تعرف حاليا باسم كفار والتى تقع بين البحر الأحمر والبحيرات فى الشمال بالقرب من البحر المتوسط .

وحفرت قنوات متعاقبة . منها قناة بدأ الحفر فيها خلال حكم الملك المصرى نيكاو وتم الحفر خلال فترة حكم الملك الفارسى دارا .

والقناة التى فكر فيها الأمبراطور الرومانى تراجان لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عبر مصر . بحيث يمكن عن طريقها الوصول إلى الخليج الفارسى . هذه القناة تمت على يد الأمبراطور هارديان واستمر استخدامها حتى العهد الإسلامى . وذلك طبقا لما ذكره المؤرخ الإسلامى العظيم المقريزى .

وقد أمر الخليفة عمر واليه على مصر عمرو بن العاص بأن يصلح القناة ويجددها . وفكر عمرو فى التغلب على الاعتراضات القائلة بأن مستوى المياه فى البحرين ليس مستويا . بافتراض أن البحر الأحمر أعلى من البحر المتوسط .

وهناك آخرون من بينهم الخليفة هارون الرشيد الذى اتخذ نفس الموقف .

ولكن انتهى الأمر إلى العودة إلى فكرة الاعتماد على النيل لخلق الوصلة المرغوبة بين البحرين .

وكما نرى مما سبق ومن غير ذلك من الوثائق المتعلقة بالموضوع . فإن الفكرة كانت قائمة أساسا على خلق وصلة بين البحرين عن طريق النيل .

وعند بداية القرن التاسع عشر تقريبا تم إحياء فكرة الوصلة المباشرة . بعد أن ظهر تحد جاد فى فرنسا لنظرية ـ المهندس العالم الفرنسى لابيير التى تقول بأن مياه البحر الأحمر أعلى من مياه البحر المتوسط . وكما هو معروف تاريخيا . انتهى ذلك عام ١٨٥٤ بأن حصل فردناند دليسبس على موافقة من خديوى مصر سعيد للبدء فى حفر قناة السويس .

الفصل الأول

سنوات حافلة

إن أول معرفة مباشرة لى بقناة السويس سبقتها رؤيتى لعديد من السفن هناك وهى تشق طريقها خلال الكثبان الرملية . دون أن تظهر أية مياه .

وفى أوائل ربيع ١٩٤٠ . كنت مع زوجتى نسير بالسيارة فى اتجاه الشمال الشرقى من القاهرة إلى القدس التى عملت بها قنصلا عاما لمدة أربع سنوات وكانت رؤية الممر المائى وعبوره بالعبارة يبدو كأمر عادى ولا يمكن أن يدل على الأحداث التى وقعت بعد ذلك فيما يتعلق بالقناة والأرض والشعب . وهى الأحداث التى كنت على وشك أن أشهدها .

ومع هذا فإن عبور القناة بدأ لى فى السنوات التالية أشبه برفع الستار عن دراما لا يمكن لأحد منا أن يتصورها قبل حدوثها .

كانت أول مرة « أقابل » فيها جمال عبد الناصر ـ الذى أصبح فيما بعد الممثل الرئيسى فى قصة أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ ـ على شكل ارتباط بعيد لا يوحى بما تم بعد ذلك من مقابلات وتعاون خلال ١٨ عاما . بدأ بعد ثورة ١٩٥٢ بقليل .

فى عام ١٩٤٨ كان جمال عبد الناصر بين جماعة من قواتنا فى فلسطين حاصرهم اليهود فى الفالوجا . وفى ذلك الوقت كنت فى باريس رئيسا لوفد مصر الدائم فى الأمم المتحدة وعضو وفد مصر لدى الجمعية العامة . بينما كانت الجمعية العامة ومجلس الأمن يعقدان جلساتهما فى إحدى المناسبات القليلة التى يجتمعان فيها خارج نيويورك .

وكان أحد مهامى الرئيسية فى ذلك الوقت أن ألتمس من مجلس الأمن رفع الحصار الإسرائيلى عن جماعة الجيش المصرى الذى يقودها جمال عبد الناصر وبهذه الطريقة الغريبة تقابلنا لأول مرة ، عبد الناصر وأنا .

كان الجو فى المجلس وحوله مظلما بالنسبة لنا . فبالرغم من أننا كنا نمتلك حججا قوية نظريا ، إلا أن نفوذ إسرائيل فى الولايات المتحدة كان فى أوجه ، وكانت الولايات المتحدة ترأس المجلس وقتئذ ويمثلها السفير أوستن أو السناتور أوستن كما كنا نسميه ، لأنه كان عضوا فى مجلس الشيوخ عن دائرة فيرمونت .

وكان سبب رفع الحصار عن عبد الناصر وجماعته واضحا ، ربما واضحا أكثر من اللازم . ولكن الغريب أن ذلك انقلب علينا بالفعل : لقد عجز أوستن عن أن يجد طريقة لتخليص إسرائيل فورا من المناقشة التى ضيقت النطاق حولها ، بدون استشارة أعضاء المجلس ولم أستطع أن أتدخل ، على أساس أن مصر ليس لها الحق فى الاشتراك فى الشئون الإجرائية . وكانت سوريا عضوا ، يمثلها الموقر فارس الخورى أخذ على غرة لسبب أو لآخر بحيث لم يعترض ، وخاصة أن أوستن كان سريعا فى استخدام المطرقة فى رفع الجلسة .

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة باريسية أن أوستن ، الذى كان فلاحا طيبا متعلما ، كان ضميره يعذبه عندما كان يتكلم فى الاجتماع ، وأنه بعد أن خرج منه صاح غاضبا : « لعنة الله على السياسة » .

إن عبد الناصر لايدين لى بأى شكر لجهودى فى باريس عن طريق مجلس الأمن ، لتخليصه وزملائه من محنتهم فى الفالوجا ، فيما عدا شيئا قليلا لأننى حاولت .

وفى أواخر صيف عام ١٩٥٢ عندما تقابلنا عن قرب هذه المرة ، كان ذلك بداية لما يسمى حق السنوات التكوينية للثورة ، تكوينية بمعنى أنها كانت سنوات إعادة التقييم وإعادة التجميع والصراعات كما هو الحال مع أى ثورة ، أى الفترة

الانتقالية الصعبة التى يتحول فيها الثوار فى فترة معقولة ليصبحوا حكاما منظمين وإنشائيين . أى التحول من الثورة إلى الحكم .

وهناك مظهر لهذه السنوات التكوينية وهو إشتراك عبد الناصر فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ . لقد كانت أول تجربة له . وأول تعرف هام له على العالم خارج حدود بلاده .

كان قد تخلص بالكاد من الرئيس نجيب . الذى استخدم تشرتشل اسمه ربما عن عمد . ونطقه « بجويب » . وأصبح عبد الناصر رئيسا للجمهورية بالإنابة . وبهذه الصفة ذهب إلى باندونج وصحبته بصفتى وزيرا للخارجية .

وتوقفنا فى باكستان . حيث كان اسكندر ميرزا – وهو غير كفء – رئيسا للجمهورية . وكان محمد على رئيسا للوزراء وتبدو عليه سيماء الحيرة كما توقفنا فى الهند حيث تعرفنا على نهرو . الذى سافرنا معه على الطائرة نفسها إلى بورما وقابلنا نو . رئيس وزرائها البوذى التفكير والممارسة . وفى اليوم التالى لوصولنا إلى رانجون . كان هناك احتفال المياه الذى يعلن بدء الربيع ويتميز بالمرح ورش المياه على الناس دون اهتمام بالمنصب أو الوضع الاجتماعى . وقد نلنا نصيبنا كاملا وفى نهاية اليوم كانت ملابسنا متشربه بالماء وكنا نرد بالمثل فى كل اتجاه . وكان الماء المستخدم نقيا وفوارا وليس فيه أى ألوان كما يحدث فى الهند فى مثل هذا اليوم وهو ما علمناه ونحن هناك .

وكمظهر من مظاهر الحياة . فإن المرح الذى اشتركنا فيه خلال الاحتفال بالمياه فى رانجون لم يتغلغل بعمق فى شخصية جمال . حتى فى الفترة التكوينية المتعلقة بدوره الجديد كزعيم كبير انتشر نفوذه وشهرته خارج حدود مصر بكثير – مهما كان رأى البعض فى ذلك .

فلم يسمح لنفسه بأن يندمج تماما . بالرغم من ضحكاته العالية أحيانا والتى لم تكن تعطى الانطباع بأنه يقيد مرحه .

ومن رانجون اتجهنا إلى أندونيسيا وقابلنا رئيسها المتدفق حيوية : سوكارنو . وعلى نقيض . كان فى باندونج الحضور الملطف والمثير للاهتمام الشديد لشواين لاى . الذى كان وقتئذ وزيرا لخارجية الصين . والذى وصفه كسينجر فى كتابه : « سنوات البيت الأبيض » بأنه كان مؤدبا وصبورا بلا حدود . وذكيا وماهرا بشكل غير عادى .

وكانت باندونج هامة لمصر ولعبد الناصر من عدة وجوه .

فقد أعطت قوة جديدة للدفعة المعادية للاستعمار التى اشتركت فيها مصر منذ ذلك الوقت بشكل أكثر نشاطا وفاعلية من قبل . وهى التى سمحت ببداية الجماعة الأفرو آسيوية . والتى كان معظم أعضائها من دول عدم الانحياز . وفتحت لعبد الناصر آفاقا جديدة . وساعدته فى أن يكتشف بشكل أفضل : العالم حوله ونفسه . وهى حقيقة كان يعترف بها بشكل متكرر فى أحاديثه ويذكرها بشىء من الاعتزاز .

إن قصة باندونج قصة طويلة وذات مغزى ولايمكن أن يسعها الحيز المحدود الذى بين أيدينا الآن . ولكن قبل أن نتركها . فإن المرء ربما لايتعدى الصواب إذا ذكرنا أن باندونج أعطت عبد الناصر الثقة بالنفس وفتحت شهيته للإقدام على سياسات جريئة وللدخول فى مخاطر .

كان جمال يتمتع بموهبة مكتسبة . إن لم تكن موهبة طبيعية فى قدرته على الاتصال بالآخرين عندما يضع ذلك فى ذهنه . وفى هذا الصدد أتذكر أحد رجال الدولة القادرين المعاصرين له وهو الملك عبد العزيز ملك السعودية . الذى قيل لى إنه قال ذات مرة لأحد خلصائه : « إننى أصدر أمرا إلى قلبى ليحب أولئك الذين فى يدهم مصلحة لشعبى » .

وبالرغم من أنه من نواح كثيرة مثل السن والخلفية والمزاج والثقافة كان عبد الناصر هو النقيض لنهرو . إلا أنه استطاع فى الحال أن يقيم صداقة أو على

الأقل صلة وثيقة معه . مع عدم استبعاد بعض عناصر المصلحة السياسية من الجانبين .

ومع زيه العسكرى الفضفاض الذى كان يرتديه حتى ذلك الوقت . كان عبد الناصر يتمشى بشكل عجيب مع أناقة نهرو . ثم مع شخصية شواين لاى الرفيعة المستوى وقدراته كرجل دولة .

وبالنسبة للعلاقات مع هذين الزعيمين العظيمين . فإن بضع كلمات أخرى لن تكون خارجة عن الموضوع . ولاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار أننا الآن نعالج الفترة التكوينية لعبد الناصر كزعيم .

كان البعض ينظر إلى جواهر لال نهرو ــ وخاصة حاشيته وأعضاء وفده ــ على أنه نجم باندونج الذى لاينازعه أحد . كما كانوا يعتقدون أن الهند قادرة على أن تضع هذا المؤتمر فى جيبها بسهولة . وقد اكتشفنا بعد قليل أنهما يتضايقون من أى شبهة لما يخالف ذلك . ولكن كان هناك شواين لاى العجوز وعبد الناصر الشاب . وقد لعبا دورهما بمقدرة وبامتياز عظيم . وكان هناك قلة أخرى . إلا أنهم كانوا أقل بروزا .

ولم يستطع كريشنا مينون . وكان وقتئذ وزير دولة للهند وكبير مستشارى نهرو فى الشئون الخارجية . أن يحتمل ذلك . وكان يشعر بحساسية عنيفة من هذا الموضوع . وعند نهاية المؤتمر قال لى . بطريقته التى تتسم بالعجرفة والغرور : « إذا كنا نعلم مسبقا أن الأمور ستسير هنا كما سارت . ما جئنا » . وعندما أجبته بأن ذلك كان سيكون شيئا مؤسفا . لم تساعد إجابتى على تهدئته .

هذه القصة تحمل بعض أوجه الشبه بقصة أخرى تتصل باجتماع قمة حضره إيزنهاور وإيدن . كما حضره خروشوف وبولجانين . وهناك وصف لاجتماع القمة وتساؤل : من من أعضاء الوفود الغربية كانت لديه فرصة أفضل لمجاراة مهارات الزعيمين الروسيين خروشوف وبولجانين ؟

لقد كان الاجتماع أول اجتماع قمة بالنسبة للرئيس إيزنهاور . ولكن كان أنتونى

إيدن يحضر مؤتمرات القمة كلها أثناء عمله الدبلوماسى الطويل والحافل . وهو يعرف كيف يتعامل مع الزعماء الشموليين . لقد تحدث مع هتلر وموسوليني وستالين . وهو يعرف الأصول . وهو صديق لايك (إيزنهاور) فى فترة الحرب . وفى أيام الدبلوماسية كان كبير السن بحيث يصلح أن يكون والدا لايك ، وكوالد كان يوجهه وينصحه وينقذه من الوقوع فى الخطأ . وهو ينتقى الكلمات ويجارى الزعماء السوفيت فى دعاباتهم . أو هكذا كان يظن . لقد كانت حالة إيدن الجسدية والعقلية فى ذلك الوقت تجعله يعتقد أن فوستر دالاس يمكن أن يسمح له بالقيام بهذا الدور .

ولقد وافق إيزنهاور على عقد مؤتمر القمة فى جنيف فى ذلك الصيف لأنه كان يعتقد أن الوقت ملائم للولايات المتحدة ، وأن الروس قد رأوا أخيرا الضوء . وأدركوا أن الأمريكيين جادون فى الطريقة التى يرونها ويرغبون فيها فى تشكيل العالم . وقد تخلى منذ فترة طويلة عن فكرة « استبعاد » السيطرة السوفيتية على أوربا الشرقية (وعلى أى حال كانت كلمة الاستبعاد هذه كلمة مثيرة كلها « لجذب الأصوات العرقية) . ولكنه كان يعتقد أن التمسك بالهدف والذى أظهره فى تشكيل السياسة الخارجية للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين فى أوربا وفى آسيا عن طريق حلف سياتو (حلف جنوب شرق آسيا) قد أظهر للروس أنهم لايمكنهم إحراز مزيد من التقدم .

وبقى تشكيل الاستراتيجية وتقرير التكتيكات التى تعطى الرئيس إيزنهاور أفضل فرصة للتوصل إلى نتائج طيبة وجعل العالم يرى أن مؤتمر القمة يستحق انتظاره . وقد صمم فوستر على شىء واحد هو أن يكون مؤتمر القمة هو مؤتمر رئيس الجمهورية . وكانت هناك شائعات بأن انتونى إيدن كان يعلق عليه آمالا كبارا أيضا . وهو أول ظهور له فى مؤتمر دولى باعتباره رئيسا لوزراء بريطانيا العظمى . وهو فى حاجة إلى أن يظهر لمواطنيه أن لديه صفات تشرشل ، وكانت هذه هى فرصته الذهبية .

وفى السنوات التالية تعودنا أكثر على نوبات غضب كريشنا . ولم أسمح بإفساد تعاوننا أو حرماننا من إسهاماته المفيدة فى الدفاع عن قضايانا . وإن كانت أحيانا تأخذ شكل التورط . وعلى أى حال كان يحمل معه إلى اجتماعات الأمم المتحدة الوزن السياسى والأدبى للهند فى عهد نهرو .

وجاء شواين لاى إلى باندونج ليواجه علامة استفهام . إن كثيرين منا لم يسبق لهم أن شاهدوه عن قرب : كيف يبدو ؟ كيف يتصرف ؟ سنعرف ذلك بعد قليل .

إن اللعبة التى لعبها ما كانت يمكن أن تكون أكثر نعومة ومقدرة . وقد لعبها فى هدوء ــ كما فعل عبد الناصر ــ وبتوقيت ممتاز وبشعور بالمسافة . ولم يكن يعوقه أو يؤدى إلى اضطرابه أبدا أن معظم البلاد الممثلة فى باندونج كانت معترفة بالصين الوطنية وليس بجمهورية الصين . وكان هذا صحيح بالنسبة لمصر . وقد عالج شو هذا باعتبارها مسألة عارضة وثانوية . ولم يسمح لها أن تعكر صفو الصداقة الوليدة والتعاون بينه وبين عبد الناصر الذى صحبته إلى مأدبتى العشاء الحميمتين الخاصتين جدا اللتين تبادلاهما . واللتين اعتبرتا صلة مبكرة لسلسلة من العمل البناء للزعيمين معا . وهذه الصداقة نمت وترعرعت بمر السنين . وكان من الطبيعى أن تساعد على اعترافنا بجمهورية الصين . وبالرغم من أن الصين الوطنية كانت تؤيد قضايانا بالرغم من سياسات الأمم المتحدة واتجاهاتها . ولهذا كان قطع علاقاتنا الدبلوماسية مع الصين الوطنية مؤلما . دون أن نذرف عليه دموعنا . وإن كان السفير الصينى فى القاهرة قد بكى عندما زارنى ليستأذن فى الرحيل . وهى حالة نادرة أن أرى صينيا بالغا يبكى .

إن مؤتمر باندونج من ناحية الوقت وغيره من النواحى انعقد فى وقت حدثت فيه أكبر التقلبات فى التاريخ كله . فهناك امبراطوريات عديدة تعرضت للتمزق نتيجة للحرب العالمية الأولى . وأعلن الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون مبادئه فى الحرية وتقرير المصير . وعرضت الحرب العالمية الثانية امبراطوريات عديدة لهزات

من أساسها . وحررت كوريا وعدد كبير من الأقاليم الأخرى من السيطرة الأجنبية . وعانت فرنسا من نكستها فى الهند الصينية واضطرت إلى التنازل عن قبضتها الاستعمارية هناك . ونالت أندونيسيا والفلبين وباكستان استقلالها ، وبتفكك الأمبراطورية العثمانية حصلت بلاد عربية كثيرة على حريتها أيضا . وسارت القارة الأفريقية على طريق الاستقلال ، إلا أنها تخلفت للوراء بضع خطوات خلف آسيا .

تذكرت هذا فى أول مؤتمر للدول الأفريقية المستقلة فى أكرا عام ١٩٥٨ حيث رأست الوفد الممثل لمصر . وكانت هناك ثمانى دول فقط ، وكان من الصعب التنبؤ بالسرعة التى نما بها هذا العدد ليصل إلى أكثر من خمسين دولة أفريقية مستقلة ، مع مزيد فى الطريق . حتى أنها تشكل الآن أكبر الجماعات عددا فى الأمم المتحدة .

وفى وسط هذه الأحداث والهزات ، فإن مؤتمر باندونج بالرغم من أنه كان يتحسس طريقه فى بادئ الأمر ، إلا أن قراراته كانت مميزة وكانت أكثر من مجرد التعبير الجغرافى عن « الأفروأسيوى » .

وقد تلقى الوفد المصرى لباندونج ، الذى كان عبد الناصر على رأسه ، ترحيبا حارا بوجه خاص فى أندونيسيا رسميا وعلى أساس شعبى معا .

وكانت مصر قد أعطت تأييدها الكامل لحركة استقلال أندونيسيا بشكل مباشر وفى الميدان الدولى ، وخاصة خلال مناقشات مجلس الأمن . وكون مصر دولة إسلامية فى معظمها مثل أندونيسيا ، كان عاملا هاما أيضا . والحقيقة أن انتشار الإسلام إلى هذه الأجزاء من العالم فى أقل من مائتى عام منذ عهد الرسول عليه السلام بالرغم من مخاطر وصعوبات المواصلات فى تلك الأيام كان من بين أعظم الإنجازات التاريخية المسجلة .

وانتابتنى أفكار مماثلة خاصة بانتشار الإسلام فى آسيا ، بشأن الجزء الغربى من القارة ، وأجزاء من الهند وسيلان (سرى لانكا) وتايلاند وماليزيا والفلبين

والصين. هذه الحقيقة التاريخية الماثلة الآن لم تكن بلا صدى وتأثير بالنسبة لباندونج ، بالرغم من أننا وإخواننا فى الدين حرصنا بوجه خاص على أن نبالغ فى إظهار ذلك .

الفصل الثاني

تفكك الأمبراطوريات

كما هو معروف تاريخيا ، فإن مؤتمر باندونج سبقته وواكبته وتبعته حركة تحرير انتشرت بسرعة فى كثير من أنحاء العالم . وإلى جانب أندونيسيا والفلبين اللتين نالتا استقلالها ، فإن دين بن فو فى الهند الصينية كانت فى طريقها ، وكانت الهند وباكستان قد ظهرتا لتوهما كدولتين مستقلتين عام ١٩٤٧ ، وكذلك فى أفريقيا فإن حركة الاستقلال بدأت تنتشر .

وكان من الطبيعى أن باندونج يجب أن تعطى دفعة لحركة عدم الانحياز ، بشكل متواز لما فعلته مع حركة الاستقلال . وقد قوبل الحلف الثلاثى الخاص بالشرق الأوسط الذى عقد بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا ، وكان يهدف إلى خلق نوع من السيطرة لهذه الدول على الشرق الأوسط ، قوبل بالمقاومة والرفض من جانب مصر ومعظم دول المنطقة الأخرى . ونفس الشىء حدث لحلف بغداد والمحاولات المشابهة المعاكسة أو التى تهدف إلى تأخير حصول عدد كبير من البلاد التى كانت خاضعة من قبل فى آسيا وأفريقيا ، على استقلالها .

وكان المشهد الكامل فى هذه الأجزاء من العالم أشبه بتراجيديا يونانية مليئة بالمواقف المتناقضة ، منها بدراما عادية .

ويبرز ذلك بوجه خاص عندما ننظر إلى سياسات واتجاهات انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الخاصة بالشرق الأوسط . ولم يكن مثيرا للدهشة أن يتعلق البريطانيون والفرنسيون بمواقفهم المسيطرة والمميزة فى المنطقة . وكانت الولايات

المتحدة بالذات منذ عهد ودرو ويلسون قد بدأت ـ بشيء من التردد بل والمعارضة الداخلية ـ تخلص نفسها من السياسة الانعزالية . وبدأ اتباع تدريجي للمبادئ السامية لودرو ويلسون ـ والتي بقيت في السابق في عالم النظرية ـ فانتقلت من النظرية إلى السياسات والاتجاهات النابعة منها . والمستمدة كذلك من المشاعر الأخلاقية والمعتقدات الدينية . ومثلا علمنا أنه في اجتماع بين رئيس وزراء فرنسا جي موليه والسناتور جون ف . كنيدي ـ قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية ـ قام موليه بسرد لقصة ماتعانيه فرنسا من مستعمراتها . ومن الواضح أنه كان يتوقع تفهما وعطفا . كما كان يتوقع نصيحة مفيدة إن لم يكن تأييدا من محدثه . ولكن بدلا من ذلك تلقى أكبر صدمة في حياته من كنيدي الذي قال له بصراحته المعهوده وبخشونة : « ولماذا لا تحرروا كل مستعمراتكم ؟ » .

وفي السنوات التالية وفيما بعد . بدأ بالنسبة لسياسات الولايات المتحدة واتجاهاتها عهد من التيارات والتيارات المضادة إزاء الشرق الأوسط . واستمرت الولايات المتحدة . وأحيانا كثفت من سياساتها ضد الاستعمار . ولكن الكثيرين تساءلوا .

على ضوء الاتجاهات والسياسات الأمريكية ـ هل الأمر هو مكافحة الاستعمار بحق وبدون زيف أم مجرد مقدمة خاضعة لعملية سيطرة أمريكية ووراثة للبريطانيين والفرنسيين .

وهناك البعض الذين ربطوا هذا التفكير بغضب إيزنهاور وانفجاره « بلغة معسكر قاسية » ضد البريطانيين والفرنسيين وكذلك ضد الإسرائيليين . عندما تم إبلاغه بالهجوم الثلاثي ضد مصر في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .

وبدون أن نخطئ أو نكون غير مجاملين أو نفرغ تعبير إيزنهاور من الاعتبارات الأدبية والقانونية بهذه المناسبة . إلا أن هناك من يرى أن السبب الرئيسي لغضبة إيزنهاور . ما يمكن إعادة صياغته كالآتي : لماذا بحق السماء . بعد أن خرج هؤلاء الأوغاد من الشرق الأوسط . يشقون طريقهم إليه ؟

وفسر البعض غضب إيزنهاور بأن نسبوه إلى مبالغته فى تضخيم ذاته ، وأنه اعتبر الأمر أشبه بالعيب فى الذات الملكية من جانب دول أقل أهمية مثل المملكة المتحدة وفرنسا والأسوأ من ذلك : إسرائيل ، مع أن الولايات المتحدة حاولت أن تكون صبورة مع هذه الدول وأن تساعدها .

مثل هذه الإيضاحات سارت متوازية مع الافتراض ، بل التأكيد بأنها الحقيقة الواقعية .

إن الولايات المتحدة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية . قد أصبحت الخليفة المنطقى والتاريخى للملكة المتحدة وفرنسا فى الشرق الأوسط ، ولهذا كيف يمكن عودتهما إلى المنطقة والتهديد بإرجاع استعمارهما . ويقال إن هذا كان اتجاه إيزنهاور إزاء كل أنواع الاستعمار . الذى يبغضه بشكل واضح ومخلص . وبالطبع فإن هذا يعنى أن الدور الذى انتوى إيزنهاور وحكومته أن يتخذه فى الشرق الأوسط ، لم يكن إحياء الاستعمار ، ولكنه أساسا دور التنمية والتحديث بما فيه مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك صالح شعوب المنطقة والسلام العالمى .

وإذا عدنا إلى ما يبدو من متناقضات فى سياسيات الولايات المتحدة واتجاهاتها ، وكذلك أفعالها بشأن الشرق الأوسط فإن كثيرا من العرب وغيرهم لا يمكن إلا أن يلاحظوا أن هناك صراعا حادا بين سياسة الولايات المتحدة المعادية للاستعمار وهى سياسة مفهومة . وبين كون الولايات المتحدة النصير الرئيسى لإقامة إسرائيل ومنحها التأييد المستمر لفرضها على الشرق الأوسط بشكل متزايد .

وقد شرح دالاس لبعض أعضاء الكونجرس الأمريكى أنه يشارك البريطانيين والفرنسيين شعورهم بأن عبد الناصر يشكل تهديدا خطيرا للغرب . وأن تصرفاته هى أكثر من مجرد استعراض للقومية . قال : « إننى أعتقد أن عبد الناصر ينوى أن يوحد العالم العربى ، وإن أمكن أن يوحد العالم الإسلامى ، ثم يستخدم بترول الشرق الأوسط والقناة كأسلحة ضد الغرب » .

وكتب أحدهم : إذا كان وزير الخارجية الأمريكية يعنى ما يقول بإخلاص ، وليس مجرد تفاخر ببراعته الشخصية ، وكوسيلة للتأثير على مشاعر أعضاء الكونجرس ، فإنه يصبح من الصعب فهم استخدام قفازه الناعم فى التعامل مع ناصر وفى نفس الوقت تعامله الخشن مع حلفائه الغربيين .

إن الاتجاه الرسمى للولايات المتحدة فى ذلك الوقت لخصته تصريحات دالاس وإيزنهاور . وفى يونيو ١٩٥٦ شن دالاس هجوما على الدول المحايدة ووجه إليها انتقادات قاسية . وفى ٦ يونيو تحدث الرئيس الأمريكى بنفس كلمات دالاس قائلا : « إن لفظ محايد لايعنى محايدا بين الصواب والخطأ ، أو بين ماهو لائق وما هو غير لائق . إنه يعنى الحياد فقط بين القوات العسكرية المتحاربة » . وأحدث التفسير بلبلة وقامت ضجة عالمية . وبعد حديث مع دالاس ، أصدر الرئيس الأمريكى توضيحا : بأنه فى ظل ظروف خاصة يكون هناك تبرير للحياد السياسى ولكن ما زال الرأى بأنه ليس من حق أية دولة أن تبدى عدم اكتراث بمصير دولة أخرى . أوكما قال دالاس أن تكون محايدا بين الصواب والخطأ أو ما هو لائق وغير لائق .

وفى ١٢ يونيو أكد دالاس بنفسه أنه ورئيس الجمهورية متماثلان فى التفكير . وفى كلية ولاية أيوا فى ٨ يونيو ١٩٥٦ أعلن دالاس مرة أخرى أن مبدأ « أن كل دولة يمكن أن تضمن سلامتها بأن تكون غير مكترثة بمصير الآخرين ـ إلا فى حالات استثنائية جدا ـ هو أمر يتنافى مع الأخلاق ويدل على قصر النظر » .

ولم تلق رياح الحياد التى هبت قبل باندونج، ثم انتشرت وقويت بعدها . ترحيب الكثيرين ، وخاصة دالاس ، ومشاجراته العلنية مع نهرو حول لا أخلاقية الدول المحايدة أمر معروف للجميع . ولقد كانت كراهية دالاس للحياد وللمحايدين مرتبطة ارتباطا وثيقا بموقفه الثابت ضد الشيوعية . وجهوده الهائجة لاحتوائها . لقد كان صراعا بين المعسكرين الكبيرين ، وكانت الحرب الباردة فى أسوأ حالاتها . وشعر دالاس بأنه « من ليس معى فهو ضدى » .

وأما عن السوفيت فقد كان من الطبيعى أن يفضلوا أن يقف فى صفهم أكبر عدد ممكن من الدول . ولكنهم كانوا يتقبلون حياد الآخرين على اعتبار أنه ربما يكون فترة انتقالية إلى أمور أفضل وعلى أساس أنه الاختيار الثانى المقبول . أما الاختيار الأول فهو التحالف مع الشرق . وبالنسبة لكراهية دالاس للمحايدين واحتقاره لهم ، فإنه يذكرنا بقيصر بورجيا الذى نسب إليه أنه قال : « المحايد ضائع على أى حال . إن من يأخذون جانبا تكون لديهم فرصة خمسين فى المائة للانتصار . بينما المحايدون البؤساء ينتهون إلى احتقار ولعنة الجميع لهم . إن المنتصرين يعتقدون أنهم تعرضوا للهزيمة لأن هؤلاء المحايدين التعساء لم ينضموا إليهم . أما المهزومون فيشعرون بما يشبه ذلك أو ما هو أسوأ منه لأن المحايدين البؤساء لم ينضموا إليهم وينقذونهم من الهزيمة » .

ومع هذا فإنه لا الهجوم العنيف من دالاس على المحايدين . ولا تلك المناقشات الساخرة المصقولة لأمثال قيصر بورجيا قد أقنعت الكثيرين . وخاصة الزعماء الكبار الثلاثة تيتو ونهرو وعبد الناصر . وكان الزعيمان الأخيران قد تخلصا لتوهما مع بلديهما من نير الاستعمار . وأدركا جيدا أن التحالف بين القوى والضعيف يعنى السيطرة من جديد . أما عن تيتو . فإن الاعتبارات نفسها موجودة . فقد كانت له مساجلات عنيفة مع موسكو . ولكنه استطاع أن يتخلص من سيطرة موسكو بعد أن تعرض لمخاطر حقيقية .

ولهذا كان من الحيوى بالنسبة له أن يدعم ويحافظ بعناية على استقلاله الذى حصل عليه حديثا . فى مواجهة جيرانه الكبار . وشعر أن عليه أن يوسع صلاته مع أكبر عدد ممكن من الدول خارج الكتلتين . ولكن يوغوسلافيا ليست دولة أفريقية أو آسيوية . مثل الدول المشتركة فى مؤتمر باندونج الأفرواسيوى ولقد كان للدول العربية جماعة خاصة بها . وكذلك الدول اللاتينية .

ولم يكن تيتو يريد أن يبقى وحيدا . وهو يشعر بالأمان أكثر كلما كان فى مجموعة كبيرة ومتجانسة سواء سميناها محايدة أو تتبع الحياد الإيجابى أو عدم

الانحياز . فمثل هذا النوع من التجمعات يرضى تيتو ورغبته فى الانتماء إلى جماعة . وكان هذا شعوره بالارتياح بين الدول النامية .

هذا الموقف ربما يذكرنا ببعض الأشخاص الذين عاشوا فى أرض استوائية وهناك أسطورة عن أنهم كانوا يضطرون إلى المبيت فى العراء ويمدون أذرعتهم أفقيا . كنوع من الاحتياط حتى لاتبتلعهم « البوا » أو غيرها من الأفاعى الكبرى .

والحياد أو عدم الانحياز كما عرف فيما بعد . أعطى دفعة قوية إلى الأمام فى مؤتمر باندونج .

وعندما نشبت الحرب الكورية فى صيف ١٩٥٠ وأصبحت موضوعا رئيسيا يقسم الشرق ضد الغرب . وقفت مصر بثبات والهند بتردد إلى حد ما . بعيدا عنها . ورفضنا الانضمام إلى جانب ضد الآخر . وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هناك مشروع قرار غربى قدم إلى مجلس الأمن ضد الدول الشيوعية المشتركة فى الحرب . وقد امتنعت مصر عن التصويت ضد أو معه . ولهذا السبب فإن المندوب البريطانى سير جلدوين جيب الذى كان قد وصل لتوه من المملكة المتحدة . ولم يكن لديه الوقت الكافى للتعرف على المندوبين الآخرين . هاجم مصر بمرارة . وكنت وقتئذ أمثل مصر فى المجلس ورفضت هجوم جيب بكل ما أملك من قوة . وذكرته بأن مصر دولة مستقلة وأنها حرة فى أن تتبع أية سياسات وأن تتخذ أى مواقف تراها .

وبعد سنوات عديدة . جاء جيب ـ الذى أصبح لورد جلدوين ـ إلى القاهرة مع وفد من مجلس اللوردات وزارونى فى مكتبى . وسألت الأعضاء الآخرين هل جلدوين مازال على عنفه كما نعرفه ، وكان الرد بالنفى وأنه أصبح لين العريكة .

وعندما عقد مجلس الأمن اجتماعه التالى عن كوريا . أيد المندوب الهندى سير بنجال راو مشروع القرار الغربى . ولكن وصلته تعليمات من حكومته جعلته

يعود فى الاجتماع التالى إلى موقف الحياد نيابة عن الهند . وهاجمت بعض الصحف تردد الهند وأثنت على السياسة الثابتة والموقف الذى تبنته مصر .

ومما يسعد أولئك الذين يؤمنون بعدم الانحياز أن يذكروا أن الهند سرعان ما أصبحت إحدى القلاع الرئيسية للحياد ، وأن نهرو أصبح أحد كبار مؤيديه وزعمائه العظام .

وعند نهاية عام ١٩٧٨ عقد مؤتمر هام لدول عدم الانحياز فى بلجراد . وحضره ٥٨ عضوا و ٣٥ مراقبا وإذا تذكرنا فى هذا المقام ــ من بين أشياء أخرى ــ أن عدم الانحياز نما بشكل سريع عندما كانت الحرب الباردة مريرة ونشيطة ، وأنها عندما هدأت وخفت ، فإن عددا كبيرا من المراقبين والمشتركين فى حركة عدم الانحياز بدأ يتساءل عن جدوى عدم الانحياز ، وهل ستتفكك وتخبو . إن ما حدث بالفعل شىء مختلف تماما كما تدل الشواهد .

الفصل الثالث

تجمع العاصفة

يستحسن النظر إلى بعض الأحداث التى سبقت تأميم قناة السويس .

فى ربيع ١٩٥٥ زار دالاس القاهرة . ووقع هذا التاريخ بين تاريخين هامين : الاتفاقية بين مصر والمملكة المتحدة بشأن السودان عام ١٩٥٣ . والاتفاقية المصرية البريطانية عام ١٩٥٤ بشأن انسحاب البقية الباقية من القوات البريطانية من منطقة السويس ومصر .

وزارنى دالاس بوزارة الخارجية حيث عقدنا اجتماعا وديا غير رسمى . حضره بعد ذلك أعضاء وفدينا . ولقد عرفته منذ خريف ١٩٤٧ عندما عين عضوا فى وفد الولايات المتحدة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة . عندما كنت رئيسا لوفد مصر الدائم وعضوا فى وفد مصر فى الجمعية العامة . وخلال زيارته نفسها للقاهرة . عقد دالاس اجتماعا وديا مع اللواء محمد نجيب الذى كان وقتئذ رئيسا لمجلس قيادة الثورة قبل أن تصبح مصر جمهورية عام ١٩٥٤ . كما أجرى دالاس مباحثات مع عبد الناصر . واستعرضا الموقف فى الشرق الأوسط .

وقد أقنعت الجولة دالاس بأن شمس بريطانيا قد غربت . كما حدث فى الهند . وأن النظام الشمسى الأمريكى قد بزغ فى مكانها .

ولقد كان يريد الحصول على مساعدة عبد الناصر فى مكافحة خطر الشيوعية العالمية . ولكنه واجه صعوبة فى إقناع المصريين بأن روسيا تهدد مستقبل مصر أكثر من الاحتلال البريطانى فى الداخل والجيش الإسرائيلى على الجانب الآخر من قناة السويس .

وسأل عبد الناصر دالاس : «كيف أذهب إلى شعبي وأقول له إنني أتجاهل قاتلا بيده مسدس على بعد ستين ميلا مني عند قناة السويس لأقلق بشأن شخص آخر يمسك بسكين على بعد آلاف الأميال ؟ لم تكن لنا مع الاتحاد السوفيتي أية متاعب فهم لم يسبق لهم مهاجمتنا . ولم يكن لهم قاعدة هنا . ولكن البريطانيين كانوا هنا لسبعين عاما» .

ووافق فوستر أن هذا وقت طويل . وأن زمن بريطانيا انتهى . وكان أحد قراراته التي اتخذها عند عودته من اجتماع القاهرة هو أن الجيش البريطاني يجب أن يعمل على إجلاء جنوده البالغ عددهم ثمانين ألفا عن منطقة القناة المصرية . ومن الطبيعي أن هذا كان يعني أن البريطانيين كان عليهم في النهاية أن يتركوا الخليج العربي وغيره من أجزاء الشرق الأوسط حيث العلم البريطاني مازال يرفرف . وهنا يخلق فراغ . وماهو أفضل للعرب من أن يصل الأمريكيون لملئه ؟ وبعد شهور قليلة . عندما وصل وفد عسكري مصري إلى الولايات المتحدة بأمل شراء أسلحة . قابلهم دالاس في حجرة على حائط منها خريطة للعالم . وكان فوق موقع أوربا وآسيا نجوم صغيرة وخطوط حيث ترابط قوات أمريكية أو تقع مطارات أمريكية . وأشار فوستر إلى بعض المناطق الخالية وقال للمصريين إن ما نريده هو بعض الأعلام هنا . وأتذكر في هذا الصدد أنه في خريف ١٩٤٧ اتصل بي الن شقيق فوستر . وكان وقتئذ محاميا لامعا ولم يكن قد عين بعد رئيسا لوكالة المخابرات المركزية . وذلك بشأن بعض الأوراق المتعلقة بالقضية المصرية ضد المملكة المتحدة التي عرضتها مصر على مجلس الأمن وكان على وشك مناقشتها وأبلغني ألن أنه اضطر إلى إرجاع هذه الأوراق لي لأن شقيقه فوستر عين عضوا في الوفد الأمريكي بالجمعيه العامة للأمم المتحدة وأنه من المستحسن تفادي أي تعارض للمصالح مهما كان غير مباشر . وفعلا أعاد الأوراق لي .

وعند نهاية زيارة فوستر دالاس لمصر كان جو العلاقات المصرية الأمريكية بما فيها التعاون الاقتصادي . صافيا بوجه عام . وعندما وافقت المملكة المتحدة عام

١٩٥٤ ـ بضغط أمريكى قوى ـ على بدء سحب حاميتها المكونة من ثمانين ألفا من منطقة قناة السويس . سأل ونستون تشرشل فوستر دالاس لماذا هو حريص على أن تقدم بريطانيا هذه اللفتة لحكومة الثورة المصرية الجديدة . أجاب فوستر : لأنها ستحيى وتقوى الموقف المصرى . حتى يمكن لمصر فى المستقبل أن تلعب دورا قياديا فى الشرق الأوسط .

ورد رئيس الوزراء البريطانى بتجهم : « إن قيام مصر بدور قيادى فى أى شىء معناه المتاعب » .

وفى فبراير ١٩٥٥ جاء هنرى بايرود إلى القاهرة كسفير للولايات المتحدة . خلفا لجيفرسون كافرى الذى شغل المنصب منذ عام ١٩٤٩ . ولهذا فإن كافرى شهد تدهور وانحلال نظام حكم فاروق مما أحزنه . بالرغم من أنه فيما بعد ـ وبدون أى تناقض بالضرورة ـ ساعد فاروق على أن ينجو بحياته عندما ناشد القصر سفارة الولايات المتحدة الحماية . بل إنه ذهب يودعه عندما استقل اليخت المحروسة مع أسرته . كما فعل اللواء نجيب وعديد من ممثلى مجلس الثورة الآخرين

ولقد وجدت أن كافرى متعاون ومتفهم أيضا بالنسبة للمفاوضات التى أدت إلى الاتفاقية التى أنهت مرابطة القوات البريطانية فى مصر . وبعد أن غادر القاهرة . استمر تبادلنا للتحيات اجتماعيا . إلى أن توفى تقريبا منذ سنوات قليلة .

لقد اهتم كافرى اهتماما حقيقيا بتنمية اقتصاد مصر وتحسين مستوى معيشة الشعب المصرى . وكان يرى أن هذا أمر جوهرى للمحافظة على مصالح بلاده . وكان يحب بوجه خاص اشتراك الولايات المتحدة فى بناء سد أسوان العالى فى جنوب مصر . وبالرغم من بعض التوجسات من النظام الثورى الجديد . إلا أنه أقام علاقات طيبة نسبيا معه . بالرغم من بعض التحفظات الهامة النابعة من دراسة دقيقة للحياة السياسية السابقة لعبد الناصر وأسلوبه . ومن تحليل دقيق لأعماله ومواقفه الحالية . ومن الطبيعى أن يكون كتابه فلسفة الثورة من الأشياء

التى تمت دراساتها بدقة . ولم يساعد ذلك على تهدئة بعض رجال الحكم الغربيين .

وكان وصول بايرود عام ١٩٥٥ يمثل نوعا من التناقض. فالسفير الجديد كان صغير السن مثل عبد الناصر بينما كان كافرى فى أواخر الستينات عندما بدأ . وكان بايرود كولونيلا سابقا . وبالرغم من أنه كان يتوقع الخلافات فى الشكل والمضمون . إلا أنه نفذ سياسة حكومته فى مراقبة عبد الناصر فى الوقت الذى يتعامل فيه معه . ومع هذا كان يبدو متعاطفا مع القاهرة . وأكثر اقترابا .

كما عرف عن بايرود أيضا أنه ـ قبل حضوره إلى القاهرة وبصفته مساعدا لوزير الخارجية ـ أوصى أن تكون هناك قيود على تزويد مصر بالسلاح أقل مما يصر عليها دالاس . ومع هذا نسب البعض إلى بايرود أنه عند بداية مهمته فى القاهرة كان متشائما من سياسة الحكومة التى يرأسها عبد الناصر . ومن بين هؤلاء جاك جورج بيكو الذى ذكر فى كتابه « أزمة السويس الحقيقية » : قبل مغادرة القاهرة فى ٣٠ مارس زرت السفير الأمريكى الجديد هنرى الفرد بايرود . الذى أظهر بوضوح لأول مرة قلقة من موقف الحكومة المصرية . وكان يعتقد أن سياستها الخارجية فاشلة . وأن عدم شعبيتها فى الدخل فى ازدياد .

وبعد توقيع الاتفاقية المصرية البريطانية عام ١٩٥٤ لم يتم تزويد مصر بالسلاح الأمريكى ، وبدأت أحداث أخرى تقع . وقبل أن أتطرق إليها . أجدنى أقرأ فى كتاب هيرمان فاينر : « رأى دالاس فى السويس تصريحا مبالغا فيه بأنه لا أحد مثله خدع من العرب ومن أعضاء مجلس الشيوخ الذين زاروا ناصر زيارات خاطفة وعابرة . وعلى الأقل بالنسبة للسفيرين فإن ملاحظاتى تدلنى على أنهما لم يخدعا حقا ولكنهما وقعا تحت تأثير سحره . وفى مجال آخر يلاحظ أن بايرود رحل إلى منصب جديد فى جنوب أفريقيا بعد أن زار ناصر لتوديعه . ويتذكر بايرود ذلك قائلا : فى آخر اجتماع لنا قال ناصر إن الفرنسيين

والبريطانيين سيبقون خارج البحر المتوسط إلى أن يجدوا ذريعة للعودة . وكان متأكدا من ذلك » .

لقد كان هانك بايرود أحد شباب الخارجية الأمريكية اللامعين الذين تعلق عليهم آمالا . وقد وافق أن يخفض من درجته كمساعد لوزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط ليقبل المهمة فى القاهرة بناء على طلب خاص من فوستر . وكانت مهمته هى إدخال ناصر فى المعسكر الغربى . ولكنه فشل ــ كما كان سيفشل أى شخص آخر فى مثل ظروفه ــ ولكن فوستر لم يكن يسمح بالفشل .

ودارت عجلة الأحداث . وبعد فشل مصر فى الحصول على السلاح من الولايات المتحدة . كان هناك شعور بالحاجة إلى السلاح من أى مكان . وخاصة بعد الهجوم الإسرائيلى العنيف على غزة فى اليوم الأخير من فبراير ١٩٥٥ مما أسفر عن عدد كبير من القتلى من رجالنا وتدمير عدد كبير من الممتلكات .

وفى الفترة نفسها تقريبا كان دانيل سولوف السفير السوفيتى قد بدأ يجس النبض فى القاهرة ويتودد إلى عبد الناصر . مما دل على تحول عن السياسة السوفيتية السابقة التى كانت تسمح للصحافة السوفيتية بأن تصف عبد الناصر ، بأنه بورجوازى ورجعى . وفى يوليو ١٩٥٥ تم الاتفاق سرا على صفقة سلاح . أصبحت مشهورة فيما بعد . وبمقتضاها تكون تشيكوسلوفاكيا هى المورد الواضح

وعندما أكد عبد الناصر الصفقة فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ كنت فى نيويورك أحضر جلسة للجمعية العامة للأمم المتحدة . وعندما اتصل بى الصحفيون كانت إجابتى أن مصر هى دولة مستقلة ولا يمكن أن تقبل أى ولاية من أى شخص على هذا الأمر أو غيره .

وفى مساء هذا اليوم . كنت على موعد سابق مع هارولد ماكميلان الذى كان وزيرا للخارجية البريطانية . وكما هو متوقع كان الاجتماع وديا . بالرغم من أن ماكميلان قلما يخفى خيبة أمله .

وتناقشنا فى بعض المسائل ذات الاهتمام المشترك . أما بالنسبة لصفقة السلاح . فقد ثبت على موقفنا كما عبرت عنه من قبل لوسائل الإعلام . وبعد هذا الاجتماع مع ماكميلان علمت أن صفقة السلاح السوفيتية المصرية كانت بمثابة ضربة قاسية لدالاس والخارجية الأمريكية . بالرغم من أنه سبق تحذيرهما من قبل المخابرات ومن الشائعات السابقة . وقد وقعت هذه الأحداث وردود الفعل فى الوقت الذى بدأ فيه الكلام عن مشروع لمصر لبناء سد عال على النيل فى أسوان .

وكما سنرى فإن صفقة السلاح المصرية السوفيتية واعتراف مصر بالصين الشيوعية كانا من بين العناصر السلبية التى أثرت على مجرى الأحداث بالنسبة للمشروع المصرى .

وكان يوجين بلاك رئيس البنك الدولى قد قرأ تقريرا لخبرائه وقرر أن سد أسوان كان مشروعا مجديا . وكان على استعداد لتقديم ٢٠٠ مليون دولار من أموال البنك . بشرط أن تقدم حكومة الولايات المتحدة ٣٠٠ مليون دولار أخرى وتقدم الحكومة البريطانية ٨٠ مليون دولار . ولكن جورج همفرى وزير الخزانة الأمريكية كان ضد المشروع منذ البداية .

ولم يكن همفرى على أى حال يعتقد أن السد يمكن أن يجدى . وكان أحد أصدقائه المقربين هو هربرت هوفر الإبن الذى كان مثل أبيه رئيس الجمهورية السابق هوفر مهندسا وخبيرا فى السدود . يرى أنه لايوجد عدد كاف من المصريين فى وادى النيل ولا تنمية صناعية فى المدن المصرية يمكن أن تستفيد من مياه الرى وعدد الكيلووات الضخم من الكهرباء التى سيولدها السد .

ولكن فوستر كان مؤيدا للسد . وقد دافع ببلاغة عنه ضد اعتراضات همفرى وضد المشاعر التى كانت سائدة فى مجلس الشيوخ والنواب .

وكان قد أوضح فى حديثه مع يوجين بلاك أن المال الأمريكى لن يدفع وأن الخبرة الأمريكية لن تقدم إلا بعد أن يعد المصريون باستيفاء بعض الشروط .

فمثلا بالنسبة لتسديد القرض يجب أن تتعهد حكومة عبد الناصر بأن تنظم ميزانيتها بحيث يتم الدفع بانتظام ، وأن يتاح لخبراء البنك الدولى والخبراء الماليين الأمريكيين للتأكد من ذلك . وكان سد أسوان سيستغرق بناؤه عشر سنوات . وهذا يتيح للولايات المتحدة عشر سنوات من السيطرة الفعالة على شئون مصر المالية . وفى ظل هذه الظروف السائدة لم يكن من المحتمل أن يستطيع ناصر أن يحدث تغييرا بحيث ينفق على الأسلحة الروسية أو الأسلحة التشيكية أو الأسلحة من أى مكان ـ إلا حسبما يرى الأمريكيون .

وقيل : إن هذه كانت ضربة عبقرية من جانب فوستر . فبالرغم من أن صفقة الأسلحة التشيكية كانت قد وقعت وبدأت تسليم أولى الشحنات . إلا أن الوقت لم يكن قد فات . فكما هو معلوم كان عبد الناصر قلقا فقد دفع دفعا إلى الصفقة مع الشيوعيين بسبب تسويف الولايات المتحدة وفشل فوستر فى فهم طباعه ـ فهو عندما يعامل معاملة سيئة يفعل عكس ما هو مطلوب منه تماما .

وقد ارتكب فوستر خطأ واحدا . عندما وضع على عاتق مساعد وزير الخارجية الجديد هربرت هوفر الإبن مسئولية المفاوضات وكان ذلك أساسا لأنه افترض أنه خبير فى مشروعات مثل مشروع سد أسوان .

وكان هوفر وهمفرى قد قررا من قبل أن سد أسوان هو وسيلة بريطانية لابتزاز المال من الولايات المتحدة . وفى تصريح مشترك أصدراه فيما بعد . جاءت هذه الملاحظات :

همفرى : إن أول مرة سمعت فيها تفاصيل سد أسوان بعد أن أصيب رئيس الجمهورية بأزمة قلبية قبل أن يعود فى سبتمبر ١٩٥٥ . فقد عاد الى بيته ولكن لم يكن فى إمكان أحد منا أن يتصل به . وتهامس البعض بأن بريطانيا ستطلب مبلغا كبيرا من المال . وفطنا إلى أن الأمر قد يتطور . وحاولنا أن نبحث عن مخرج .

هوفر : لقد بدأت المسألة فى بريطانيا من الأصل .

همفرى : بدأ كل شىء بإيدن . على قدر علمى .

هوفر : كانت هناك مجموعة من رجال الصناعة والأعمال الأوربيين الذين يريدون توريد كل المعدات وكانوا يريدوننا أن ندفع ثمنها .

همفرى : رجال صناعة بريطانيون .

هوفر : وشركات إنشاء (جانبا) قد يكون فى هذا قسوة ، يجب أن نعيد صياغة هذا .

وقد أدت التحريات التى قام بها الصديقان إلى إقناعهما بأن المشروع لن يؤدى إلى تحسين أحوال الفلاح المصرى ، وأنه سيثبت أنه بالوعة لانهاية لها بالنسبة للخزانة الأمريكية ، وأنه تم توريط الولايات المتحدة فيه لأن البريطانيين يبتزون الأمريكيين .

قال همفرى : كان هناك نوع من التهديد من البريطانيين بأننا إذا لم نساعدهم فإنهم لن يساعدونا بالنسبة للقائمة من المشاكل التى بيننا وبين الروس .

وقال همفرى فيما بعد : إنه عرف المسألة فى اجتماع الوزراء فى كامب ديفيد فى ديسمبر ١٩٥٥ ، وهو أول اجتماع منذ أن أصيب إيزنهاور بالأزمة القلبية . وكان رئيس الجمهورية قد جاء من مزرعة جتسبرج . وتحدث إليه فوستر ، ثم اتجه إلى همفرى وقال له : لدى شىء أريد أن أتحدث إليك بشأنه قبل الاجتماع .

قال همفرى : كان فوستر قد تلقى برقية من إيدن . وكانت البرقية حادة اللهجة . نصفها التماس ونصفها تهديد . وهى تبلغنا بأننا إذا لم ننضم إليهم فى بناء سد أسوان . فإنهم لن يضعوا قيودا على تجارتهم وسينفجر الموقف .

ولم يكن هناك شىء آخر يمكن أن يستفز الولايات المتحدة ويجعلها تسحب عرضها للإسهام جزئيا فى تمويل مشروع السد العالى .

وقيل : إن السفير المصرى لواشنطون دكتور أحمد حسين عاد إلى القاهرة ليشرح لعبد الناصر أن معارضة مشروع سد أسوان تزيد بسرعة فى الكونجرس ،

وأنه إذا أراد للمشروع أن يمر فالوقت هو الآن وإلا تعذر ذلك . ولدهشته فإن عبد الناصر الذى كان يسوف ببراعة ، إذا به يصدر إليه تعليماته بالعودة إلى الولايات المتحدة وأعطاه تفويضا كاملا لقبول كل شروط فوستر دالاس . ولقد حدثت ذروة سحب العرض فى اجتماع فى ١٩ يوليو ١٩٥٦ بين دالاس والسفير المصرى دكتور أحمد حسين ، والتى تتلخص فيما يلى : بدأ دالاس يشرح كثيرا من الصعوبات التى يواجهها لاتخاذ قرار حاسم بشأن القرض . وبينما كان دالاس مستطردا فى هذا شعر السفير بقرب تجمع العاصفة إلى أن اختار اللحظة التى يقول فيها لدالاس من غير تفكير : « أرجوك لا تقل إنك ستسحب العرض لأن لدينا هنا فى جيبى عرضا روسيا لتمويل السد » وعندئذ رد دالاس على الفور بجفاء : « حسنا بما أنكم لديكم المال فإنكم لاتحتاجون إلى شىء منه منا . لقد سحبت عرضى » . وقد تأكد أن نبرة صوت دالاس دلت عندئذ على أن ذكر روسيا فى حد ذاته استفزه ولاحظ بعض المعلقين على هذا أنه لم يكن هناك شىء يستثير حساسية دالاس مثل روسيا .

وفى القاهرة أرسل عبد الناصر أحد مساعديه ليبلغ السفير الأمريكى أنه يريد أن يراه .

وعندما انفرد الرئيس المصرى بالسفير الأمريكى قال عبد الناصر : « أنت تعلم أن لدى الكثير من المعاملات مع الروس . ولكنى لا أحب الروس . ولدى الكثير من المعاملات مع شعبكم . وتصرف مستر دالاس هذا تصرف ضدى من جانب دولة عظمى ، تتصرف ضدى دون أن تأخذ فى اعتبارها العواقب الضرورية لتصرفها » . وأغمد أصبعه فى صدر بايرود وهو يقول : « والعواقب الضرورية هى أنكم تريدون قتلى . وكل ما أستطيع أن أفعله هو حماية نفسى . إننى أقول لك ذلك ، أنا لن أقتل » .

الفصل الرابع

اشتعال الموقف

فى صباح ٢٦ يوليو ١٩٥٦ قابلنى فى وزارة الخارجية بالقاهرة على صبرى ، الذى كان مديرا لمكتب رئيس الجمهورية وقتئذ ، والذى أصبح فيما بعد وزيرا للدولة ورئيسا للوزراء .

وانصب حديثنا أساساً على أن « الريس » غادر القاهرة إلى الإسكندرية وأنه ينوى أن يعلن بعد الظهر تأميم شركة قناة السويس .

وكنت حينذاك وزيرا للخارجية ، وهو منصب توليته منذ ديسمبر ١٩٥٢ ، واستمررت فيه حتى ربيع ١٩٦٤ عندما عينت مساعدا لرئيس الجمهورية للشئون الخارجية .

وكان اختيار موعد إعلان تأميم شركة قناة السويس يقصد به التعمية ، وأن يكون شيئا طبيعيا على ضوء الأفكار والأحداث السابقة .

وكان ٢٦ يوليو هو ذكرى اليوم الذى رحل فيه عن مصر الملك فاروق عام ١٩٥٢ بعد أن تنازل عن العرش لابنه أحمد ، وغادر فيه الإسكندرية ، نهائيا كما فعل جده الخديوى إسماعيل منذ سنوات فى نهاية فترة حكمه السيء الذى تميز بالبهرجة .

وقد أصبحت العادة فى ذلك اليوم من كل عام منذ ١٩٥٣ أن يوجه رئيس الجمهورية خطابا إلى الأمة من شرفة مبنى البورصة فى ميدان المنشية بالإسكندرية ولهذا فإن ترتيب إلقاء خطاب الرئيس فى الإسكندرية فى ذلك اليوم لم يثر سوى التوقعات المعتادة .

وحتى وقت متأخر من بعد ظهر اليوم . تم الاحتفاظ بسر تأميم شركة القناة بأقصى درجة من الكتمان .

وتم الاتفاق على أنه عندما يصل الرئيس فى خطابه إلى اسم دى ليسبس يقوم المهندس محمود يونس ، الذى رأس بعد ذلك هيئة قناة السويس المصرية ، بقيادة جماعته المتواجدة فى الإسماعيلية للاستيلاء على مقر الشركة وإدارة القناة .

وبهذا يصبح ليوم ٢٦ يوليو نوعان من الذكرى : ذكرى طرد فاروق عام ١٩٥٢ ، وذكرى طرد شركة قناة السويس فى ١٩٥٦ . وكل حدث منها يدل على نهاية عهد وبداية عهد جديد .

وكتب جاك جورج بيكو ، الذى كان وقتئذ مديرا لشركة القناة عن بعض معالم الطريق للتأميم وهى ذات مغزى ومتعلقة بالموضوع . فقد أخبرنا أن الأزمة فى شتاء ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ، بعد إلغاء مصر فى أكتوبر ١٩٥١ معاهدتى ١٨٩٥ و ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، قد أوحى له بأن ينتهز فرصة القلق الذى ساور الدوائر الأنجلوسكسونية ليعرض عليها مشكلة مستقبل القناة .

وفى مذكرات مؤرخة فى ١٥ و ٢٣ نوفمبر و ١٤ ديسمبر ١٩٥١ و ٣١ يناير وفبراير ١٩٥٢ . أشار إلى الصعوبات التى ستنشأ مع نهاية الامتياز . أو ربما قبل ذلك . وأوصى أن يتم تسويتها عن طريق مفاوضات دولية . بالاتفاق مع مصر إن أمكن . ودون انتظار حتى يؤدى التطور المحتوم للقومية المصرية إلى قرارات من جانب واحد تجعل من المستحيل الدخول فى أية مفاوضات .

وقد سلمت مذكرة ١٥ نوفمبر إلى الممثل الدبلوماسى لفرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة وإيطاليا وهولندا والنرويج ـ وهى الدول الست التى أوصى بضرورة أن تتفق معا على عقد المؤتمر بصفتها الدول الرئيسية المنتفعة بالقناة . وكان الهدف من مذكرة ٢٣ نوفمبر هو بوجه خاص تنوير الحكومة الأمريكية . أما مذكرة ١٤ ديسمبر فقد سلمت إلى الحكومتين الفرنسية والبريطانية فى عشية المحادثات الهامة التى تمت فى باريس بين ونستون تشرشل

وأنتونى إيدن من جهد ورينيه يليفن وموريس شومان من جهة أخرى . وكانت مذكرة ٣١ يناير مذكرة فنية أكثر ، فقد كانت موجهه إلى فرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا ، ومذكرة فبراير أرسلت إلى القاهرة وكانت موجهه إلى كيرميت روزفلت المبعوث فوق العادة لرئيس الجمهورية الأمريكى ، وكانت مقتصرة على التوصية باتخاذ إجراء يعيد سريان معاهدة ١٨٨٨ وكان رد الحكومة الفرنسية على هذه المذكرات العديدة هو الرد المعهود ، أما السفير البريطانى سير رالف ستيفنسون والسفير الأمريكى كافرى ، فقد أعلنا معارضتهما لأى مفاوضات دولية لأنها فى رأيهما قد تؤدى إلى خطر تدخل روسيا غير المرغوب فيه فى شئون مصر . وقد أظهرت الأحداث بعد سنوات قليلة أن التدخل الروسى ماكان يمكن منعه ، وأنه ربماكان من الأفضل محاولة إبقائه تحت السيطرة حول مائدة المفاوضات التى لا انفعال فيها بدلا من معاناة عواقب السياسة المصرية القائمة على التقارب من جانب واحد مع موسكو .

وقد أدت المواقف السلبية للحكومت البريطانية ـ تماما مثل المواقف الفرنسية ـ إلى إقناع رؤساء الشركة تدريجيا بأنه عندما تنشب الأزمة ستفرض حكومة الولايات المتحدة فى النهاية ـ للأسف الشديد ـ حلول المشاكل التى نشأت عن القناة . وفضلا عن ذلك ، فإن السياسة الدبلوماسية الأمريكية بعد تولى عبد الناصر السلطة . وهى سياسة مختلفة تماما عن السياسة التقليدية لبريطانيا العظمى ، وهى سياسة تذهب بعيدا إلى حد تشجيع سعى عبد الناصر إلى الإستقلال الإقليمى ـ قد أيدت هذا الانطباع .

ولهذا فإن الشركة ـ بالرغم من أنه كان عليها أن تزود بالمعلومات الحكومة الأمريكية التى كانت حتى ذلك الوقت جاهلة بمشكلات القناة . حتى تقنعها بضرورة عدم الانتظار للمد الطبيعى أو المتوقع للامتياز .

وكان بيكو يتوقع إلى حد ما تأميم شركة قناة السويس بعد الانسحاب البريطانى من مصر . وكتب بأن هناك حقيقتين يجدر الإشارة إليهما بشأن العقود

التى أبرمها رئيس الشركة فى هذه الفترة . الأولى كانت أشبه بالنوادر ، فقد نظم الجنرال هال ، قائد الجيش البريطانى على شاطئ القناة احتفالا صغيرا ليقدم لشارل رو تمثالا فضيا صغيرا لجندى بريطانى يمثل دفاع الجيش البريطانى عن القناة وكان رو قد عين رئيسا لشركة قناة السويس عام ١٩٤٥ ، وهو منصب استمر يشغله حتى ديسمبر ١٩٥٧ عندما استقال وخلفه بيكو ، وكان هذا التمثال الصغير قد بقى فى مكتب القناة بباريس . ولكنه كتب : إن السخرية فى تقديمه بوقار فى فبراير ١٩٥٦ قد صدمتنا جميعا وأشعرتنا بالمرارة عندما فكرنا فى الصعوبات التى تنتظرها الشركة لمجرد أن الجيش البريطانى سيرحل فى الأسابيع القادمة ، وهذه الصعوبات مثل التأميم وإعاقة المرور فى القناة . وانتهاء عهد كان الوجود البريطانى يجعله آمنا .

وأشار بيكو إلى اجتماع مع وزير الخارجية المصرى فى ربيع ١٩٥٦ قائلا : « فى زيارة وداع قمت بها بصفتى مديرا عاما للشركة فى ٢٢ فبراير لوزير الخارجية محمود فوزى مع رئيس الشركة ، كان من الواضح أن فوزى وهو دبلوماسى لطيف جدا ، قد تلقى تعليمات بإبقاء الشركة هادئة وهى نفس التعليمات بالضبط التى تلقاها الرائد على صبرى منذ ستة أشهر . وبعد أن تنبأ — فى سعادة بالغة — بأنه ستعقد قريبا جدا اتفاقية بين مصر والشركة ، هنأ نفسه لتسوية كل المشكلات التى تمت فى الاثنى عشر عاما الأخيرة من الامتياز . ولكنه استطرد متحدثا عن المفاوضات الجديدة التى يجب أن تنص على أن الدور الذى لعبته الشركة فى المحافظة على القناة يجب أن يستمر إلى ما بعد ١٩٦٨ حتى يمكن لمصر أن تستمر فى الاستفادة من تجربة الشركة .

وقد انتابتنى ورئيس الشركة الدهشة من هذه اللهجة التى كان من الواضح أن المقصود بها هى إزالة عدم ثقتنا ، وذلك لأننى ورئيس الشركة كنا ندرك روح العداء للشركة المنتشرة فى الدوائر الحكومية . ومن المؤكد أن وزير الخارجية هذا — الذى شعر بشىء من الاحراج تجنب الاتصال بى بعد ذلك لعدة أشهر .

إلى أن تقابلنا مصادفة فى أروقة مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك . ولاشك أن مرونته ومقدرته الواضحة فى طمأنة محدثيه إنما يرجعان إلى طول مدة خدمته مع ناصر ثم السادات من بعده كوزير للخارجية ، وكرئيس للوزراء وكنائب لرئيس الجمهورية » .

ولن أستفيض فى القول بأننى لم أشعر بالحرج من مسيو بيكو بشأن ما حدث فى الماضى ، كما أننى لم أر أى داع لأن أناقش معه فى تلك المرحلة احتمالات المستقبل . وماكنت أتوقع أن مصر ستكشف قبل الأوان عن قرارها بتأميم شركة القناة لأن ذلك كان أمرا غير حكيم وفى غاية الخطورة كما أنه كان يمكن أن ينبه المصالح الاستعمارية إلى عمل قد يؤدى إلى إعاقة قيام مصر بالتأميم وإلى الإطاحة بحكومتها .

وتجدر الإشارة للتسجيل ـ بالتوازى مع هذا ـ إلى أن شركة قناة السويس امتنعت دائما عن تقديم أية مقترحات ملموسة وعادلة يمكن أن تقنع حكومة مصر بمد امتياز شركة قناة السويس التى كانت فى حوزتها القناة بالفعل ، وهذا الامتياز كان سينتهى فى ١٩٦٨ . وقد كانت مصر مدركة لهذا ـ وكما سبق أن ذكرنا ـ كانت مصر حريصة من جانبها على ألا تنبه هذه الدول أو تكشف عن نيتها لها حتى آخر لحظة وإلى أن تكون مستعدة وتكون اللحظة المناسبة قد أتت وهذا أمر مفهوم . وقد جاءت هذه اللحظة بعد ظهر ٢٦ يوليو ١٩٥٦ .

وما تقدم يفسر ، من بين أشياء أخرى ، عدم فهم بعض الناس ومن بينهم بعض زملائى المصريين اجتماعاتى مع ممثلى شركة القناة من أمثال شارل رو وجاك جورج بيكو اللذين زارانى إما فى مكتبى فى وزارة الخارجية أو فى بيتى بريف القاهرة بالقرب من أهرامات الجيزة . وهناك البعض الذين قالوا إنهم استمدوا بعض الآمال الكاذبة من مباحثاتى مع هؤلاء الرجال ومع آخرين عندما اتخذنا الاحتياطات عن عمد ، ولم نفض بأى شىء أو نستبعد فكرة احتمال مد الامتياز . ونحن نتذكر فى هذا الصدد أن فكرة مد امتياز شركة قناة السويس كان

عبر السنين موضوع مناقشات ساخنة داخل الهيئات التمثيلية المصرية وخارجها . ويدلنا استعراض بعض الأحداث إلى أن النوايا الحقيقية لبعض الدول الغربية ، وخاصة المملكة المتحدة وفرنسا لم تكن قائمة على التخلى عن إدارة القناة عند انتهاء الامتياز عام ١٩٦٨ . وقد أصبح هذا واضحا عندما عقدت المملكة المتحدة عام ١٩٠٩ ـ بعد أن شعرت بأن موقفها فى مصر مؤمن ـ اتفاقا مع شركة قناة السويس على أن تقدم طلبا للحكومة المصرية لمد الامتياز لمدة أربعين عاما بحيث ينتهى عام ٢٠٠٨ بدلا من ١٩٦٨ . وقد قاد محمد فريد بك زعيم مصر الوطنى فى ذلك الوقت حملة شعواء ضد تحقيق هذا الهدف . وانتهى الأمر بأن قام مصرى هو إبراهيم الوردانى باغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى باشا ، الذى بدأ للكثيرين أنه مصمم على عقد الصفقة .

ومع هذا ، فإنه حتى أواخر النصف الأول من عام ١٩٥٦ وبعد ذلك بقليل ، تعلقت الدول الثمانى عشرة بفكرة تدويل القناة وكانت تحتفظ بها بشكل دائم فى موقفها من هيئة قناة السويس المصرية .

كتب بيكو إنه فى ٢٦ يوليو راح فى النوم ليلا عندما أيقظه رنين تليفون من أحد موظفى الشركة فى لندن . وفى بادئ الأمر ، فاجأه الخبر الذى سمعه لدرجة أنه تساءل هل فى الأمر سوء تفاهم أو خدعة . وسرعان مازالت شكوكه عندما تلقى مكالمة من السفير الفرنسى فى لندن جان شوفيل يؤكد أنباء التأميم التى تلقاها لتوه رسميا فقد تم استدعاء السفير فى ١٠ دوانج ستريت ليناقش الموقف مع رئيس الوزراء وكان أول انطباع هو أن عبد الناصر قد اتخذ قراره بتأميم القناة من وحى الساعة . ويبدو أن بيكو قد أعاد النظر فى الأمر فيما بعد عندما تذكر بعض التصرفات ذات المغزى وكتابات بعض رجال عبد الناصر التى كانت تحبذ التأميم . فمثلا فى نهاية ١٩٥٥ أوضح برهان سعيد الذى عين مدير إدارة بوزارة التجارة لشئون قناة السويس ، أن الحكومة المصرية كانت تستعد للاستيلاء على القناة عام ١٩٦٨ وكذلك يشير بيكو إلى اجتماع دكتور بهجت بدوى الذى تم

متأخرا فى النصف الأول من يوليو ١٩٥٦ ، فيقول فى كتاباته إن السياسة المصرية أصبحت تبدو واضحة بعد حديث بين رئيس الشركة ومديرنا بهجت بدوى . وقد أكد الأخير بالتفصيل البيان الذى أصدره وزير الخارجية : بعد انتهاء الامتياز ، فإنه يجب استبعاد فكرة مده ، وكذلك فكرة إدارة الدولة المصرية للقناة ولكن الإدارة الجديدة لابد أن تتأكد من تعاون العاملين بالقناة أو مساعدة الشركة نفسها .

فى طريق العمل الدبلوماسى والسياسى الذى سلكته ، أصبحت المشكلات المتعلقة بقناة السويس من المعالم البارزة . ففى ١٥١ عندما كنت رئيسا لوفد مصر الدائم فى الأمم المتحدة ، عرضت إسرائيل على مجلس الأمن مسألة رفض مصر السماح لإسرائيل بحرية الملاحة فى القناة . وكان موقف مصر مبنيا على أنها فى حالة حرب مع إسرائيل ، وهو موقف تم احترامه بوجه عام منذ سنوات . حتى من المملكة المتحدة التى كانت قواتها ماتزال تحتل منطقة قناة السويس . وكان من المتفق عليه أن مصر تقف على أرض صلبة بالنسبة لهذه المسألة .

وخلال الجزء الأكبر من المناقشة ، تم عرض هذا بشكل كاف على المجلس . ولم يستطع مؤيدو إسرائيل أن يحصلوا على الأصوات السبعة الضرورية وقتئذ لتمرير قرار لصالحهم .

ثم تصاعدت الضغوط وخاصة من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بشكل فعال . وكانت إحدى النتائج الخطيرة لذلك أن تركيا ـ وكانت وقتئذ عضو فى المجلس ويمثلها فيه السفير سليم ساربر ـ كانت قد قاومت هذه الضغوط بشكل ثابت . وأصبح معروفا لدينا أنه سيعطى صوت بلاده لمشروع قرار فى صالح إسرائيل .

وقد أدى هذا بيوغوسلافيا . التى كانت أيضا عضوا فى المجلس ، ويمثلها السفير إليس بابلر . والذى كان يقاوم أيضا الضغوط الغربية ، إلى أن لان ، ولكنه حاول أن يحسن أو يخفف مشروع القرار الغربى كثمن للتصويت فى

صالحه . وكان من الواضح أنه قرار سياسى أوحته المنفعة بغض النظر عن قانونيته أو التقدير الموضوعى .

وفى أول سبتمبر اجتمع المجلس لبضع دقائق فقط ، وكانت كافية للتصويت بلا مناقشة على القرار . الذى حصل على ثمانية أصوات ، مع امتناع ثلاثة منها الصين الوطنية بالرغم من موقفها الضعيف من الولايات المتحدة وضغوطها . والاتحاد السوفيتى الذى ـ بالرغم من كل جهودنا ـ لم يذهب إلى حد التصويت ضد مشروع القرار بحيث يستخدم حق الاعتراض (الفيتو) عليه . وكان الاتحاد السوفيتى حتى ذلك الوقت ما زالت تساوره الشكوك بالنسبة للحكومة وسياسات مصر الملكية الرأسمالية فى تلك الأيام .

وللمرة الثانية فى ربيع ١٩٥٤ برزت على نحو غير متوقع مشكلة حرية مرور إسرائيل فى القناة . وكنت حينئذ وزيرا للخارجية وكان وفدنا فى مجلس الأمن يرأسه دكتور محمود عزمى وكان على قدر كبير من الكفاءة . وقد عمل صحفيا لامعا لعدة سنوات . ثم اختير خلفا لمسز فرانكلين د . روزفلت : رئيسا للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة ، وحول مسار اللجنة إلى وضع الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، وهو إنجاز اعترفت به الأمم المتحدة بنبل بطرق شتى . منها إصدار طابع بريد تذكارى يحمل صورته .

وإذا عدنا مرة أخرى إلى مناقشة مجلس الأمن عام ١٩٥٤ بشأن قناة السويس ، فإننا نكتفى ـ بما يتمشى مع الغرض من إصدار هذا الكتاب بذكر أن إسرائيل قد أعادت عرض الموضوع على المجلس ، وكررت نفس الشكاوى كما حدث فى عام ١٩٥١ ، وكما هو متوقع أضافت الإشارة إلى عدم التزام مصر بقرار المجلس الصادر فى أول سبتمبر ١٩٥١ . وقد حصل مشروع القرار الغربى الجديد على ثمانية أصوات ، ولكن العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى كانت قد تحسنت بشكل ملحوظ ، من خلال حكومتى البلدين وفى نيويورك ، وعندما تم أخذ الأصوات ، استخدم الاتحاد السوفيتى حق الاعتراض ضده ، وبهذا

أدى الفيتو إلى عدم إصداره . إننى أسجل هذا على سبيل السرد ، ولكننى من بين الذين لايحبذون لأسباب واضحة ، الالتجاء بشكل متكرر إلى استخدام الفيتو الحمائى ، بالرغم من أنه قد يكون هناك مبرر لاستخدامه فى الحالات الصارخة التى لا تتمشى مع العدالة .

وفى ظل هذه الظروف وهذا الجو الذى أحاط بشركة قناة السويس وعملياتها قدم ج . ج . بيكو إلينا تقديره العملى التالى ، مشيرا إلى وجود أو عدم وجود الاحترام الدقيق لبنود معاهدة السقطنطينية . ويقول بيكو جزئيا : لابد أن نتذكر أنه طبقا لمعاهدة القسطنطينية ، التى وقعتها تسع دول عام ١٨٨٨ ، لابد أن تكون هناك حرية مرور فى قناة السويس ، ولكنه يضيف أنه لابد أن نتذكر أيضا أن الإجراء الذى وضع لضمان احترام المعاهدة ــ وهو اجتماع ممثلى الدول الموقعة على المعاهدة فى مصر ــ لم يطبق أبدا . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هذا الإجراء ماكان يمكن تطبيقه فى حالة صراع دولى ، ولا فى حالة انتهاك دولة محاربة وهى فى الوقت نفسه موقعة على المعاهدة . ولكنه يسلم بأن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لمصر منذ أن نالت استقلالها وعهد إليها نفسها بأن تكون وارثة للأمبراطورية التركية ، مع إجراء تنفيذى لم يكن يبدو فى الحقيقة ضروريا عام ١٨٨٨ عندما احتل الجيش البريطانى مصر وبدا أن شركة القناة نفسها هى ضمان قوى كاف لحرية الملاحة .

وهو يسلم بأنه فضلا عن ذلك بينما تنص معاهدة القسطنطينية على حرية الملاحة هذه ، إلا أنها تبقى غامضة بالنسبة للمساواة فى المعاملة لجميع الدول المنتفعة بالقناة . وتشير المادة ١٢ إلى هذا ، بالرغم من أنها فى الوقت نفسه تحتفظ لتركيا بحقوقها كدولة إقليمية .

وطبقا لبيكو وآخرين ، فقد حاولت الشركة بنفسها أن تلعب دور المدافع عن الطابع الدولى للممر المائى ولكنها كانت تعلم أن هذا الدور يصعب تحقيقه أكثر وأكثر عندما تواجه مصر المستقلة الوطنية . وقد شعرت بعد الحرب العالمية

الثانية بذلك ولكن مع شيء من الغموض ولكنها شعرت به بوضوح منذ ١٩٤٨ وما بعدها ، أى بأنها من المؤكد أنها لن تكون قادرة على ضمان اى شيء آخر بعد نهاية الامتياز فى ١٩٦٨ ، أو على الأرجح فى آخر عام للامتياز وكانت تعتقد أن الدول التى لها مصلحة مباشرة فى الشركة ، أو الدول التى تستخدم سفنها القناة مرارا ، يجب أن تدرك هذه الحقيقة قبل أن يفوت الوقت ، ويجب أن تدبر الأمر لتصنع التشغيل المنظم لطريق المواصلات العظيم بين أوربا وآسيا على أساس أكثر واقعية .

وحتى يمكن إيقاظ هذا الضمير الدولى بالنسبة لمشكلات لم تسبب كثيرا من القلق حتى الآن لمختلف الدول ، فإن شركة القناة يمكن أن تستخدم ثلاث طرق : تنبيه حكومات الدول الغربية الكبرى ، ودوائر الملاحة التى تستخدم القناة . كما تستخدم وسيلة جديدة هى البنك الدولى . وهو أداة الأمم المتحدة للتنمية الاقتصادية .

واستمرت الضغوط المتصاعدة لمصر على شركة قناة السويس ومنها المطالبة بمزيد من المناصب المخصصة للرعايا المصريين وإعفاء السفن المصرية من الرسوم وخضوع الشركة لجميع القوانين المصرية . ورفضت الشركة على قدر ما تستطيع . ولكن الضغوط استمرت فى التصاعد وكانت تنجح فى الغالب .

وقد تم التسليم أيضا بوجه عام بأن مدفوعات الشركة لمصر قليلة جدا . وحتى عندما ارتفعت قليلا عام ١٩٣٧ فإنها لم تصل إلى ٣٠٠٠٠٠ جنيه سنويا . وعندما حدث ما سمى بالتحسن فيما بعد ، فإنها أصبحت ٧ فى المائة من أرباح الشركة .

والحقيقة أن اتصالات مباشرة بين رؤساء الشركة وممثلى الحكومة المصرية تمت عشية التأميم . والحقيقة أن الهجوم الخاطف فى ٢٦ يوليو جاء فى وقته لمنع اجتماع على مستوى ودى كان مخططا له فى نهاية الشهر . وكان من المعلوم عن طريق مندوب الحكومة أن وزير التجارة أبو نصير سيزور باريس فى ٣٠ و ٣١

يوليو . وكانت زيارته المقترحة لباريس واحتمال إجراء اتصالات جديدة يبدو أنها تشير إلى أن خططه لم تكن تتوقع التأميم المزمع إجراؤه فى التاريخ المحدد عندما صدرت الأوامر بها .

ويكتب جورج بيكو : أما عنا فلم نكن نتوقع ضربة عبد الناصر . بل على العكس كنت أضع خططا للسنوات العشر القادمة وتهدف إلى تهيئة القناة لزيادة عدد السفن وأحجامها ومنع تحويل ناقلات البترول إلى رأس الرجاء الصالح بكل وسيلة ممكنة .

وهكذا كنا فى ذلك اليوم من يوليو ١٩٥٦ نواجه مرة أخرى مسألة قناة السويس . وفى هذه المرة كانت قد وصلت إلى أقصى مرحلة من التفجير ، عند التأميم . ومن الصواب أن ننظر إلى حرب قناة السويس عام ١٩٥٦ كحدث أتى بمعركة لاتنتهى من الذكاء والتنظيم والجرأة .

وفى البداية كانت الشواهد تبدو لمعظم المراقبين وكأنها ضد مصر بشكل ساحق . وهو شعور يبدو أن المصادر المختلفة ومواقف الأطراف المضادة تؤيده . فلم يسبق لمصر أن أدارت قناة مثل هذه . ومن الواضح أنه ينقصها الخبرة . وحتى تزداد الأمور صعوبة أمامها . ويصبح من غير الممكن التحكيم فيها . كانت تلوح فى الجو . ثم بدأت تقع بالفعل ماسمى بمعركة المرشدين ، وبدأت السماء تكفهر بشكل منذر بالنسبة لمصر بسبب المعركة الاقتصادية التى تصدرتها الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وفرنسا .

وكان من الطبيعى أن تختلف الآراء والاتجاهات الخاصة بالتأميم ومستقبل قناة السويس .

ففى عام ١٩٣٨ كتب أندريه سيجفريد فى كتابه : « السويس وبنما » : إن مصر قد تؤمن بفكرة أنها مستقلة كدولة . ولكنها لايمكن أن تكون مستقلة كشريان لطرق العالم . وكان هدف إسماعيل وهو أن القناة تنتمى إلى مصر وليس مصر للقناة ، قد أصبح مستحيلا . فمادام الطريق إلى الهند يمر بالقناة ، أى تعتبر

الشريان الحيوى الذى يربط الغرب بالشرق . فإن مصر ستبقى تابعة للقناة .

وفى عام ١٩٥٠ أبلغ فرانسوا شارل رو رئيس شركة قناة السويس الدكتور مصطفى الحفناوى : بأنه بعد انتهاء امتياز القناة ، يجب أن تدير القناة لجنة دولية تشبه لجنة الدانوب تحت إشراف الأمم المتحدة .

وبعد التأميم وفى خطاب لجمال عبد الناصر فى ١٢ أغسطس ١٩٥٦ قال إن يوجين بلاك مدير البنك الدولى . قال له : إننا على استعداد لمنحك قرضا مقداره بليون دولار لتوسيع القناة . بشرط أن نبحث معا مد امتياز القناة . ومن الواضح أن هذا العرض لم يلق قبولا .

وفى اجتماع مجلس الأمن القومى الأمريكى فى ٩ أغسطس ١٩٥٦ .

قال دالاس إن البريطانيين والفرنسيين يريدون التأييد الأدبى للولايات المتحدة فى أى إجراء يتخذونه . كما يريدون الدعم الاقتصادى على شكل بترول وائتمانات بالدولار لكل الواردات وما يفيد إلى أن الولايات المتحدة ستنضم إلى حلفائها إذا حاولت روسيا أن تتدخل . وقال إيزنهاور للمجتمعين : إذا أثبت ناصر : ١ ــ أن مصر يمكن أن تدير القناة و ٢ ــ أبدت نيتها للالتزام بمعاهدة ١٨٨٨ . فإنه يصبح أشبه بالمستحيل على الولايات المتحدة أن تجد مبررا حقيقيا ــ سواء أكان قانونيا أو أدبيا . لاستخدام القوة .

وكتب دالاس : « وسألته هل قرأ لويجى بيرانديللو : ست شخصيات تبحث عن مؤلف . التى ذكرها فى كتابه كمصدر لفكرته عن دور يبحث عن مؤلف . فاعترف مبتسما : العنوان فقط » .

وقد أممت مصر شركة القناة وليس القناة نفسها التى كانت داخل الاختصاص المصرى وحتى الحكومة البريطانية اتخذت موقفا على هذا الأساس منذ سنوات أمام المحاكم المختلطة فى مصر . وكتب لورد تريفيليان من بين آخرين فى التايمز اللندنية فى ٦ يوليو ١٩٧٨ إن تأكيد سلوين لويد بأن ناصر قد تصرف بطريقة مخالفة فى جوهرها لمعاهدة ١٨٨٨ أمر لا يمكن تعزيزه .

والحق أن مصر ـ منذ البداية ، كانت حريصة على أن تؤكد ـ كما فى مرسوم ٥ يناير ١٩٥٦ أن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر ولا يمكن فصله عنها ـ وأنها ممر مائى حفر داخل الأراضى المصرية ليصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر . وتنص اتفاقية ٢٢ فبراير ١٨٦٦ أن قناة السويس خاضعة للسيادة المصرية ولقوانين البلاد وعاداتها . وفيما بعد ـ فإن اتفاقية ٢٩ أكتوبر ١٨٨٨ تنص على أنه فى حالة وقوع حدث يهدد سلامة القناة أو حرية المرور فيها ، فإنه يتم اتخاذ الإجراءات الضرورية لحماية القناة .

إن قصة مرشدى قناة السويس قصة درامية ونابضة بالحياة . فحتى عام ١٩٥٦ درجت شركة القناة عن عمد على إحاطة عمل المرشدين بهالة من الغموض وكانت تحاول أن توحى لنا بوجه خاص أنه عمل متخصص فنيا بحيث لا يمكن استبداله وأنه يدعو للرهبة . وكانت الشركة تعامل المرشدين بالنسبة للمرتبات والمكافآت كما لو كانوا جنسا من نوع مختلف .

وقد أصدرت الدول الغربية ـ فيما عدا اليونان أوامرها إلى مرشديها وغيرهم من الفنيين الذين يعملون فى القناة للانسحاب فورا ـ وعرضت عليهم تعويضا كافيا .

وفى صباح يوم الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٥٦ ـ توجه بول ريموند مدير إدارة الملاحة بشركة القناة إلى المهندس محمود يونس وأبلغه أن جميع المرشدين الأجانب وغيرهم من الفنيين والعمال ـ ماعدا اليونانيين منهم ـ قد أعربوا عن رغبتهم فى التقاعد ابتداء من مساء ١٥/١٤ سبتمبر ـ لعدم رضائهم عن المعاملة التى يتلقونها من الإدارة العربية . وفى هدوء قال يونس إنه يوافق على استقالاتهم وكذلك استقالة ريموند وودعه إلى الباب مجاملا .

وكان أمل الدول الغربية بل يقينها أن الإدارة الجديدة للقناة سيثبت فشلها وأن ما ينتج عن ذلك من شلل فى الملاحة سيعتبر انتهاكا خطيرا لمعاهدة القسطنطينية لعام ١٨٨٨ مما يبرر أية إجراءات تتخذ ضد مصر فى هذا الشأن .

وصرح مدير عام شركة قناة السويس فى ذلك الوقت جاك جورج بيكو فى مؤتمر صحفى فى باريس فى ١٤ أغسطس ١٩٥٦ بقوله : إن كل العاملين غير المصريين فى القناة تقريبا قد وقعو بالفعل إقرارات سفاراتهم بالولاء للشركة وطالبوا بالعودة إلى بلادهم . ولهذا زعم أنه يستطيع أن ينهى فى اليوم التالى أى حركة فى القناة إذا أراد أن يعطى أمرا بالعودة إلى الوطن .

وكان هناك نقص فى المرشدين حتى قبل التأميم . فقد كانت الشركة تحتاج ٢٥٠ ولم يكن لديها سوى ٢٠٥ على كشوف مرتباتها . وقد نتج النقص عن الصراع بين مصر والشركة حول زيادة نسبة المصريين على جميع مستويات التوظيف وقاومت مصر تفضيل الشركة للأجانب بتعطيل حصولهم على تأشيرات الدخول أو رفض منحها . وتم التوصل إلى تسوية فى الربيع ولكن الشركة تباطأت فى تعيين وتدريب المرشدين الإضافيين . وكان هناك ٤٣ مرشدا فى أجازة منهم خمسة من المصريين الذين قطعو أجازاتهم وعادوا إلى العمل فورا . وقد اتهم محمود يونس رئيس هيئة قناة السويس المصرية جورج بيكو بأنه كتب للمرشدين الذين فى أجازة ومن بينهم المرشدين المصريين ، عارضا عليهم منحهم مرتب من سنة إلى ثلاث سنوات مقدما إذا رفضوا العودة إلى عملهم . وقدم يونس أحد هذه الخطابات كدليل . وقال جورج بيكو إنها مجرد إخطار لهم بحقوقهم فى التقاعد . وحتى يتجنب الاستفزاز استمر يونس فى السماح بالأجازات المقررة للخارج بالرغم من أن كثيرا من غير المصريين امتنعوا عن العودة .

ورفضت معظم الصحف الفرنسية والبريطانية نشر الإعلانات المصرية لطلب مرشدين ، وكانت المانشستر جارديان هى الصحيفة البريطانية الوحيدة التى قبلت نشر الإعلان .

وما حدث فى الواقع بعد ذلك معروف . ويمكن تلخيصة كما يلى : بعد انسحاب المرشدين الأجانب بقى ٥٢ منهم فقط من بين ٢٠٧ ـ ومع هؤلاء

المرشدين انسحب ٣٢٦ من العاملين من بين ٨٠٥ . وهذه الانسحابات كانت كافية لشل الملاحة وغيرها من أعمال القناة ، لو لم تتخذ مصر منذ البداية الاحتياطات اللازمة . فقد تم إحلال المرشدين للقناة فى الحال إما عن طريق تعيين غيرهم من الخارج أو من البحرية المصرية . وكانت البداية بحشد متنافر ولكنه متحمس من ٥٣ مصرى و٦ يونانى و ٣ ألمان وهولنديين وإيطالى واحد وأسبانى واحد وسويدى واحد . تم أعقبت ذلك قصة النجاح المستمر والتى كانت سندنا الذى لايمكن الاستغناء عنه فى مناقشاتنا فى كل مكان . والحق أنه بدون نجاح مصر فى إدارة القناة بالمرشدين المصريين وغيرهم الذين حلوا محل الذين عينتهم الشركة ، لكانت مسألة القناة برمتها قد عولجت دوليا بطريقة مختلفة تماما ، وخاصة فى الوقت الحرج بين التأميم والنجاح الثابت لمصر فى إدارة القناة . وكتب إيزنهاور فى مذكراته : وكما اتضح فيما بعد ، فإن المسئولين والعمال المصريين لم يكونوا على كفاءة فى إدارة القناة فحسب ، بل إنهم سرعان ما أثبتوا أنهم يمكنهم أن يفعلو ذلك فى ظل ظروف زيادة المرور وبمقدرة متزايدة .

وفى ٢٧ أغسطس أعلنت مصر أن ١٣١١ سفينة عبرت القناة فى الشهر الأول من عمليات التأميم ، وبهذا ارتفع المعدل اليومى إلى ٤٤٫٢ سفينة بعد أن كان ٤٢و٣ سفينة عن نفس الفترة عام ١٩٥٥ .

وبدأ الاعتقاد بأن انسحاب المرشدين سيوقف حركة المرور يخفت مع اقتراب موعد الغزو السرى . ويتذكر جورج بيكو أنه أبلغ بينو ولويد فى ٧ و ٨ سبتمبر على التوالى بأنه لم يعد يعتقد أن انسحاب المرشدين الأجانب سيغلق القناة . ولكن على أى حال فإن قرار إيدن وموليه بسحبهم قد جعل مراسلا يسأل إيزنهاور فى مؤتمره الصحفى فى ١١ سبتمبر هل يعتقد أن بريطانيا وفرنسا لديهما ما يبرر استخدام القوة إذا تباطأ الانسحاب أو أدى إلى وقف الملاحة .

ورد ايزنهاور : « لا أعتقد ذلك ، إننى أرى ما يلى : لقد أقمنا الأمم المتحدة لنقض على العدوان ، ولن أكون طرفا فى عدوان ما أمكن منع ذلك إنسانيا ..

إما بتجنبه أو إذا استطعت أن أكتشفه قبل وقوعه . وقد كان الشعور السائد أن إيزنهاور يعتقد أن انسحاب المرشدين لم يعد من المتوقع أن يخلق تبريرا . بل إنه لن يسمح باستخدامه على أى حال » .

وكان العالم على اتساعه ولمدة قرن ينظر إلى المصريين فى احتقار فى هذا الصدد . متجاهلا أنهم منذ ٥٠٠٠ عام كانوا يبحرون بالسفن ذهابا وإيابا فى التيارات المتغيرة فى النيل . وكان ذلك يتطلب مقدرة فنية أكبر من إرشاد سفينة تسير بالمحركات فى قناة لاتيارات فيها .

وبعد قليل من معركة المرشدين وقعت معركة هامة أخرى هى دفع الرسوم . وهل تدفع لهيئة القناة المصرية . أو لاتدفع لها . وتدفع لجهات أخرى . وكثير من زعماء العالم والحكومات والفقهاء كانوا يعتقدون أن للمسألة وجه قانونى متميز ويجب إحالته إلى محكمة العدل الدولية . وكان من بين هؤلاء جواهر لال نهرو والحكومة الأمريكية . إلى جانب حكومة مصر نفسها التى عرضت موافقتها النهائية على هذا الإجراء . ولكن الفرنسيين والبريطانيين . وكذلك شركة القناة . وكانوا معترضين على اللجوء إلى محكمة العدل الدولية .

ويمكن الإشارة هنا إلى واقعة معينة . فى صباح ٢٧ يوليو توجه أحد المحامين إلى مكتب أنتونى إيدن ومعه تقرير من الإدارة القانونية لوزارة الخارجية البريطانية . وجاء فيه أن الموقف قد تم فحصه من كل الزوايا وأنه مالم يغلق ناصر القناة فى وجه الملاحة ــ وهو مالم يقترحه ــ فإن التأميم يبقى قانونيا تماما .

واستلم إيدن التقرير وقرأه عن آخره تم مزقه إلى قطع صغيرة ورمى به فى وجه المحامى . والحقيقة أن المسألة كلها انتهت فيما بعد بأن تم الدفع لهيئة قناة السويس وحدها .

وفى الوقت نفسه عاد الجنرال ستوكول فى ٤ سبتمبر من جولته لوحدات الغزو ليجد أن الاستعدادات العسكرية تقدمت أسبوعا عما كان مقررا لها . ولكن

موعد الغزو كان مشكوكا فيه . وفى ذلك اليوم تأجل من ١٥ سبتمبر إلى ١٩ سبتمبر . وبعد يومين تأجد موعد الهجوم مرة أخرى إلى ٢٦ سبتمبر . وكتب ستوكول فيما بعد يقول : « ولكنا كنا مستعدين فى ٨ سبتمبر للقيام بالمهمة فى التاريخ المحدد وهو ١٥ سبتمبر » .

ويقول لوى هندرسون سفير الولايات المتحدة إنه كان من الواضح أن جنود المظلات البريطانيين كانوا مدربين جيدا ومجهزين تماما وعلى استعداد للتحرك عند صدور الأمر . وقد أبلغ دالاس بكل شيء وبقوة عن أنه فى التعامل مع ناصر سيتعامل مع شخص متوحش .

وكان أول تسرب لنبأ الخطة الجديدة عن طريق مرجريت هيجنز فى صحيفة نيويورك هيرالد تربيون فى ١١ سبتمبر . وقد حصلت على النبأ فى ١٠ سبتمبر . وهناك كثير من الدلائل الداخلية التى تشير إلى أنها كانت محل ثقة شخص ما فى وزارة الخارجية الأمريكية . ولهذا حصلت على معلومات عن السياسة التى ستتبع فى المستقبل وكذلك عن الحقائق عن الحاضر . لأن تنبؤاتها كانت دقيقة جدا . وكان عنوان مقالها : الولايات المتحدة تؤيد اتخاذ طريق آخر غير قناة السويس إذا تم إعاقة الملاحة . وذكرت أن أخصائى اقتصادى فى الإدارة الأمريكية أبلغها بأن التدخل المصرى فى القناة يمكن مواجهته بعمل غربى موحد يمكن أن يؤدى إلى تحول عملاء القناة عنها . وفى هذه الحالة لن تجنى مصر أى منافع لأنه لن يكون هناك تعامل معها .

الفصل الخامس

من الحوار إلى العدوان

وجدت الدول الغربية نفسها متورطة فى الموقف خاصة بعد التأميم . فالولايات المتحدة ، بعكس ما كانت تريده انجلترا وفرنسا وجدت أنها يجب أن تستطلع بدقة إحتمال التوصل إلى حل سلمى ، عن طريق إقناع مصر بالمنافسة أو بالضغط . وبعد أن فشل هذا الأسلوب ، بدأ الأمريكيون فى التفكير فى اللجوء فى النهاية إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، ولكن هذه الفكرة وضعت على الرف مؤقتا بسبب حق الاعتراض للأعضاء الدائمين .

فى عام ١٩٥٤ ، روج بيكو – من بين آخرين – لفكرة عقد مؤتمر للدول الرئيسية المنتفعة بالقناة لبحث مستقبل القناة والمحافظة على طابعها الدولى . وهذه الفكرة قاومها فى ذلك الوقت البريطانيون ، بالرغم من أنهم وافقوا على رأى دالاس وآخرين عام ١٩٥٦ بشأن جمعية المنتفعين بقناة السويس ، التى كانت فى الحقيقة نفس الفكرة .

وبالنسبة لهذا يعتقد البعض أنه فى عام ١٩٥٤ ، كان يمكن لهذه الخطة أن تحصل على تأييد أصحاب السفن الفرنسيين وكذلك الهولنديين ، الذين علموا بها من مدير الشركة ديلبار . ولكنها ما كانت لتنجح بدون تأييد البريطانيين الذين كان لهم نفوذ كبير على الغرف التجارية الدولية . ولاشك أن المقاومة البريطانية لفكرة تدويل الجماعات أو الشركات المتصلة بالقناة كانت ترجع فى أصلها إلى تقاليد راسخة ، وعلى أمل أن بريطانيا العظمى يمكن أن تحافظ على الدور المسيطر إن لم يكن المنتصر عليها والذى تلعبه فى شئون مصر والقناة .

وكانت آخر محاولة من جانب شركة قناة السويس لتعبئة شركات الملاحة البريطانية ووصفها على مستوى دولى . ترجع إلى ربيع ١٩٥٦ ، فى إبريل . بعث المجلس العام للملاحة البريطانية بوفد إلى باريس لتبادل الآراء بالنسبة للقناة . وبعد ذلك بقليل . كتبت الشركة إلى رئيس الغرفة الدولية للملاحة يستفهم هل يقوم بالاتصال بالشركات الأمريكية لوضع الأساس لمنظمة تمثل المصالح الملاحية على جانبي الأطلنطى . وكان الرد الذى تلقاه فى يونيو يعبر عن الرغبة القوية فى عدم الإقدام على شيء يعطى مصر فكرة بأن البريطانيين يؤيدون آراء الشركة .

ثم فى عام ١٩٥٦ جاءت فكرة الدعوة إلى مؤتمر للدول البحرية يعقد فى لندن . وقد بادر بالفكرة دالاس أساسا . ووافقت فرنسا وانجلترا ودول عديدة أخرى .

ومنذ البداية تم بعد ذلك حتى النهاية . كان دالاس حريصا باستمرار على فصل قناة بنما عن المباحثات الخاصة بقناة السويس . وفى ١٦ أغسطس ١٩٥٦ عمل على عدم دعوة بنما . وفى مرحلة تالية أبلغ إيدن وبينو وآخرين على غداء فى أول أغسطس بقوله : يجب أن نستخدم معاهدة ١٨٨٨ كأساس للمناقشة حتى نتجنب المضاعفات التى تنشأ بالنسبة لقناة بنما وكان ولعه بمعاهدة ١٨٨٨ ينبع إلى حد ما ـ من الحساسية من طرح مسألة قناة بنما .

وعندما وجهت دعوة لمصر لحضور مؤتمر لندن ، كان أول رد فعل لعبد الناصر هو أن مصر يجب أن تحضر ، بل إنه قال إنه على استعداد للذهاب إلى لندن بنفسه .

وكنت مع قلة آخرين . ضد الفكرة . وقلت حتى أنا لا أريد أن أحضر . واتفقنا فيما بعد أن ترفض مصر الدعوة للاشتراك الكامل . وأن تذهب إلى لندن كمراقب خارجى فقط . ولم يلتزم الاتحاد السوفيتى فى بادئ الأمر ولكنه وافق فيما بعد على الحضور بدون أى تحفظات .

وعندما قابلت فى ٧ أغسطس بايرود بناء على طلبه أبلغته بذلك .

وقد عين عبد الناصر قائد الجناح على صبرى مدير مكتب الرئيس المصرى للشئون السياسية ، لتمثيل مصر فى لندن دون حضور الاجتماعات . وقد وصل إلى لندن فى ١٦ أغسطس ليراقب من وراء ستار وليقابل أى وفود تريد مقابلته أو يريد هو مقابلتها . وقد قام بالمهمة بمقدرة بأن كان على علم وثيق بما يحدث ، وخاصة عن طريق شيبليوف وزير الخارجية السوفيتى ، وكريشنامينون وزير الدولة الهندى والذى كان المساعد الرئيسى لنهرو للشئون الخارجية .

وكان أول رد فعل « للريس » بالموافقة على الحضور ، قد أملته وطنية مجردة وحماس الشباب . وفى اليوم التالى كانت النغمة السائدة فى بعض صحف القاهرة هى أن وضع مصر فى مؤتمر لندن كان يمكن أن يكون غير حكيم ولا يتمشى مع كرامة مصر ، وأن الحضور كدعوة ، أو للاستجواب أمر غير مقبول تماما

وكانت الفكرة الغربية الأساسية التى كانت وراء عقد مؤتمر لندن ، ثم اللجوء فيما بعد إلى مجلس الأمن ، وأخيرا إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، هى كيف يمكن استعادة السيطرة على قناة السويس وكيف يمكن استردادها من السيطرة المصرية ، والعثور على ما يشبه الحق القانونى لمواجهة العالم .

بعد إعلان مصر بقليل عن تأميم شركة قناة السويس اجتمع وزراء خارجية انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة فى لندن ووافقوا على اعتبار الإجراء الذى اتخذته مصر تهديدا لحرية الملاحة فى القناة التى ضمنتها معاهدة القسطنطينية . واقترحوا أيضا فى ٢ أغسطس عقد مؤتمر فى ١٦ أغسطس تشترك فيه الدول الموقعة على المعاهدة وغيرها من الدول المهتمة باستخدام القناة .

وكانت هناك شكوى متكررة من كبار المسئولين فى شركة قناة السويس ، وهى أن الحكومات المعنية ومنها الحكومة البريطانية والفرنسية والأمريكية أبقتهم فى ظلام بالنسبة للتطورات المتعاقبة الخاصة بالقناة . واستمر هذا الموقف حتى خلال مؤتمر لندن . وهناك مثال قدمه لنا جورج بيكو عندما قال إنه أخذ بعض

زملائه معه ، على أساس أنه قد تم استشارتهم فى الشئون القانونية أو الفنية الخاصة بالمرور وإنشاء القناة . ولكنه سرعان ما أدرك أن المؤتمر كان يدار فقط على صعيد سياسى وأن فرنسا مثل انجلترا . تركت نفسها لتأثير الولايات المتحدة فى الدخول فى مفاوضات انتهت بالفشل . وفى أوائل سبتمبر كانوا قد أدركوا الانهيار الكامل لآمالهم التى علقوها على هذا المؤتمر ـ أى أنهم أدركوا فشل خمسة من مندوبى المؤتمر برئاسة روبرت جوردون منزيس رئيس وزراء استراليا إلى القاهرة ، ورفض عبد الناصر الخشن للاقتراح بتشكيل لجنة دولية لإدارة القناة .

ومع هذا . فإن الإقامة فى لندن منحتهم الفرصة لمقابلة الصحافة البريطانية وممثلى الملاحة الهولندية والاسكندنافية والتحدث مرة أخرى بفضل شارلز سيوفورد . قنصلهم الأمريكى . مع روبرت ميرفى مساعد دالاس . وقد وجد أن ميرفى يعارض معارضة شديدة أى سياسة لاتناسب مصر تماما ، وفهم على الفور أن دالاس . الذى يدعى أنه منحاز إلى السياسة الفرنسية البريطانية ، ينوى فى الحقيقة أن يوقع خلفاءه فى شرك عن طريق صيغ دولية غير واقعية حتى يحبط أى جهود تؤدى إلى أن تغير مصر من رأيها بالنسبة للتمصير الكامل .

وقد أرسلت الدعوات بالفعل إلى أربع وعشرين دولة هى : مصر واليونان واستراليا وسيلان وسرى لانكا والدنمارك وأثيوبيا وألمانيا الغربية وفرنسا والهند وأندونيسيا وإيران وإيطاليا واليابان وهولندا ونيوزيلندا والنرويج وباكستان والبرتغال وأسبانيا والسويد وتركيا والاتحاد السوفيتى وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

ومنذ البداية كان هذا الإجراء يبدو وكأنه مؤامرة أكثر من أى شىء آخر : مثال ذلك تجاهل حق مصر فى أن تكون من بين الدول المؤسسة للمؤتمر . بالرغم من أنها صاحبة القناة وقد تم تجاهل نصف « العالم الحر » ولم توجه إليهم الدعوة . وقد تضمن جدول الأعمال بند التدويل بدلا من إدراج بند يناقش أحسن

الوسائل لضمان حرية الملاحة فى القناة ومجرد ذكر أن الهدف هو تشكيل هيئة دولية لإدارة القناة يدل على أن المسألة قد حسمت بشكل تحكمى قبل أن تناقش ولهذا لم يكن مثيرا للدهشة أن مصر وعبد الناصر قالا : لا .

وفى ١٢ أغسطس صرح عبد الناصر فى مؤتمر صحفى عقد فى مجلس الأمة المصرى وحضره حوالى ٣٠٠ مراسل :

١ ـ شركة قناة السويس مصرية وقد حصلت على امتياز من الحكومة المصرية لمدة ٩٩ عاما ، وأن معاهدة القسطنطينية تضمن حرية الملاحة فى القناة . وليس وضعا دوليا كما تدعى الدول الاستعمارية . والمادة ١٦ من الاتفاقية المعقودة عام ١٨٦٦ بين الحكومة المصرية والشركة تنص على أن شركة قناة السويس هى شركة مصرية تخضع للقوانين والعادات المصرية . وبالإضافة إلى ذلك فقد اعترفت بذلك الحكومة البريطانية ودافعت عن ذلك أمام « المحكمة المختلطة » فى مصر . حيث أكدت أن شركة قناة السويس هى مجرد شخصية اعتبارية طبقا للقانون المصرى الخاص . وأن جنسيتها ووضعها مصريان ولا يمكن أن تكون غير ذلك

وتنص المادة ١٣ من معاهدة القسطنطينية على أنه فيما عدا الالتزام المنصوص عليه صراحة فى مواد المعاهدة فإنه لايوجد شىء يمس حقوق السيادة التى للحكومة المصرية . وبناء على ذلك فإن تأميم شركة قناة السويس من قبل الحكومة المصرية هو قرار صادر من الحكومة المصرية طبقا لحقها السيادى . وأى محاولة لإضفاء وضع دولى على شركة قناة السويس ماهو إلا ذريعة للتدخل فى الشئون الداخلية لمصر

٢ ـ إن إقامة لجنة دولية لإدارة القناة ماهو إلا استعمار جماعى

٣ ـ إذا كانت القوى الاستعمارية مقتنعة حقا بأن موقفها صائب فلماذا الحصار الاقتصادى والتهديدات العسكرية ؟

٤ ـ إن تأميم الشركة لم يؤثر على حرية الملاحة فى القناة كما وضح بجلاء من عدد السفن ـ ٧٦٦ ـ التى عبرت القناة خلال الأسبوعين الأولين منذ ٢٦ يوليو .

٥ ـ لا توافق مصر على حضور مؤتمر يتعرض لسيادتها وتم إعداده بدون استشارتها .

وقد تعجب الكثيرون فى مصر وخارجها من المبرر فى اشتراك معظم الدول الأوربية فى المؤتمر . فقد اشتركت فيه أربع وعشرون دولة منها . بينما اشتركت ست دول فقط من آسيا ودولتان من أفريقيا .

وتبادر إلى الذهن سؤال : إذا كانت الملاحة فى القناة قد أعيقت . هل كانت الدول التى تستهلك المواد الخام فى الغرب تتأثر أكثر من الدول المنتجة لهذه المواد فى الشرق . وقيل : ألم تكن الكويت مثلا . التى يعتمد اقتصادها أساسا على تصدير البترول . ستتأثر بنفس درجة تأثر الدول التى تمتلك ناقلات البترول ؟ ومع هذا لم تدع الكويت للمؤتمر . وإذا قيل إن الدعوات قد أرسلت إلى الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية . فلماذا لم توجه الدعوة إلى الدول التى كانت جزءا من الأمبراطورية العثمانية مثل سوريا ولبنان والأردن والعراق ؟ لماذا لم تدع تركيا . التى كانت الدولة الرئيسية الموقعة على المعاهدة والتى استضافت المؤتمر الذى أدى إلى عقد الاتفاقية . ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الدول التى كانت جزءا من الأمبراطورية النمسوية المجرية والأمبراطورية الألمانية . وكلاهما وقعتا على معاهدة القسطنطينية . وهى الآن النمسا وتشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الديموقراطية والمجر ويوغوسلافيا .

كما خطر سؤال آخر . فقد وجهت الدعوات لإيطاليا وأسبانيا بصفتهما دولا بحرية على البحر المتوسط . فلماذا لم تدع يوغوسلافيا وبولندا ، وكلاهما دولتان بحريتان تمر سفنهما بقناة السويس ؟ وإذا قيل إن المؤتمر يبحث الملاحة فى قناة السويس . فإن استراليا ونيوزيلندا تكونان أقل دول العالم تأثرا بما يحدث فى القناة . إذا وضعنا فى الاعتبار أن المرور حول رأس الرجاء الصالح بالنسبة لهما

يمثل نفس المسافة كما لو عبرا القناة . ومع هذا فقد وجهت إليهما الدعوة ، بينما الخليج العربى لم يدع .

وتساءل كثيرون أيضا لماذا تدع بها وليبيريا إلى مؤتمر لندن ، بالرغم من أن عدد السفن التى تحمل أعلامها وتمر بالقناة كبير . يقول الكاتب البريطانى بول جونسون فى كتابه « قناة السويس » بهذا الخصوص : تم اختيار المدعوين بعناية لضمان أغلبية كبيرة فى صالح الدول الثلاث الكبرى . وبالطبع لم يكن من الممكن استبعاد الاتحاد السوفييتى ومصر . ولكن كل الدول الأخرى المدعوة كانت إما أعضاء فى حلف الأطلنطى أو الكومنولث أو من بين الدول التى تعتمد اقتصاديا على الغرب مثل اليابان وأسبانيا وأثيوبيا .

والحقيقة أن المؤتمر كان قائما على التلاعب المحكم : فهناك اثنا عشر دولة عضو فى حلف الأطلنطى وثلاث دول فى حلف بغداد وخمس دول أعضاء فى الكومنولث . وللأسباب التى ذكرناها رفضت مصر الدعوة . وكذلك فعلت اليونان ، وكان أحد أسباب رفضها خلافها مع المملكة المتحدة حول قبرص .

وقد حاول بعض المراقبين المحايدين أن يبحثوا أيضا الأسباب التى قدمتها الدول الغربية تأييدا لدعواها فى تدويل القناة . قالت هذه القوى إن مصر يمكنها أن ترفض السماح لسفنها أن تمر بالقناة كما فعلت مع سفن إسرائيل . ولكن لوحظ أنه منذ تأميم القناة لم تمنع مصر أى سفن غربية من المرور ، حتى تلك التى لم تدفع الرسوم لهيئة القناة

وقد طور بعض الدارسين هذه الفكرة فقالوا إن السفن الإسرائيلية حرمت من المرور حتى عندما كانت الشركة تدير القناة قبل التأميم . وأضافوا أن مصر قد احترمت حرية الملاحة فى القناة منذ حفرت ، وتساءلوا : ألم يكن عرابى قادرا على ردم القناة عام ١٨٨٢ عندما غزا البريطانيون مصر . ؟ وتذكروا أن مصر لم تعق حرية الملاحة فى القناة بعد إلغاء مصر للمعاهدة المصرية البريطانية فى ٨ أكتوبر ١٩٥١

فلا عجب أن كتب البروفسور الفرنسي دى لابراديل فى صحيفة لوموند أن التأميم أثر على شركة قناة السويس ولكنه لم يؤثر على معاهدة القسطنطينية لعام ١٨٨٨ التى تستمر فى السريان بعد انتهاء امتياز الشركة . إن التأميم لم يكن سوى ممارسة من جانب مصر لسيادتها . وما تم إلغاؤه هو مرسوم الامتياز .

ولقد أصبح الموقف متوترا بشكل متزايد . مثال ذلك : كانت مصر تدافع عن سيطرتها على القناة ، كما تدافع أيضا عن أمنها الاقتصادى والسياسى بل عن وجودها كدولة مستقلة . وكان زعيمها جمال عبد الناصر قلقا جدا على مصر ، وعلى هيبته هو نفسه بين العرب والمسلمين فى العالم بأسره . ولقد سارت قدما وبأقصى سرعة وعناية لتؤكد نجاح إدارتها للقناة ولتحصل على مزيد من التأييد لموقفها فى العالم من الناحيتين القانونية والسياسية بالنسبة لموضوع التأميم . وفى البداية وافقت الولايات المتحدة مع فرنسا والمملكة المتحدة بشكل تلقائى على إرغام جمال عبد الناصر على أن يتقيأ القناة بل والإطاحة به تماما ، على حد تعبير دالاس . وفى مرحلة تالية كان دالاس يتحدث مع سلوين لويد بما يعنى لماذا لاتنتهى من المهمة ؟ بمعنى لماذا لا تخلصنا من جمال عبد الناصر بعد أن تنزل قواتكم فى مصر وعندما قال سلوين لويد : أنتم لم تمنحونا إشارة ولو على شكل غمزة عين ، أجاب دالاس : لم أستطع .

أما الاتحاد السوفيتى فقد توقف عند حد الرغبة فى التخلص من جمال عبد الناصر فورا ، بالرغم من أن الكثيرين اعتقدوا بأنه لم يكن من المحتمل أن يستمروا فى هذه الفكرة فى مرحلة تالية ، ولكنهم لم يريدوه أن يصبح قويا جدا ، وفى الوقت نفسه كان مفيدا لهم للإسهام فى إبعاد القوى الغربية عن استعادة السيطرة على القناة .

وهناك تعليق مشابه يمكن الإدلاء به عن مظاهر المناورة والإجراءات . فمثلا كانت الولايات المتحدة تريد أن تتجنب على قدر الإمكان الذهاب إلى الأمم المتحدة بشأن السويس ، بسبب الفيتو السوفيتى فى مجلس الأمن . كما لم تكن

تريد عرض المسألة على الجمعية العامة . فبالرغم من عدم وجود فيتو . فهناك احتمال أن يحصل مشروع قرار معارض لسياسة الولايات المتحدة ورغباتها . على أغلبية الأصوات . ولكن واشنطن وجون فوستر دالاس كانا يريدان منع أى استخدام للقوة فى هذا الشأن من قبل المملكة المتحدة وفرنسا أو أية دولة أخرى . كما كانت حكومة الولايات المتحدة لا تستسيغ بشكل خاص أن ترى عودة القوتين الاستعماريتين السابقتين إلى مركز الهيمنة فى الشرق الأوسط . وكانت هذه أساس المشاعر والأفكار التى وراء مبادرة واشنطون وموقفها من مؤتمر لندن وانضمامها إلى فرنسا والمملكة المتحدة فى طلب عرض مسألة السويس على مجلس الأمن بالرغم من أن ذلك تم على مضض من الدول الثلاث .

ومنذ ٢٦ يوليو ١٩٥٦ قال جمال عبد الناصر فى خطابه الذى أعلن فيه تأميم شركة قناة السويس : لقد سرنا قدما فى بناء مصر القوية . وسرنا قدما نحو الاستقلال السياسى والاقتصادى . وسرنا قدما نحو اقتصاد وطنى من أجل الشعب كله . لقد سرنا قدما إلى العمل . ولكن . عندما ننظر إلى الخلف . فإننا نفعل ذلك لنحطم آثار الماضى . آثار العبودية والاستغلال والسيطرة . واليوم تم إعادة حقوق المواطنين لأصحابها . وقد تم استعادتنا لحقوقنا فى قناة السويس بعد مائة عام . واليوم حققنا السيادة الحقيقية . والكرامة الحقيقية والعزة الحقيقية . لقد كانت شركة قناة السويس دولة داخل دولة . كانت شركة سندات مشتركة مصرية . تعتمد على الاستعمار وأذنابه . ومن المفروض أن قناة السويس قد بنيت من أجل مصر ومن أجل منفعتها . ولكنها كانت مصدرا للاستغلال واستنزاف ثروتها .

وكانت الخطوط قاطعة وعميقة وواضحة . وكان فى وسع أى أنسان أن يلاحظها بمجرد إلقاء نظرة . وكان عبد الناصر يلقى خطابه بصوت جهورى ليسمعه العالم كله . وجزء كبير منه من أجل منفعة شعبه . ومن المفيد أن نلقى نظرة على بعض الأحداث التى لها أهمية خاصة . فقد أجتمع ممثلو اثنين وعشرين

دولة من المنتفعين بالقناة فى لندن فى الفترة من ١٦ حتى **٢٣** أغسطس **١٩٥٦** .

ومنذ البداية ثارت الخلافات . فالاتحاد السوفيتى والهند وسيلان (سرى لانكا الآن) أعربت عن اعتقادها بقانونية تأميم القناة بينما قادت المملكة المتحدة وفرنسا والولايات المتحدة الحملة من أجل التدويل ، ووقفت دول أخرى مترددة بين الاتجاهين . وفى الحال شرع دالاس فى تحديد اقتراحات الدول الغربية الثلاث فى برنامج من أربع نقاط لتسوية النزاع .

فإدارة قناة السويس يجب أن تكون من مسئولية مجلس يقام بمعاهدة ويرتبط بالأمم المتحدة . ويمكن لمصر أن تمثل فى المجلس ولكن تشكيل المجلس يجب أن يكون بحيث لا تسيطر عليه دولة واحدة . ويكون لمصر الحق فى عائد عادل يضع فى الاعتبار كل سيادة وحقوق مصر المشروعة . ويدفع تعويض عادل لشركة قناة السويس الحالية .

وأى خلافات حول نصيب مصر فى الأرباح من القناة أو حول التعويض الذى يجب أن يدفع للشركة يحال إلى محكمة العدل الدولية فى لاهاى .

ومع هذا ، أصبح من الواضح تماما أن المشروع الغربى لا تقبله مصر ولا الاتحاد السوفيتى . وفى ١٨ أغسطس أعلن جمال عبد الناصر بشكل مباشر أن مصر لن تقبل الإدارة الدولية لشركة قناة السويس ، لأن ذلك يشكل افتئاتا على سيادة مصر . وعندما قدم وزير الخارجية الأمريكى دالاس رسميا إعلان المبادئ للمؤتمر ، كانت المسألة فى جوهرها قد انتهت بالفعل .

واختتم المؤتمر أعماله بقرار بتأميم إدارة القناة ، وأيدت القرار ست دول أعضاء فى المؤتمر بدون تحفظات ، كما أيدته اثنا عشر دولة بتحفظات . وقررت الدول الثمانية عشرة بناء على ذلك تشكيل لجنة يعهد إليها تسليم قرار المؤتمر لناصر وحكومته ، من أجل الحصول على وجهة نظرهما .

وفى بادئ الأمر عرض على دالاس قبول رئاسة اللجنة ، ولكنه اعتذر عن هذا العرض بالرغم من إصرار الكثيرين ، ومنهم انتونى ايدن . ثم تم الاتفاق بين

الدول الثمانية عشر على أن يرأس اللجنة روبرت منزيس رئيس وزراء استراليا . وكان أعضاء اللجنة هم اسيليلاو ابيت ويلد وزير خارجية أثيوبيا ، واوستن اندن وزير خارجية السويد وعلى كولى ارديلان وزير خارجة إيران ، ولى هندرسون وكيل وزارة الخارجية الأمريكية المساعد .

كان منزيس طويل القامة مثل عبد الناصر ، وأضخم منه بشكل واضح . حواجبه كثه وعيناه لامعتان وصوت حاد ، وكان يمثل جسديا المؤيدين الرئيسين لمؤتمر لندن الذين يميلون إلى العودة إلى الماضى وفرض إرادتهم .

ويقول كينيث لوف ، فى كتابة « السويس : الحرب التى حوربت مرتين » عن منزيس : « أن منزيس الذى غاص فى أزمة السويس وأخذ ينشر الرذاذ حوله مثل طفل صغير فى حمام سباحة ، تم اختياره للمهمة مع أن تصريحاته العلنية ضد ناصر كان يجب أن تستبعده . وعلى أى حال كان أسوأ اختيار يمكن تصوره ليرأس مهمة ناجحة ، ولكنه كان أفضل اختيار لمهمة يراد لها أن تفشل . وقد قال لناصر فى أول لقاء لمجموعته مع الرئيس المصرى إنه ولد استعماريا ولن يحاول أن ينكر ذلك . وكان منزيس مرحا وصارما وشعره أبيض وحاجباه أسودان كثان ، ويبلغ وقتئذ الواحد والستين . وله شعر خشن ومنمق ولكنه لم يكن يخفى تحامله ضد أمثال ناصر . إن الاستراليين الذين تعودوا أن يصيدوا الأهالى الأصليين كما يصيدون الكلاب ، بدأوا الآن يعبرون عن عنصريتهم عن طريق قوانين الهجرة . ولم يكن منزيس يشعر بالخزى من تحاملاته . على العكس فقد قال فى إحدى المرات عن نفسه بتفاخر وهو يمزح : إننى متعصب بشكل معقول وأنحدر من العنصر الاسكتلندى .

ولم يجد غضاضة فى أن يطلب من ناصر أن يقبل أساسين للمفاوضات :

١ ـ الاعتراف بعدم مقدرة المصريين .

٢ ـ عدم إمكانية الثقة فى ناصر نفسه .

وهذان هما الأساسان المفهومان ضمنا للولايات المتحدة ـ أو كما كان يفضل دالاس أن يصفهما بأنهما مشروع الدول الثمانية عشر. وكان أبعد ما يكون عن فهم الحساسيات المرهفة للوطنيين الأفريقيين والآسيويين . لدرجة أنه وجد أنه إغراء معقولا لناصر أن يؤكد له أن المجلس الدولى المقترح سيقوم بكل أعمال القناة بينما تحصل مصر على كل الأرباح . وقد أعد منزيس للمهمة بأن توجه إلى استديوهات هيئة الإذاعة البريطانية فى ٢٨ أغسطس ليشاهد مقابلة مع ناصر. وكان أفضل له أن يقرأ بإمعان وتعاطف خطاب التأميم لناصر.

ولكن لم تكن هناك نية لإنجاح المهمة . كان ايدن والفرنسيون يريدون من منزيس أن يقدم اقتراح الدول الثمانية عشر على أساس قاطع من خذه أو اتركه ليضمنوا أن يرفضه ناصر.

ولهذا ، فبالإضافة إلى اختيار منزيس ومرابطة القوات الفرنسية فى قبرص ، أصدر البريطانيون والفرنسيون ضوءا أحمر لتحذير مواطنيهم فى ٣٠ أغسطس وأول سبتمبر لمغادرة ليس مصر فقط ولكن سوريا ولبنان أيضا . وقد غضب إيزنهاور من هذه التصرفات التى تعرض مهمة منزيس للفشل . وهو يتذكر ذلك بلطف فى مذكراته قائلا : إننى أتساءل من آن لآخر هل كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية مهتمتين حقا بنجاح أو فشل مهمة منزيس .

ومن الواضح أن منزيس لم يكن يعتبر أن ما قاله لناصر تهديدا ، وذلك فى محادثات خاصة معه مساء ٥ أكتوبر عندما أبلغه أن الاستعدادات البريطانية والفرنسية جادة للغاية .

وكما وصف منزيس اللقاء :

أوضحت له مدى قوة الرأى فى لندن وباريس ، وأضفت مؤكدا : أننى لا أعرض أى تهديدات .. ولكن الصراحة بين رئيسى حكومتين تقتضى منى أن أعرض رأيى الشخصى وهو أنك لا تواجه خدعة ولكن حقيقة مؤكدة لا يجب

أن تتجاهلها بلادك . وقد أكد له ناصر أنه لاينظر إلى الإجراء البريطانى كخدعة .

وقد داس منزيس بقوة على التاريخ والإدراك السليم وآداب السلوك عندما وجه اللوم إلى ايزنهاور لإفشال المهمة بتصريحه فى المؤتمر الصحفى فى واشنطن فى ٥ سبتمبر . قال إيزنهاور : إن الولايات المتحدة ملتزمة بحل سلمى لهذه المشكلة . وقد نسى منزيس ما كتبه فى تقريره الرسمى بأن ناصر قد أجاب بالنفى القاطع فى مساء ٥ سبتمبر . فكتب بعد ذلك يقول : فى جلسة الاجتماع فى مساء اليوم التالى ٦ سبتمبر كان موقفه كله متشددا . كان قد قرأ مثلنا . فى صحف الصباح المصرية تصريحا عن سياسة الولايات المتحدة التى تقول بعناوين رئيسية : إنه لا يجب استخدام القوة ، وإذا رفضت اقتراحات الدول الثمانية عشر فلابد من النظر فى اقتراحات أخرى . ومنذ ذلك الوقت شعر ناصر أنه اجتاز مرحلة الخطر .

وكما ذكرنا من قبل . وصلت البعثة إلى مصر وسلمت فى الرابع من سبتمبر إلى الرئيس عبد الناصر القرار ــ الذى يعتبر قرارا أمريكيا أصلا ــ والذى يدعو إلى تدويل إدارة القناة .

وقد اشتركت فى هذا الاجتماع الذى سبقه وأحاط به جو من الخديعة والتهديدات والاستعدادات العسكرية ضد مصر . فقد كانت الدول الغربية تأمل فى أن تفرض شروطها عليها بطريقة أو بأخرى . ولكن مصر احتفظت برباطة جأشها ورفضت مشروع الدول الثمانية عشر . وسلمت منزيس فى ٩ سبتمبر ردها التفصيلى الذى يتضمن هذا الرفض ، ليبلغه إلى أولئك الذين أنابوه عنهم . وقد اتبع الرد المصرى نفس الخطوط التى تضمنتها بياناتها السابقة . ويمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

أ ــ حرية الملاحة فى قناة السويس وضمان استخدامها بلا تمييز .

ب ــ تحسين القناة بحيث تصبح كافية بشكل دائم للملاحة .

جـ ـ رسوم عادلة .

د ـ إدارة قادرة للقناة .

وقد عبر الرد المصرى أيضا عن الثقة فى أن القناة بهذا تكون بعيدة عن السياسة وتصبح حلقة جديدة للتعاون والمنفعة المشتركة والتفاهم الوثيق بين دول العالم . بدلا من أن تصبح مركزا للصراع .

وبعد مرور بضعة أعوام، وبينما كان سير روبرت منزيس رئيسا لوزراء استراليا سافر إلى لندن عن طريق القاهرة وكنوع من المجاملة ذهبت لتحيته فى المطار . وكان الجو العاصف الذى أحاط بمقابلاتنا السابقة فى القاهرة وغيرها قد انقشع . وقابلته فى الطائرة وسرنا معا نحو مبنى المطار حيث احتشد جمع من الناس . وعندما رأونا أخذوا يصيحون بعبارات الترحيب . وقد بدأ القلق على سير روبرت منزيس وسألنى ماذا يقولون ، ويبدو أنه كان يظن أن الأيام والجو الذى أحاط بزيارته للقاهرة كرئيس للوفد الممثل لمؤتمر لندن الخاص بقناة السويس ، لم يختف بعد . وطمأنته بقولى بأن ما سمعناه هى عبارات التحية لضيف محترم وعندئذ فقط شعر بالارتياح .

كانت بعثة منزيس من بين أحداث أخرى ، وقد سبقها وأعقبها خطابان أصبحا هامين فيما بعد .

فقد غضب إيزنهاور من السلوك البريطانى الفرنسى الحربى الذى ظهر قبل بعثة منزيس . فأعرب عن قلق الولايات المتحدة لكل من لندن وباريس فكتب فى ٢ سبتمبر : لابد أن أصارحكم أن الرأى العام الأمريكى يرفض تماما فكرة استخدام القوة .

وفى ١١ سبتمبر كتب بولنجانين إلى كل من إيدن ومولية . قال لإيدن : إنها ليست مصر التى تحشد القوات وتهدد باتخاذ إجراء عسكرى ضد أى دولة ولكنها بريطانيا وفرنسا . كيف فى مثل هذا الموقف ، واسترشادا بالمبادئ السامية للولايات

المتحدة . يمكن لأحد إلا أن يقف إلى جانب مصر؟ وقال لموليه : إننا نرى أن مثيرى الحرب قد تصاعدوا بالموقف إلى مرحلة جديدة . وحذر من العواقب الوخيمة إذا أصبح لهم اليد العليا . وقد شعر الكرملين بعدم الاطمئنان للمناقشات حول السويس فى لندن وبالقلق لما يتلو انسحاب المرشدين ، فأصدر بيانا عاما فى ١٥ سبتمبر بأن السوفيت لايمكن أن يقفوا بعيدا عن مشكلة السويس .. باعتبار أن أى انتهاك للسلام فى الشرق الأدنى والأوسط لا يمكن إلا أن يؤثر على مصالح الاتحاد السوفيتى وأمنه .

وفى ١٦ سبتمبر ، بعد شهر من افتتاح مؤتمر لندن ، كتب إيدن إلى بولجانين خطابا يدافع فيه عن سياسته بشأن السويس وقد اختتمه بهذه الجملة اللاذعة : لابد أن أذكركم بأنه فى عام ١٩٤٦ أعلنت الحكومة السوفيتية تأييدها للسيطرة الدولية على القناة . وهذا هو ما نسعى إليه . وتجاهل إيدن أنه فى عام ١٩٤٦ عندما ذكرت روسيا المسألة بخصوص نزاع حول المضايق التركية ، عارضت بريطانيا بقوة السيطرة الدولية على القناة . هذا هو منطق الملكية .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك ، طبقا لما ذكره بعض المراقبين ، ما يدل على أن تهديدات الاتحاد السوفيتى أصابت واشنطون بمزيد من الهلع ، أكثر مما أصابت لندن أو باريس .

وبعد فشل مهمة منزيس ، اجتمعت الدول الثمانية عشر مرة أخرى فى لندن فى الفترة من ١٩ حتى ٢١ سبتمبر ١٩٥٦ . وفى الوقت نفسه ، كان نجاح مصر فى إدارة القناة قد أدى إلى فتور حماسة مزيد من الجهات ، وأثار الشكوك حول نوايا المملكة المتحدة وفرنسا وحالما قدم إيدن للمؤتمر فى لندن فكرة تكوين ما عرف فيما بعد بجمعية المنتفعين بقناة السويس ، أعربت باكستان عن رفضها البات للاشتراك فى هذه الهيئة ، وصرحت النرويج وأسبانيا وإيطاليا بأنهما ستتحدى الحقيقة القائمة أو سترسل سفنها للدوران حول رأس الرجاء الصالح ما دامت قناة السويس مفتوحة . ورفضت عدة دول أيضا أن تدفع رسوم القناة

لجمعية المنتفعين . وحتى دالاس الذى بدأ فكرة جمعية المنتفعين فإنه لم يستطع أن يضمن أن تدفع سفن الولايات المتحدة للجمعية قبل أن يعرض الأمر على الكونجرس . وقد اضطر المؤتمر إلى استبعاد المشروع وهو فى شكله المبدئى وترك لكل دولة حرية دفع الرسوم إما لمصر أو للجمعية المقترحة ، وهو تعديل عارضته فرنسا بشدة .

وبهذا تحول مؤتمر لندن الثانى إلى حالة من الفوضى حتى أن ممثلى فرنسا وصفوه بأنه أسوأ هزيمة للغرب منذ ميونخ .

وطبقا لما كتبه فاينر ، كان دالاس منافقا أكثر مما كان إيدن يعرفه عنه ، فطبقا لما قاله روبرت ميرفى ، الذى ساعد فى وضع فكرة جمعية المنتفعين : لو كان جون فوستر دالاس مقتنعا حقا بإمكانية تنظيم جمعية المنتفعين بالقناة بحيث تدير القناة ، فإننى لم أكن أدرك ذلك .

وكما كتب بيرنز فى الخامس عشر ، فقد تحدث عبد الناصر إلى طلبة الطيران الذين تخرجوا من كلية الطيران فى بلبيس مؤكدا خطورة جمعية المنتفعين . قال عبد الناصر :

« من المستحيل أن تكون هناك هيئتان لتنظيم الملاحة فى القناة .. وبنفس المنطق يجب أن يكون فى إمكاننا أن نجمع عددا من الدول ونكون جمعية المنتفعين بميناء لندن وتدفع جميع السفن المتجهة إلى لندن رسوما لذلك (تصفيق وضحك) بهذا تكون هناك فوضى دولية . (تصفيق) هذه الجمعية لا يمكن أن تكون جمعية المنتفعين بالقناة . إنها جمعية لاغتصاب الحقوق . واغتصاب السيادة ، وإعلان الحرب .

ولم تتوقف الأحداث بعد فشل مؤتمر لندن . فقد قرر مجلس وزراء إيدن فى ٢٨ أغسطس أن يتصرف داخل نطاق الأمم المتحدة بعد قرار مجلس الأمن . وذهب دالاس إلى استراحته فى داك ايلاند لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ويوم العمال وفى ذهنه مشكلتان : منع بريطانيا وفرنسا من التغلب على عقبة الأمم

المتحدة وإفشال مخططهم باستخدام النقص المتوقع فى المرشدين كذريعة للاستيلاء عليها بالقوة .

وفى ٢٣ سبتمبر . وبدون إخطار حكومة الولايات المتحدة . أعلنت حكومتا فرنسا والمملكة المتحدة أنهما قد أحالا مسألة قناة السويس إلى مجلس الأمن وطلبا عقد اجتماع طارئ فى ٦ سبتمبر .

وفيما يلى ما جاء فى طلبهما :

« طبقا لتعليمات من حكومة صاحبة الجلالة فى المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلنده الشمالية ومن حكومة فرنسا . يشرفنا أن نلتمس منكم . بصفتكم رئيسا لمجلس الأمن لهذا الشهر . أن تدعو إلى اجتماع للمجلس يوم الأربعاء ٢٦ سبتمبر . لبحث الموقف التالى : الموقف الذى خلقه الإجراء من جانب واحد الذى أقدمت عليه الحكومة المصرية بإنهاء السريان الدولى لمعاهدة قناة السويس فى ١٨٨٨ .

وكانت الطبيعة العامة للموقف المشار اليه أعلاه قد ذكرت فى الخطاب رقم ٢٥١ الذى وجه إليكم فى ١٢ سبتمبر طبقا للتعليمات الصادرة من حكومتنا .

إن حكومة صاحبة الجلالة والحكومة الفرنسية ترى أن الوقت قد حان لأن نطلب مناقشة هذا الموقف فى المجلس » .

وفى ٢٥ سبتمبر أرسلت وزارة الخارجية المصرية عن طريق مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة كتابا إلى مجلس الأمن تطلب فيه الاجتماع لبحث الأعمال التى تدبرها ضد مصر بعض القوى وخاصة المملكة المتحدة وفرنسا ، وهى أعمال تشكل تهديدا للسلام وانتهاكا لميثاق الأمم المتحدة .

وعندما اجتمع مجلس الأمن فى ٥ أكتوبر كان سلوين لويد أول المتحدثين . وقد تحدث لمدة ساعة وقدم مشروع القرار البريطانى الفرنسى الذى يحتوى على خمس نقاط :

١ ـ تأكيد حق الملاحة فى قناة السويس طبقا لمعاهدة القسطنطينية .

٢ ـ إدارة القناة من قبل هيئة ذات طابع دولى .

٣ ـ الموافقة على النتائج التى وصلت إليها الدول الثمانى عشرة فى مؤتمر لندن .

٤ ـ التوصية بأن تدخل مصر فى مفاوضات قائمة على هذه الاقتراحات .

٥ ـ دعوة مصر إلى التعاون مع جمعية المنتفعين .

وقد تحدث بعد ذلك بينو وتحدث بنفس لهجة لويد ، وتبعهما دالاس فأيد مشروع القرار البريطانى الفرنسى فى عبارات لا تثير الدهشة إلى حد ما ، ولكنها لم تكن واضحة تماما . وقد اتفق مع المملكة المتحدة وفرنسا إلى حد ما ومع مصر إلى حد ما . وبينما تحدث عن ضرورة ضمان حرية الملاحة كان يميل إلى العرض الذى قدمته مصر بأن يحل الخلاف بالوسائل السلمية ، ولهذا اقترح أن تعقد اجتماعات خارج مجلس الأمن ، بين وزراء خارجية الدول الرئيسية المعنية وهى مصر والمملكة المتحدة وفرنسا ، حتى يمكن حل النزاع عن طريق المفاوضات المباشرة قبل الوصول إلى مرحلة التصويت بالمجلس . وأعرب همرشلد عن تأييده لمقترحات دالاس .

وفى ٨ أكتوبر ألقيت خطابى الرئيسى فى مجلس الأمن . وفيما يلى بعض النقاط الأساسية :

ـ إن لكل دولة مستقلة الحق فى أن تؤمم أية مؤسسة تخضع لسيادتها . وهو حق أكدته الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم ١٢٦٢٦ فى ٢١ ديسمبر ١٩٥٢

ـ إن لكل دولة الحق فى استخدام مواردها لرخاء شعبها بما يتمشى مع سيادتها ومبادئ الأمم المتحدة .

ـ إن شركة قناة السويس هى شركة مصرية منحت الحكومة المصرية امتيازها لمدة ٩٩ عاما . والمادة ١٦ من الاتفاقية المعقودة بين الحكومة المصرية وشركة القناة فى ٢٢ فبراير ١٨٦٦ تنص على أن الشركة البحرية العالمية لقناة السويس هى شركة مصرية مساهمة تخضع لقوانين البلاد وعاداتها .

ـ إن الحكومة البريطانية نفسها اعترفت بهذه الحقيقة بل إنها دافعت عنها أمام المحاكم المختلطة فى ١٢ إبريل عام ١٩٣٩ . وبالإضافة إلى ذلك قدمت مذكرة تنص فيها بوجه خاص على أن تسمية الشركة بعالمية لا يحرمها على الإطلاق من جنسيتها المصرية .

وقد اعترفت نفس المحاكم المختلطة مرارا بالجنسية المصرية للشركة ، فى القضايا التى بحثتها عام ١٩٢٥ وعام ١٩٣١ وعام ١٩٤٢ . وقد ذكرت أن مصر على استعداد للموافقة على عقد مؤتمر للدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ وغيرها من الدول المستخدمة للقناة ، لبحث معاهدة القسطنطينية وعقد اتفاقية جديدة بين جميع هذه الدول ، لإعادة تأكيد حرية الملاحة فى القناة ومثل اتفاقية ستسجل فى الأمم المتحدة ويتم إبلاغها لأعضائها مع ترك الباب مفتوحا لجميع الدول التى ترغب فى الانضمام إليها .

ـ إن مصر على استعداد لتعويض حاملى أسهم القناة طبقا لأسعار ٢٥ يوليو ١٩٥٦ وهو تاريخ التأميم . وتقبل الحكومة المصرية التحكيم فى هذا . وأضافت أن مسألة قناة السويس ككل يمكن حلها بالمفاوضات السلمية .

وقبل أن أختتم ، حاولت أن أعيد تأكيد النغمة الرئيسية لمصر بقولى إن مسألة قناة السويس لها جذورها العميقة فى الصراع بين السيطرة والحرية . وأولئك الذين أعربوا عن موافقتهم على تأميم القناة يمثلون أكثر من ثلثى سكان العالم . فما هو الاتفاق التكتيكى بين بريطانيا وفرنسا سوى أن يضمنا بالطبع عودة سيطرة القرن التاسع عشر التى بدأت تتسرب من بين أيديهم ، عندما كان الزمن غافيا والسماء ملبدة ، وأن يضمنا أن قناة السويس يجب أن تقطع وتنسلخ عن

مصر وكأنها ملك شخص آخر أو جماعة أخرى . وبهذا يتم حرمان دولة من جزء من أراضيها .

وكان انسحاب الولايات المتحدة والمملكة المتحدة من عرضها بالإسهام فى تمويل مشروع السد العالى على وشك أن يتم . وكان جوهر تعليق أمام مجلس الأمن هو أن السحب المفاجئ دون أى إخطار لمصر . لكل الترتيبات التى تم الاتفاق عليها مبدئيا . قد صحبتها حملة شريرة ضد سمعة الاقتصاد المصرى . وتهدف إلى زعزعة ثقة العالم فيه .

قد نفهم جيدا أن أى بنك ـ مثلا ـ له الحق فى أن يغير رأيه بالنسبة لمنح قرض لشركة ما . بالرغم من أنه من المشكوك فيه أن مثل هذا التغيير فى الرأى يجب أن يتم فجأة مما يؤدى إلى اضطراب فى توقعات وتخطيط هذه الشركة . والأسوأ بل المستغرب تماما هو أن يشيع البنك فى السوق ويخبر كل شخص بأن حسابات الشركة المعنية سيئة . وحتى إذا كان هذا الادعاء صحيحا ، فإن البنك يمكن أن يتعرض للمحاكمة بتهمة تشويه السمعة ويتعرض لتعويض الخسائر .

وقد أخذ دالاس الكلمة مرة أخرى فى ٩ أكتوبر . وقد أصر أساسا على أن الدول الغربية ودولا أخرى تميل إلى حل مشكلة القناة بالوسائل السلمية . وقد ركز على هذه النقطة بأن ذكر عديدا من الخطوات التى اتخذتها الدول الغربية بالفعل . منها مؤتمر لندن ، واختيار بعثة منزيس وذهابها إلى القاهرة ، ومؤتمر لندن الثانى لإقامة جمعية المنفعين بالقناة وعرض بريطانيا وفرنسا الصراع على مجلس الأمن . وقال دالاس : من النادر أن تبذل جهود مماثلة للتسوية السلمية بمثل هذه الأبعاد الخطرة .

ثم أصر على قانونية معاهدة ١٨٨٨ وعلى تنازل مصر لشركة قناة السويس عن مسئوليتها لتقديم نظام محدد لضمان حقوق المرور طبقا للمعاهدة . وكان هذا مثالا آخر لولع دالاس بالتطوع بتفسير المعاهدة والامتياز الذى منح لتثبيت الحقوق للمنتفعين وحقوق مصر والتزاماتها . وقال دالاس : إذا لم يكن ناصر

مضطرا على أن يحترم هذه الحقوق والالتزامات ، فإن ناصر يكون بهذا منتهكا لمعاهدة ومرتكبا خطيئة فى حق قداسة الالتزامات الدولية . وأضاف أنه إذا لم تتبن الأمم المتحدة هذا الرأى ، فإنها بهذا تنتهك القانون الدولى .

واستمر دالاس بحماسة متزايدة ، واستشهد بتصريحين قيلا فى مجلس الأمن لصالح مصر . وكان أول استشهاد له من تصريح أدلى به ممثل مصر محمود النقراشى باشا رئيس وزراء مصر أمام مجلس الأمن فى أغسطس ١٩٤٧ . وأشار إلى حقوق بريطانيا بالنسبة للقناة ، والمستمدة من المعاهدة فقال : إن وضع قناة السويس مختلف تماما عن أية ممرات مائية صناعية أخرى والتى تعتبر شرايين للمواصلات الدولية ، كما حددته الاتفاقية الدولية المتعددة الأطراف التى أشرت إليها الآن معاهدة ١٨٨٨ . إن قناة السويس كانت مشروعا دوليا منذ البداية . *وبعد سنوات قليلة من افتتاحها انضمت كل الدول الرئيسية فى أوربا إلى* الأمبراطورية العثمانية ــ التى كانت تعمل بالنيابة عن مصر ــ لتنظيم الملاحة وضمان حيادها والدفاع عنها . وكان استشهاد دالاس الثانى من تصريح لممثل مصرى آخر دكتور محمود عزمى رئيس وفد مصر الدائم فى الأمم المتحدة الذى قال فى ١٤ أكتوبر ١٩٥٤ : إن شركة القناة التى تسيطر على الممر ، هى شركة دولية تسيطر عليها سلطات ليست مصرية وليست بالضرورة تابعة لجنسية معينة . إنها شركة عالمية ، وستستمر إدارة الأمور بهذه الطريقة فى المستقبل .

ولقد كانت استشهادات دالاس مناسبة بما يتمشى مع شخصيته . ولكنها كانت مختارة بطريقة مضللة وقد تم انتقاؤها خارج سياقها . فمثلا الجهود التى ذكر دالاس أن الدول الغربية قد بذلتها لتسوية مشكلة قناة السويس سلميا . إن الاستشهاد بمثل ذلك كان بهدف الإسهام فى خلق جو صالح لإعادة سيطرة دولية على القناة . وفيما يتعلق بالدول الغربية . فإن إعادة هذه السيطرة . استمرت بشكل دائم كهدف إلى أقصى حد ممكن . وإذا استعرنا الإصطلاح العسكرى فقد كان ذلك أشبه بعملية المحافظة على الهدف . وكان الهدف هو

إعادة سيطرتهم على القناة . وكان الموقف الذى اتخذته مصر أمام مجلس الأمن عام ١٩٤٧ أو ١٩٥٤ مستوحى من الظروف السائدة وقتئذ ومن الأفكار التى كانت دائرة عندما سميت شركة القناة فى معاهدة ١٨٨٨ وبعض الوثائق الأخرى : الشركة العالمية لقناة السويس . دون أن تنال من الحقيقة المعترف بها والقائمة على القانون والواقع بأنها شركة مصرية .

وقبل أن يختتم دالاس كلمته ذكر المبادئ التى رأت الدول الثمانية عشر أنها العناصر الأساسية التى تتطلبها معاهدة ١٨٨٨ لضمان حرية الملاحة . وحث المجلس على تأييد هذه المبادئ .

وقد أكد سلوين لويد على فائدة الاجتماعات الخاصة بين الدول الرئيسية وهى مصر والمملكة المتحدة وفرنسا . واقترح لويد أخيرا اجتماعات مغلقة للمجلس واجتماعات خاصة بين الدول الرئيسية وحصل على تأكيد من دالاس بالتأييد الأمريكى لمشروع القرار البريطانى الفرنسى . وهو التأكيد الذى احترمه بالفعل عند نهاية كلمته .

وإذا وضعنا فى الاعتبار المتحدث وأهدافه والانطباع والجو الذى يريد خلقها فإن خطابه كان قطعة فنية . فقد احتوى على عدة مظاهر دالاسية مميزة ، مع فرد المؤلف المرموق لعضلاته الدولية باستمتاع كبير وروح دعابة من آن لآخر .

وبعد خطاب دالاس ، بدأت المحادثات الخاصة بين لويد وبينو وبينى ، مع حضور همرشلد كنوع من الوسيط . وسارت المحادثات سيرا حسنا ، وأحيانا لم تكن جيدة أو كانت سلبية حسب وجهة النظر أو الأثر الذى يريد أحد المعلقين أو غيره أن يحدثه . وقد أدلى بتعليق فى هذا الصدد جوزيف لاش فى كتابه : « داج همرشلد » ، فقد كتب يقول : إن جلسات المجلس التمهيدية أدت إلى مباحثات مباشرة بناء على اقتراح من همرشلد أيضا بين لويد وبينو وفوزى . وقد عقدت

هذه المباحثات فى مكتب همرشلد فى الدور الثامن والثلاثين حول مائدة قهوة منخفضة وكان همرشلد يقوم بدور الموفق ، وقد أشار دالاس لهمرشولد بأنه عامل مساعد أكثر من موفق ، وأنه يساعد بصيغة على أن يبلور الاتفاقات . وهو لم يكن يقترح الحلول كما قال بينو ، ولكنه كان يدون النقاط التى يتصور احتمال أن تؤدى إلى اتفاق .

وبعد ست اجتماعات كان آخرها فى ١١ أكتوبر ، انتهت المحادثات مع قبول الوزراء الثلاثة أن يقوم همرشولد بتلخيص مناقشاتهم ، على شكل ستة مبادئ . هذه المبادئ الستة قدمت فيما بعد باعتبارها الجزء الأول من مشروع قرار قدمته لمجلس الأمن حكومتا فرنسا والمملكة المتحدة ، وهو أمر معروف . أما الجزء الثانى من المشروع الفرنسى البريطانى فكان إعادة تأكيد لمقترحات الدول الثمانية عشر بلندن التى تهدف إلى إعادة فرض السيطرة الدولية على القناة . وهذا الجزء الثانى سقط لأن مصر رفضته ، كما رفضته عدة دول أعضاء فى المجلس ، ومنها الاتحاد السوفيتى الذى كان رفضه يعنى الفيتو . وكان الجزء الأول قد تمت الموافقة عليه بالإجماع . مع قبول مصر له أيضا مع إشارة خاصة إلى ما يسمى إبعاد القناة عن سياسة أية دولة . مع إضافة أنه حتى المبدأ نفسه قد وضع فى شكل جعله تعبيرا غير موفق ومضلل ويسمح بتفسيرات متناقضة .

ومع هذا . لم يكن الأمر يتطلب ذكاء خارقا لكى يحدس المرء أن مصر ، لاعتبارات عديدة ، أرادت أن يمر الجزء الأول من مشروع القرار المتضمن المبادئ الستة . وأن تجعل ذلك معروفا لدى الاتحاد السوفيتى وعديد من الدول الأعضاء فى المجلس .

ومنذ أو حتى قبل وقت عقد المباحثات الخاصة ، كان الفرنسيون والبريطانيون يشعرون بالقلق بوجه خاص لما يعتقدون أنه حركة بطيئة للأحداث نحو ما يعتبرونه الحل السليم ، والذى من الواضح أنه يعنى إعادة سيطرتهم على القناة . وكان مصدر هام لهذا الشعور قائما من وجهة نظرهم على قلق مبرر

يشعرون به بسبب تغير موقف دالاس وحكومة الولايات المتحدة . وهناك مثال ربما يكون مناسبا هنا . فبينما كانت المباحثات الخاصة مستمرة ، كان المراسل الرئيسى لنيويورك تايمز فى لندن واسمه درومیدلتون . قد استطاع أن يصل إلى كبار رجال الحكومة وربما إلى أنتونى إيدن نفسه . وقد كتب إن دالاس الذى كان ذات يوم بطلا لرجل الشارع فى لندن وخاصة خلال « أحسن لحظات حياته » فى مؤتمر لندن الأول . قد أصبح السوط الذى يضرب الشعور القومى بالإحباط حول أزمة السويس وبؤرة العداء المتصاعد لأمريكا . وقد استشهد بملاحظة أحد كبار المسئولين فى الحكومة على خطاب دالاس : كان خطابا مفيدا ولاشك . ولكن كيف نتأكد على أساس التصرفات السابقة . أن مستر دالاس لن يغير موقفه بين ليلة وأخرى ؟ وقد قدر ميدلتون أن الشعور المعادى لأمريكا ـ ويعتقد البعض أن هذا الشعور تشترك فيه كل الطبقات والأحزاب فى المملكة المتحدة ـ كان ٨٠ فى المائة منه قائم على عدم الثقة فى مستر دالاس . وقد بذل إيدن . واستمر فى بذل كل ما فى وسعه لتهدئة السخط ضد دالاس والولايات المتحدة خوفا من أن يصاب التحالف مع أمريكا بضرر . وقد اشتكت الديلى تلجراف وهى صحيفة محافظة وموالية لأمريكا . من أن دالاس قد أدى بحلفائه حتى الآن إلى توقع تأييد أكبر مما يستطيع أن يقدمه أو يرغب فى إعطائه ... وقد تهربت الإدارة الأمريكية من مخاطر متصلة بولائها لحلفائها وزعامتها للغرب .

وقد قيل فيما بعد إنه عندما حل ١٠ أكتوبر كانت الحالة النفسية للحلفاء قد أصبحت سيئة وانقسموا على أنفسهم حتى أن دالاس طلب من رئيس الجمهورية أن يتناول الموضوع فى مؤتمره الصحفى فى ١١ أكتوبر . وكان رد الفعل الذى أبداه رئيس الجمهورية فى هذه المناسبة حزينا جدا ومتعلقا بأنباء عدم الرضاء فى بريطانيا عن السياسة الأمريكية . فقد قال إنه فى ذلك الصباح استفهم من دالاس عن هذا ، وسأله : هل وصله إخطار من أى شخص مسئول فى بريطانيا تقابل معه عن أنهم غير راضين عن موقفنا فى هذا الأمر . أو

أنهم يعتقدون أننا تذبذبنا وأننا لانستمر فيما بدأناه . فأجاب بالنفى ، وأنا أيضا أجيب بالنفى .

وكانت التقديرات المختلفة الخاصة بالمباحثات بين وزراء الخارجية الثلاثة ، بحضور همرشولد ، تميل فى معظمها إلى التعليق على النتيجة التى أدت إليها ، وكذلك إلى المناقشة التالية التى تمت فى مجلس الأمن .

وفى ١٣ أكتوبر عندما اجتمع المجلس لبحث نتيجة المباحثات الخاصة ، كان معروضا عليه مشروع القرار البريطانى . وطبقا لمشروع القرار هذا ، فإن أية تسوية لمسألة السويس كان لابد أن تتوفر فيها المتطلبات التالية :

١ ــ لابد أن يكون هناك مرور حر ومفتوح فى القناة بدون أى تمييز واضح أو مستتر ــ ويشمل هذا الجوانب السياسية والفنية .

٢ ــ يجب احترام سيادة مصر .

٣ ــ إدارة القناة يجب أن تعزل عن سياسات أية دولة .

٤ ــ إن طريقة تحديد الرسوم والضرائب يجب أن تقررها اتفاقية بين مصر والمستخدمين للقناة .

٥ ــ إن جزءا كافيا من الرسوم يجب أن يخصص للتحسين .

٦ ــ فى حالة المنازعات فإن المسائل غير المحسومة بين شركة قناة السويس والحكومة المصرية يجب أن تسوى بالتحكيم فى نطاق صلاحية مناسبة وشروط مناسبة لدفع المبالغ التى يثبت أنها مستحقة .

والمبدأ الثالث الذى نص على عزل القناة عن سياسة أى دولة قد رفضته مصر منذ مؤتمر لندن والبعثة التى رأسها منزيس والتى زارت القاهرة حاملة اقتراحات المؤتمر . وكان تعليقى فى المجلس أساسا هو أن مقترحات مصر للتفاوض على أساسها هى الطريقة المنطقية والعملية التى يمكن بها معالجة مسألة قناة السويس والتى يمكن بها عزل قناة السويس نفسها عن السياسة ، بينما المدخل

المقترح وخاصة فى الجزء الثانى من مشروع القرار المشترك ، واعتبار مقترحات الدول الثمانية عشر وجمعية المنتفعين بالقناة كأساس سيؤدى إلى العكس تماما ويقذف بالقناة بعنف فى خضم السياسة ، ليس سياسة دولة واحدة ولكن سياسات عدد كبير من الدول .

وعند التصويت ، التمس البعض فصل الجزء الأول عن الجزء الثانى وتم التصويت على كل منهما بشكل منفصل . وقد تمت الموافقة بالإجماع على الجزء الأول . ولم نطلب من أصدقائنا الأعضاء فى المجلس أن يصوتوا ضد هذا الجزء بالرغم من أننا أعربنا عن آرائنا المتشددة ضد المفهوم الأوربى بعزل القناة عن السياسة . وقد اتخذنا هذا الموقف لأسباب تكتيكية وعامة ، أخذا فى الاعتبار أننا جعلنا وجهة نظرنا بالنسبة للعزل مفهومة بوضوح . وقد اعترضنا تماما على الجزء الثانى من مشروع القرار ، وقد استخدم الاتحاد السوفيتى الفيتو ضده . لقد كان تعبيرا فى عبارات براقة عن المحاولة العنيدة للدول الغربية لاستعادة سيطرتها على القناة ، وهو أمر كان من الطبيعى أن يستنكره الاتحاد السوفيتى ويرفضه .

وهناك واقعة استمدت أهمية مضاعفة بعد أن رفض المجلس الجزء الثانى من مشروع هذا القرار وقد أشار إليها سلويد لويد الذى قال فى كتابه السويس ١٩٥٦ : قال بينو : إنه يعتقد أن الوقت حان لتقديم مجموعة أسئلة لفوزى . فقد قدمت الدول الثمانية عشر مبادئ وأسلوب لتنفيذها . فما هى المقترحات المصرية ؟ لقد قال فوزى . إنه ليس مدعى عليه فى قفص الاتهام ورفض الأسئلة .

وقد نص الجزء الثانى هذا على أن مقترحات الدول الثمانية عشر ، بما فيها الإدارة الدولية ، تتمشى مع الاحتياجات الستة . فهى قد دعت بريطانيا وفرنسا ومصر للدخول فى مفاوضات وطلبت من مصر أن تقدم مقترحات بديلة لمواجهة الاحتياجات على ضوء رفضها لمقترحات الدول المنتفعة بالقناة .

وكان كل شخص يعرف أن هناك احتمال أن يستخدم شيلوف الفيتو ضد هذا

الجزء من القرار عندما يعرض على المجلس وقد اطلعت على فيلم تسجيلى ١٩٧٨ عن أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ عرضه التليفزيون البريطانى . وكان تعليق باختصار كما يلى :

إنه أساسا عمل رائع . ومع هذا فإن رائع لاتعنى بالضرورة بأنه خال من الأخطاء . فبالإضافة إلى التشويه الواضح أنه متعمد . وإن كان مثيرا للاهتمام . فى الهجوم على شخصيات عديدة منها محمود فوزى . فقد تم تصدير الأخير وكأنه تعرض لأسئلة من وزيرين غربيين . وتم إظهاره وكأنه خلال المفاوضات وخاصة فيما يتعلق بما يسمى عزل القناة عن سياسات أى دولة قد رد بالإيجاب على السؤال الخاص بهل تسمح مصر ـ كجزء من حل الأزمة ـ بمرور السفن الإسرائيلية فى قناة السويس . وهذه الرواية لم تظهر فى أى سجل يعتمد عليه أو أى كتاب يعالج الموضوع . كما أنها أى طرف له مصلحة لم يترها . بل إنها تتعارض تماما مع الحقائق حتى كما ذكرها سلوين لويد وكريستيان بينو فى كتابيهما . والحقيقة أنه لم تقدم أسئلة لفوزى لأنه رفض ذلك .

ولو كانت المزاعم المتعلقة بالأسئلة ومرور السفن الإسرائيلية . صحيحة . فإن السيدين البارزين : لويد وبينو . كانا هما وآخرون قد انتهزو الفرصة وسجلوا ذلك .

والحقيقة أن موقف مصر من هذا الأمر . ومن المسألة كلها . هو أن إسرائيل لا يجب أن تحصل على أى ميزة نتيجة عدوانها .

إن هذا الموقف حصل ـ كأمر يتعلق بالمبادأة ـ على تأييد داج همرشولد ـ وأغلبية ساحقة ، بل حصل على شبه إجماع الدول أعضاء فى الأمم المتحدة . ومنها حلفاء على صلة وثيقة بالولايات المتحدة . وكذلك تأييد الرأى العام العالمى فى الواقع .

وبناء على ماتقدم . ولإلقاء مزيد من الضوء على هذا الموضوع فإن مصر لم

توافق على مرور السفن الإسرائيلية فى قناة السويس إلا بناء على اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٨ .

وقد تمت الإشارة ـ للإنصاف ـ إلى أن بعض الزعماء فى واشنطن بعد أن واجهوا النقد من مؤيدى إسرائيل لتعاونهم مع همرشولد الذى كان يبدوا أنه يميل ناحية العرب . أجابوا بأنه « إذا كان على حق فلماذا لا نتفق معه » .

ومع هذا . كان هناك شعور بالتفاؤل لدى الكثيرين بعد أن تبنى مجلس الأمن قراره فى ١٣ أكتوبر . وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة . فإن الذين كانوا على صلة بالأحداث المتصلة بالموضوع . بما فيهم داج همرشولد وحتى جورج بيكو كانوا يتوقعون أن يعقد اجتماع فى جنيف فى نهاية أكتوبر بين وزراء خارجية فرنسا والمملكة المتحدة ومصر للتفاوض فى حضور همرشولد حول تنفيذ قرار المجلس .

وعن هذا كتب هيو توماس فى كتابه إنه يبدو أن الحكومة البريطانية قد نصحتها الخدمة السرية بتجاهل أى شيء وافق عليه فوزى على أساس أنه كان صديقا حميما لهمرشولد .

ومع هذا . فلم تمض أكثر من ستة عشر يوما على قرار المجلس . عندما وقع الهجوم الثلاثى على مصر

وكان هناك تبرير ـ ضمن تبريرات كثيرة ـ للعدوان المبيت على مصر . وهو أن مصر لم تقدم حتى أواخر أكتوبر أية مقترحات محددة لحل المسألة المعلقة الخاصة بتنفيذ قرار مجلس الأمن فى ١٣ أكتوبر . وكان الرد المصرى على هذا ـ سواء الرسمى أو من خلال وسائل الإعلام . وهو أنه لم تجر العادة على أن يصر البريطانيون على مزيد من المقترحات المحددة قبل استئناف المباحثات . وأن حكومة مصر كانت تعتقد أن المذكرات الإيضاحية التى تبادلها الطرفان خلال المحادثات فى نيويورك لابد أن تكون كافية لإجماع الأطراف لإجراء مزيد من المناقشات التى تؤدى إلى المفاوضات .

وفى ١٣ أكتوبر . وفى اجتماع للمجلس صرح سلويد لويد أن المناقشات الخاصة تمثل بداية نحو التوصل إلى أساس للمفاوضات ولكن لم تتخذ خطوة كبيرة فى هذا السبيل بالرغم من أن المباحثات لم تكن سلبية تماما . فالمشكلات الصعبة لا تزال موجودة وتحتاج إلى حلول عاجلة . وأضاف أن الاحتياج الثالث من المبادئ الستة . وهو عزل القناة عن سياسة أية دولة كان لب الموضوع . فإذا كانت حكومة مصر لاتزال ترفض مقترحات الدول الثمانية عشر فعليها أن تظهر كيف يمكن استيفاء هذه الاحتياجات الأساسية .

وبهذا حاول أن يلقى المسئولية الدولية على عبد الناصر : حتى الآن . وبالرغم من كل المباحثات . فإن مصر لم تقدم شيئا محددا . وقد كانت الحكومة البريطانية تأمل ــ وهى راغبة فى المصالحة ــ أن يتم إحراز تقدم بالتصويت على قرارها والذى يتضمن المبادئ الستة وأسلوب تنفيذها . فى مواجهة موقف أغضبنا ومازل يغضبنا .

وقد سار خطاب بينو على نفس منوال خطاب لويد وأيده ولكنه كان أكثر تصميما على أنه لايوجد تقدم فمن الواضح أننا مازلنا أبعد ما نكون عن أن نتفق حول بعض النقاط . وبعد الكلمتين التى أعقبتها كلمتا مصر والاتحاد السوفيتى . اعتلى دالاس المنبر وألقى كلمة ليست غريبة عليه ولكنها تستحق الاهتمام .

فعلى النقيض الواضح من كلمة لويد . وعلى نقيض أكبر مع كلمة بينو . أعرب دالاس عن سروره لما تم إحرازه من تقدم فى المباحثات . وليس من المتوقع التوصل إلى حل فى الحال . ولكن تم اجتياز مرحلة هامة بالاتفاق على المبادئ وهى واقعية ومحددة . وهذا الاتفاق سيسمح فى المستقبل أن يحكم هذا المجلس والعالم على مقترحات الأطراف المعنية وسلوكها . وأضاف أن هذه هى المبادئ العادلة والتى تنبأ بأنها مبادئ صحيحة .

وقد سارع دالاس بالإعلان فى المجلس بأن همرشولد يجب أن يشجع تبادل الآراء بين حكومتى مصر وفرنسا والمملكة المتحدة . ورد همرشولد على ذلك بأن

القرار يقدم نقطة بداية ثمينة وأن جهوده فى المساعدة ستسير على الخطوط التى أشار إليها دالاس .

ولم يكن دالاس وهمرشولد وحدهما اللذان كانا يعتقدان بأنهما يسيران على الطريق المؤدى إلى تسوية بالمفاوضات بالرغم من الفيتو السوفيتى . فقد أدلى وزير الخارجية الفرنسى بينو . رئيس مجلس الأمن . بتصريح مناقض لتصريح سابق له : ... لقد استطعنا أن نحقق نتائج . وهى ليست كاملة . ومع هذا فإنها إيجابية ... وفى جلسة نهائية للدبلوماسيين الغربيين . كان دالاس حاسما فى تقريره إنهم قد وصلوا وقتئذ إلى أساس للمفاوضات . وقد قيل بوجه عام أن بينو ولويد وافقا وعاد لويد إلى لندن وهو راض عن المبادئ الستة ومتوقع أن يقابل فوزى فى جنيف فى نهاية شهر أكتوبر لإجراء مزيد من المناقشات بحضور همرشولد

وعقد همرشولد مزيدا من المباحثات مع فوزى فى نيويورك أقنعته بأنه من الممكن التوصل إلى حل مرض لنزاع قناة السويس . وكما هو واضح مما تقدم . كانت هناك بعض المناقشات والتعليقات المختلفة عما إذا كانت المباحثات الخاصة لوزراء الخارجية الثلاثة . بحضور همرشولد . قد فتحت الطريق إلى مزيد من المفاوضات التى تبعث على الأمل . وهل تبنى مجلس الأمن لقراره فى **١٣** أكتوبر يدعم هذا الرأى والحقيقة كان هناك تأكيد وتفاهم على أن وزراء الخارجية الثلاثة سيتقابلون فى جنيف فى **٢٩** أكتوبر . وعندما مررت مع بعض الزملاء المصريين على جنيف فى طريقنا إلى القاهرة . حجزنا تحت أسماء مستعارة غرفا لقضاء هذا اليوم فى فندق فى جنيف . ويشير سلوين لويد فى كتابه : « السويس عام **١٩٥٦** » إلى الموضوع بقوله : لقد سبق أن أشرت إلى الادعاء بأننى توصلت إلى اتفاق مع همرشولد وفوزى على تسوية مشكلة القناة قبل أن أغادر إلى نيويورك إن هذا مجرد هراء . لقد سبق أن وصفت كيف أن فوزى أوقف المناقشة مع همرشولد ورجع عن الموقف الذى اتخذه فى المباحثات الخاصة .

ومن الواضح أن لويد لم يحدد المواقف التى اتخذتها فى المباحثات الخاصة التى

يدعى . خطأ . أننى رجعت عنها فيما بعد . وبالإضافة إلى ذلك . فإن مصر لم تزعم فى أى وقت وبأية طريقة أنه كاد يتوصل إلى اتفاق مع همرشولد ومعى على تسوية مشكلة القناة . بالرغم من أننا وكثيرين غيرنا شعرنا بما لايدع مجالا للشك أن لويد فور عودته من لندن أظهر تفاؤلا أكبر مما أظهره بينو .

وفى الخطاب الذى أرسله همرشولد إلى فوزى فى ٢٤ أكتوبر والذى تم الاستشهاد به مرارا كدليل على أن هناك اتفاقا فى الأفق . حدد الموقف كالآتى : إذا كانت قد فسرت روح المناقشات ومادار فيها بشكل صحيح . ولو لم يكن هناك اعتراض من ناحية المبدأ ــ قد تم مسبقا ضد الترتيبات كما وضعت عاليه . فإننى من وجهة نظر قانونية وفنية . ودون أن أثير هنا الاعتبارات السياسية التى تدخلت . كنت اعتبرت أن الإطار كان واسعا بمافيه الكفاية ــ بحيث يكون إجراء استطلاعات للتوصل إلى أساس محتمل للمفاوضات على أساس الخط الموضح . أمر يستحق المحاولة .

وقال لويد : إنه من الصعب أن نتخيل أن هناك شيئا أكثر عمومية من هذا . ولو كان ناصر قرأه لكان هنأ فوزى على هذا الدليل الملموس على نجاح تكتيكاته .

وكتب جوريف ب . لاش فى كتابه « داج همرشولد » : فى لندن توصل إيدن إلى نتائج عكسية من محاضر المجلس . إن الجزء من القرار الذى تعرض للفيتو كان المهم . ولم يكن هناك داع للذهاب إلى جنيف للتوصل إلى اتفاق يبدو وكأنه معقول ولم يكن يفهم كيف أن الأمم المتحدة ، التى قامت من أجل إرساء نظام دولى . يمكن أن تمثل فى استنكار أو الإعراب عن أسفها من الاستيلاء على ممر مائى دولى عظيم بالقوة

والحكاية مثيرة للاهتمام عن اجتماع تم فى جناح دالاس فى فندق والدوروف استوريا بعد جلسة مجلس الأمن فى ١٣ وحضره دالاس وبينو ولويد . وكانت أهم النقاط هى : قال دالاس إنه فى غاية السعادة لأن روسيا استخدمت الفيتو

فقط على الجزء التنفيذى من القرار وليس على المبادئ الستة . وأجاب سلوين لويد . خلال الحوار ، بأن الغرب قد خرج من المناقشة حقا بنصر فيما يتعلق بالنقاط الست . وهنأ دالاس على تكتيكاته التى أسهمت فى التوصل إلى هذه النتيجة .

وكان دالاس مدركا أن موقف فرنسا أكثر غضبا من موقف بريطانيا . على الأقل فوق السطح . أشار بأصبعه لبينو كما لو كان يعرف شيئا وقال محذرا : إنى أعرف أنك تعتقد أنك لو استخدمت القوة بعد انتخابات الرئاسة فإننا لن نتخذ أى إجراء . ولكن دعنى أقول لك : إننا سنفعل .

وحتى نبين أكثر من ذلك كيف كان الموقف منذرا بالسوء . يمكن أن نذكر بعض الأمثلة :

فقد أبلغ إيدن فوستر بأنه لم يكن يشعر بأن من الممكن التوصل إلى حل سلمى لأزمة السويس . وأن اللغة الوحيدة التى يفهمها ناصر هى القوة . ولقد بدأ البريطانيون والفرنسيون بالفعل الاستعدادات لاسترجاع ما يمتلكونه . وكان رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية المقيم فى لندن يحاول أن يكتشف حقيقة هذه الاستعدادات . فهل كان يجب على إيدن أن يخبره ــ أم كان عليه أن يخبر فوستر ؟ أجاب فوستر أنه لم يكن يريد أن يعرف . ولكن إيدن استمر قائلا : هل يوافق فوستر على أن ما كانوا يفعلونه كان صوابا ؟ فقال فوستر : إنه يفهم جيدا وجهة النظر الإنجليزية ــ الفرنسية . عندئذ قال رئيس الوزراء : إنه لا الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسية ستطلب أى مساعدة عسكرية من الولايات المتحدة عندما تتخذان خطوات لاستعادة الموقف فى مصر . ولكن هل يمكنهما الاعتماد على التأييد المعنوى للأمريكيين ؟ أجاب فوستر أن الحكومة البريطانية يمكنها أن تعتمد دائما على التأييد المعنوى والتعاطف من الولايات المتحدة . وأنه لاداعى لأن يشعر أنتونى ــ وكان فوستر يخاطبه دائما بأنتونى ــ بأى تخوف بهذا الشأن . فقال إيدن : إنه يعتقد أن الموقف سيتطور فى وقت ما فى أكتوبر ــ

عندئذ قاطعة فوستر . وأبلغه بحزم أنه لايريد أن يعرف أى شىء عن الخطط الإنجليزية ـ الفرنسية . وأن هذه الطريقة هى الأفضل .

وقال إيدن فيما بعد : ولهذا . كان من الطبيعى أن أحدا لم يهتم اهتماما كبيرا بإبلاغه . رسميا أو غير ذلك . عندما حان الوقت

وأضاف : ربما كانت هذه غلطة . وربما كان من الأفضل لو بعثنا برسالة إلى آيك (إيزنهاور) قبل أن نطلق البالون . وأنا أتحمل اللوم على ذلك . كان يجب أن أعتمد على الإدراك السليم والتأييد من صديق القديم أيك . ولكنى اعتقدت أنه علم بمحادثتى مع وزير خارجيته . وقد ضللنى فوستر .

هل أبلغ فوستر رئيس الجمهورية حقا عن حديثه مع رئيس الوزراء ؟ إنه من المثير أن نعرف . لأنه فيما بعد كان أحد الأسباب الرئيسية التى ذكرها أصدقاء إيزنهاور لغضبه من حليفيه البريطانيين والفرنسيين هو أنهم لم يبلغوه بما كانوا على وشك أن يفعلوه ومتى .

وقد التمس لويد ـ عبثا ـ من دالاس أن يسرع فى بث النشاط فى جمعية المنتفعين ، والأهم أن يجعل السفن التى يمتلكها أمريكيون تمتنع عن دفع الرسوم لمصر .

ومع هذا ، كان أحد التعليقات المعقولة هى أن الأمر لم يكن مفاجأة تماما بالنسبة لرئيس الجمهورية ودالاس عندما وقع الغزو . فقد أغلق الفرنسيون والإسرائيليون فمهم ، وكذلك فعل رئيس الوزراء إيدن ومعظم أعضاء حكومته ، ولكن عمليا كان كل جنرال أو أميرال أو مارشال جو فى القوات المسلحة البريطانية يبلغ رؤساء الأركان الأمريكيين عن كل تحرك يقومون به .

ومن جهة أخرى ، كانت انتخابات الرئاسة قد بدأت فى الولايات المتحدة ، وكان يبدو أن مستشارى دوايت إيزنهاور وكان فوستر دالاس من بينهم ـ يرون أنه مما يعوق بشكل جاد فرصة هزيمة المرشح الديموقراطى ادلاى

ستيفنسون ، أن يكون مطلعا على المؤامرات التى يشترك فيها حلفاؤه البريطانيون والفرنسيون . وأن يبدو أنه أعطاهم موافقته الضمنية .

والحقيقة أنه لم يكن هناك احتمال لأن يخسر إيزنهاور الانتخابات . فقد كان الشعب الأمريكى يؤمن بإخلاصه كرئيس للجمهورية ، والأهم هذا ، أنهم كانوا يحترمون حسن تقديره كقائد عسكرى . ولم يكن هناك حاجة به إلى أن يخفى شيئا . كان بمقدوره أن يتحدث مؤيدا أو معارضا ، حالما يعرف أنه ستشن حرب فى الشرق الأوسط ، وكان الناخبون سيعطونه صوتهم بالموافقة الكاملة . ولهذا قال البعض إن سخطه فيما بعد كان مجرد نفاق .

وكان سلوين لويد يعرف إلى أى مدى ذهب الفرنسيون مع إسرائيل . أما عن الجو العام والعناصر المحيطة بالاجتماعات بين الوزراء الغربيين الثلاثة ، فيمكن القول بحق بأن الإرباك وقدر غير قليل من القلق كان يتخللها ويعوق القيام بالعمل المنتج بروح الفريق . ولم يجد دالاس أن لويد دافىء القلب أو يدعو للثقة . وأما بينو ولويد فقد شعرا بالنفور من اتجاه دالاس إلى الابتعاد عن الولاء للحلفاء ، فضلا عن شخصيته المثيرة للجدل والخلاف . وقد صرح دالاس لصحفى ذات مرة بقوله : إن كل ما يفعله بينو هو أن يجلس هناك ويقول لاجدوى من أى شىء يثار .

وقد انتشر التعليق أيضا بشأن ما عرف عن « لاءات » دالاس : « لا » رسوم تسحب من مصر . « لا » مقاطعة « لا » ضغط اقتصادى على عبد الناصر . « لا » خطر على السماح للأمريكيين للعمل كمرشدين للقناة وعندما أشار بعض الكتاب ومنهم ارسكين شايلدز وراندولف تشرشل إلى أن إيزنهاور بعث إلى إيدن بخطاب فى ١٦ أكتوبر يقول فيه : إن يديه مقيدتان حتى يوم الانتخابات ، ووعد بتعاون قوى لتسوية مسألة القناة ، كان التعليق الأمريكى الرسمى هو : أن الروايات من هذا النوع تروى فى أى وقت ، وأبدوا استياءهم من الإيحاء بأنه كان يستطيع أن يفعل ذلك .

كما أن هذا لايتمشى مع إعادة دالاس فى مؤتمره الصحفى فى ١٦ أكتوبر ، وهو اليوم التالى لمقابلته لإيدن . تأكيد الإعلان الثلاثى الذى يقضى بأنه فى نطاق الحدود الدستورية فإن الولايات المتحدة ستساعد أى ضحية للعدوان سواء كان عربيا أو إسرائيليا .

وقبل اجتماع دالاس ـ إيدن فى ١٥ أكتوبر طلب إيزنهاور من دالاس تحذير إيدن : كنت آمل ألا يسمح بأى سوء تفسير للمشاعر فى الولايات المتحدة بأن يضلله . وبشكل خاص بسبب التعاطف اليهودى المحتمل لما يبدو أنه النية فى الإقدام على تعبئة لإسرائيل فى هذا الوقت . كنت آمل ألا يسمح لذلك بأن يؤثر على حكمه بما ستقوم به هذه الإدارة الأمريكية من بذل كل ما فى وسعها لمنع أى نشوب للأعمال العدائية . وتسوية المسائل الدولية بالقوة . وقلت له إنه إذا كان يظن أن ذلك سيكون له ذرة من التأثير على انتخابات الرئاسة الأمريكية أو أى تأثير علىّ . فإنه يخدع نفسه . وفى حديثه مع دالاس مرة أخرى قبل اجتماعات دالاس إيدن ـ طلب إيزنهاور بحزم : فوستر ، لا تخفف من وقع كلماتى .

ومع هذا ، ففى برنامج تليفزيونى فى ٢٤ أكتوبر . وكجزء من حملة إعادة الانتخابات ، كان إيزنهاور ممزقا بين إخلاصه وهو يرى أنه لا أحد يمكن أن يتحدى الحق القانونى لمصر فى تأميم القناة ، والاعتبارات العملية للانتخابات التى جعلته يضيف قائلا : لاشك أن الأمر لم يكن يتعلق بنقطة الهيبة القومية فقط بل وبنقطة الهيبة الشخصية .

« إذن ، فقد حصلت على هذا الممر المائى العظيم الذى يعتمد عليه قدر كبير من اقتصاد العالم ، وخاصة كل الدول البحرية . حسنا . والآن عندما ترى كل هذه الدول أن الممر المائى يواجه نوعا من التهديد ، وأن اقتصادهم مهدد . مما يعنى كنسادا من نوع ما بالنسبة لهم ، فإنهم يشعرون بالتوتر . إننا لسنا متورطين مثل معظم الدول . ولكن مازلت أعتقد أن لنا اثنين ونصف فى المائة . ولهذا

فالأمر فى غاية التعقيد . وأؤكد لك . إنك تستطيع أن تتحدث عن هذا طوال بعد الظهر » .

وعندما ذهبت حكومة الولايات المتحدة فى ٢٩ أكتوبر . بعد قيام إسرائيل بالأعمال العدائية . وعرضت الموقف الخاص بالشرق الأوسط على الأمم المتحدة . فإنها فعلت ذلك على أساس الإعلان الثلاثى عام ١٩٥٠ . ولكن كما قال لودج السفير الأمريكى فى الأمم المتحدة فيما بعد فإن الإعلان الثلاثى قد فقد قيمته ولم تعد له صلاحية حاليا .

وبالتوازن مع ذلك فعلى الجانب الآخر من الأطلنطى كان لويد يحاول بنجاح إقناع أولدريتش بألاتوصف إسرائيل بأنها معتدية . وأنه بدلا من ذلك فإن مناشدة الولايات المتحدة لمجلس الأمن يجب أن تقوم على أساس خرق اتفاقيات الهدنة . وكان كريستيان بينو قد صرح للصحفيين فى ٢٦ أكتوبر بأن الأمر سيستغرق وقتا طويلا للحصول على نتائج من الجهود المبذولة من أجل قيام همرشولد بمفاوضات . لأن ناصر رفض رأى وزير خارجيته دكتور فوزى عندما اقترح الأخير أن تتعاون مصر مع جمعية المنتفعين بقناة السويس .

وهذا يختلف عن رواية هيكل وهى أكثر دقة عندما قال فى كتابه « قصة السويس » إن جمال عبد الناصر أبلغ فوزى فى القاهرة بأنه يستطيع أن يتحرك سياسيا كما يريد بشرط واحد وهو ألا تكون هناك إدارة دولية لقناة السويس . وأنه إذا أصرت الدول الغربية على إقامة جمعية المنتفعين بقناة السويس . فمثل هذه الجمعية يجب أن تكون مجرد جمعية استشارية تعبر عن آرائها لهيئة قناة السويس بطريقة غير ملزمة ولاتقيدها بشىء . وفى الوقت نفسه فإن الهجوم الثلاثى ضد مصر كان قد تقرر بسرية على قدر الإمكان .

وحالما أدركت واشنطون خطورة التعبئة الإسرائيلية . وجهت واشنطون على عجل تعليمات إلى السفير وينثروب أولدريتش السفير الأمريكى بلندن . ليكتشف فى لندن ما يحدث فى الشرق الأوسط . وقد رتب عشاء مع سلوين لويد مساء

الأحد ٢٨ أكتوبر . وقد حضر كل منهما ومعه مستشاره السياسى . وسأل أولدريتش لويد عن رأى بريطانيا فى مغزى التعبئة فى إسرائيل . وأجاب لويد أنه لا يعرف . وأن البريطانيين فى ظلام بالنسبة لذلك ، وأن الحكومة البريطانية قد حذرت الإسرائيليين بعدم الهجوم على الأردن. يسأله أولدريتش: هل يمكن أن أسألك بالتحديد هل إسرائيل ستهاجم مصر؟ فأجاب سلوين لويد على هذا السؤال بقوله : ليس لدى أية معلومات على الإطلاق . وفيما بعد وكانت حملة السويس وسيناء قد وصلت إلى منتهاها . قام شاهد من وزارة الخارجية البريطانية برفع يديه وعينيه إلى السماء من الجهل المزعوم لسلوين لويد . والحقيقة أن بريطانيا كانت قد بدأت بالفعل فى نقل ٥٠٠٠ جندى جوا إلى قبرص فى ١٢ أغسطس . وكانت ليبيا والأردن . بالرغم من أنهما كانا من حلفاء بريطانيا بمعاهدة ، قد تسببا فى تأخير رحلتين جويتين لنقل الجنود وذلك برفض التعاون فى حشد القوات فى الشرق الأوسط . وفى مرحلة تالية بدأ السوريون يتحدثون عن وقف ضخ البترول فى أنابيب البترول الضخمة إذا هوجمت مصر . وقد وفوا بهذا الوعد فى نوفمبر .

وقد أكد الكثيرون أن الحكومة البريطانية لم تبلغ إيدن فى الحال بغزو إسرائيل لمصر . وقد علم أولا من رونترى خلال اجتماعه معه فى وزارة الخارجية الأمريكية وكان هناك تعليق بأن هذا ليس أمرا غير عادى فى كثير من مواقف السياسة الخارجية .

وقد حذر إيزنهاور إيدن مرة أخرى ضد استخدام القوة وحثه على أن يتخذ السبيل غير الدرامى المتمثل فى منظمة للمنتفعين بقناة السويس التى فكر فيها دالاس فى عطلة يوم العمال فى نهاية الأسبوع فى منتجعه بداك ايلاند على بحيرة اونتاريو

وفى ٢٨ أكتوبر وبعد أن تلقى إيزنهاور معلومات مزعجه من السفير الأمريكى فى تل أبيب ادوارد ب . لوسون ، عن التعبئة الإسرائيلية الشاملة ، بعث برساله

إلى بن جوريون يقول فيها : إننى أحدد المشروع السابق لدالاس وهو عدم اتخاذ خطوات عنيفة تهدد السلام فى الشرق الأوسط . وهذه الرسالة أرسلت أيضا إلى كل من لندن وباريس

ومنذ تأميم مصر للقناة ، وكثيرون يعالجون الأمر وكأنهم يسمعون دمدمة بركان على وشك أن يثور

وقد حدث الثوران الحقيقى عندما شنت إسرائيل هجومها على مصر فى ٢٩ أكتوبر ، وبهذا نشطت من دورها المعين فى المؤامرة الإسرائيلية الفرنسية البريطانية . ودوى الانفجار ليسمعه العالم كله . وهدد الحمم بالانتشار طولا وعرضا . وعندما بدأت المملكة المتحدة وفرنسا فى الاشتراك بتأدية دورهما المعين ، ابتدأ من انذارهما الذى أصبح شهيرا الآن ، بدأ الدوى يصم الآذان فى واشنطون . وصرخ دالاس وكأنه على وشك أن يصاب بالسكتة القلبية : كيف يمكنهم أن يفاجئونى بهذا العمل هكذا ، بينما كنت أعمل معهم كل هذه الأسابيع ؟ لقد كان يبدو أنهم يقبلون قيادتى طول الوقت . لماذا يفاجئوننى فى الوقت الذى سيحل فيه يوم الانتخابات ؟ لماذا يعطون الروس غطاء لجرائمهم فى المجر ؟

وفور هجوم إسرائيل على مصر ، وجهت الحكومتان البريطانية والفرنسية إنذارا إلى حكومتى مصر وإسرائيل هذا نصه : « إن حكومتى المملكة المتحدة وفرنسا قد أحيطتا علما بنشوب الأعمال العدائية بين إسرائيل ومصر . وهذا الحدث يهدد بإعاقة حرية الملاحة فى قناة السويس التى تعتمد عليها الحياة الاقتصادية لكثير من الدول . إن حكومتى المملكة المتحدة وفرنسا مصممتان على بذل كل ما فى وسعهما لوقف الأعمال العدائية فى أقرب فرصة وضمان حرية الملاحة فى القناة . وبناء عليه فإنهما يطلبان من حكومة مصر :

أ ـ وقف كل الأعمال الحربية على البر والبحر والجو فورا .

ب ـ سحب كل القوات المصرية إلى مسافة عشرة أميال من القناة .

جـ ـ حتى يمكن ضمان حرية مرور سفن جميع الدول فى القناة وحتى يمكن فصل القوات المتحاربة على الحكومة المصرية أن تقبل الاحتلال المؤقت بواسطة القوات البريطانية والفرنسية لمواقع رئيسية فى بورسعيد والاسماعيلية والسويس .

وتطلب حكومتا المملكة المتحدة وفرنسا ردا على هذه المكاتبة خلال أربع وعشرين ساعة . وإذا انتهى هذا الوقت قبل أن تتعهد أحد الحكومتين أو كلاهما بتنفيذه هذه المتطلبات ، فإن قوات المملكة المتحدة وفرنسا ستتدخل بأية قوات ضرورية لضمان التنفيذ » .

وقال السفير الأمريكى أولدريتش لمتحدثيه فى لندن . بعد أن قرأ نص الإنذار البريطانى الفرنسى ، كيف يمكن أن تتوقعوا قبول مصر لهذا الإنذار .

وبعد الهجوم الإسرائيلى مباشرة . كتب السفير الأمريكى فى الأمم المتحدة هنرى كابوت لودج خطابا إلى رئيس مجلس الأمن الذى تصادف أن كان فرنسيا وهو كورنو جانتى طالبا منه عقد مجلس الأمن فى أقرب فرصة لبحث المسألة الفلسطينية : خطوات للوقف الفورى للعمل العسكرى لإسرائيل فى مصر .

وكأول رد فعل للهجوم الإسرائيلى على مصر قال لودج أن حكومة صاحبة الجلالة لابد أن تتهم إسرائيل بأنها معتدية على مصر . ثم عدل من موقفه . بما يتمشى مع الإنذار البريطانى الفرنسى لإسرائيل ومصر الذى أطلق عليه تلطيفا لفظ التماس .

وكان الجو فى الأطلنطى وحوله قد أصبح متوترا للغاية . وكان من أبرز النقاط :

ـ أن اجتمع مجلس الوزراء البريطانى من الساعة ١٠ر٣٠ مساء حتى ٠٢ر٠٠ صباحا فى ٢٩ ـ ٣٠ أكتوبر .

ـ أن عمل إيدن حتى الساعة ٤ صباحا .

ـ أن اجتمع مجلس الوزراء البريطانى مرة أخرى فى الساعة ١٠ صباحا فى ٣٠ أكتوبر وحتى الساعة ٤٥ ر ١٢ مساء .

ـ أن وصل موليه وبينو إلى لندن فى ٣٠ أكتوبر .

ـ أن حدث تبادل نشيط جدا للرسائل وخاصة بين إيدن وإيزنهاور .

ـ أن رسالة مبكرة من إيدن إلى إيزنهاور طلبت التأييد العام فى ٣٠ أكتوبر .

ـ أن إيدن سبق أن أرسل رسالتين إلى إيزنهاور ، الأولى فى صباح ٣٠ أكتوبر ، والثانية بعد ظهر نفس اليوم .

ـ أن إيزنهاور أرسل ردا مقتضبا على الرسالة الأولى بعد منتصف يوم ٣٠ أكتوبر .

وبالرغم من أن مشروع القرار الذى قدمته الولايات المتحدة فى ٣٠ أكتوبر لمجلس الأمن ، يشير إلى انتهاك إسرائيل لاتفاقيات الهدنة ، وأنه استجابة لرجاء بريطانى لم يذكر العدوان ،كما كانت النية من قبل ، إلا أنه تضمن أجزاء جعلت فرنسا والمملكة المتحدة تصوتان ضده ، وكانت المرة الأولى التى تستخدم فيها المملكة المتحدة قوة الفيتو ، ومن الملفت أن تستخدمه ضد الولايات المتحدة الأمريكية .

وطلبت مصر ، على لسان ممثلها عمر لطفى أن توصم إسرائيل بأنها معتدية وأن تطبق العقوبات عليها طبقا للفصل السابع من الميثاق . كما طلب أيضا طرد إسرائيل من المملكة المتحدة .

وقد تبنت المملكة المتحدة وفرنسا الاتجاه بأن العمل العسكرى الذى اتخذ ضد مصر كان بسبب الاستفزاز ، وادعتا أن المادة ٥١ من الميثاق تعترف بحق الدول فى الدفاع عن النفس .

ولكن كابوت لودج استمر فى طريقه بالنيابة عن حكومته فأصر على أن

العمل العسكرى يجب أن يتوقف وينتهى قبل أن يستأنف المجلس بحث مسألة قناة السويس .

أما الاتحاد السوفيتى ـ فى بيانه ـ فقد دمغ إسرائيل بأنها معتدية ، ولكنه لم يشأ أن يقدم تعديلا لمشروع القرار الأمريكى ، وكان من الواضح أنه يرى أن مثل هذا التعديل سيجابه بالفيتو ، أو إذا تم تبنيه ، سيؤدى إلى أن يستخدم الفيتو ضد مشروع القرار كله ، وهو ما حدث على أى حال لاعتبارات أخرى عندما صوت البريطانيون والفرنسيون معا ضد مشروع القرار .

ولهذا فإن مشروع القرار الأمريكى كان يقول : إن مجلس الأمن معربا عن قلقه الشديد من هذا الانتهاك لاتفاقية الهدنة :

١ ـ يدعو إسرائيل فورا إلى سحب قواتها المسلحة خلف خطوط الهدنة القائمة .

٢ ـ يدعو كل الأعضاء : (أ) إلى الامتناع عن استخدام القوة أو التهديد بالقوة فى المنطقة بأية طريقة لا تتمشى مع أهداف الأمم المتحدة . (ب) مساعدة الأمم المتحدة فى ضمان سلامة اتفاقيات الهدنة . (ج) الامتناع عن تقديم أية مساعدات عسكرية أو اقتصادية أو مالية إلى إسرائيل طالما لاتنفذ هذا القرار .

٣ ـ يطلب من السكرتير العام إبلاغ مجلس الأمن بتنفيذ هذا القرار واتخاذ أية توصيات يرى أنها مناسبة للمحافظة على السلام والأمن الدوليين فى المنطقة بتنفيذ هذا القرار والقرارات السابقة .

الفصل السادس

ما بعد الحرب

تحددت المتناقضات وحالة الفوضى التى صحبت العمل العسكرى الفرنسى البريطانى فى كتاب « الحقيقة حول السويس ١٩٥٦ » لجاك ماسور والذى نشر بالفرنسية فى سبتمبر ١٩٧٨ . وهو يحكى لنا ـ من بين أشياء أخرى ـ أنه بالرغم من أن فرنسا كانت صامدة وتعد للتغلغل جنوبا فى اتجاه القاهرة إلا أن تخلى الرئيس إيزنهاور ، يضاف إليه التهديد الذرى الذى وجهه المرشال بولجانين ، والذى أعقبه ، ارتداد أنتونى إيدن الذى أعلن لجى موليه بأن بريطانيا العظمى مصممة على قبول سحب قواتها من مصر . ويمكن أن يضاف إلى ذلك كتاب يدلنا على كيف أن الفوضى فى تلك الأيام تفاقمت وهو كتاب آخر حديث بعنوان : «كيف أنقذت إسرائيل : أسرار حملة السويس » لآبل توما بالفرنسية وهو يقول لنا إن البرقية التى كان من المفروض أن تصل إلى الجنرال ماسور والتى تأمره بإيجاد اتصال مع القوات الإسرائيلية قبل أن يسرى وقف إطلاق النار ، هذه البرقية ضاعت لأسباب غير معروفة .

ومع هذا ، فإن بريطانيا قبل أن تشن الحرب ، كان عليها أولا أن تمر من بين صفوف قوات الأمم المتحدة، إذا استخدمنا تعبير ناتنج المنسوب إلى لويد. وقد عاد ناتنج إلى وزارة الخارجية من اجازة مرضية فى أواخر أغسطس ليحذر إيدن ولويد من مغبة التعاون الحربى مع الحلف الفرنسى الإسرائيلى ، لأن فرنسا وإسرائيل كانتا دولتين يشعر نحوهما أصدقاء بريطانيا من العرب بالكراهية والاحتقار ، كما حثه على الذهاب إلى الأمم المتحدة إذا رفض عبد الناصر بعثة

منزيس . وكان الذهاب إلى الأمم المتحدة جوهريا للحصول على تأييد الحزبين . وقد كتب ناتنج يقول : كان رد إيدن على كل ذلك فظا . فلم يكن يهتم بتأييد جيتسكل أو معارضته . أما عن الأمم المتحدة فقد أثبتت أنها جثة هامدة . وعاد إيدن إلى فكرته بأن الحل الوسط مع عبد الناصر من خلال الأمم المتحدة لن يفيد إلا فى فتح شهيته ولابد أن أضع فى ذهنى أنه لابد من تحطيم هذا الرجل قبل أن يدمرنا جميعا . ويقول ناتنج إن لويد كان يتفق مع إيدن ، ولكن الفرنسيين اعترضوا لأن الولايات المتحدة رفضت أن تضمن أن يدع مجلس الأمن لكل من بريطانيا وفرنسا حرية استخدام القوة . وكتب ناتنج يقول إن دالاس وقف ضد عرض المسألة على الأمم المتحدة لأن الثلاثة الكبار ، الذين لا تجمعهم وحدة . سيتعرضون لتكتيكات الروس فى مجلس الأمن والتى تهدف إلى مزيد من الانقسامات بينهم .

وعن هذا كتب بيكو يقول : كان تفكيرى أبعد ما يكون عن أن يتخيل أن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية اللتين صوتتا فى صالح قرار مجلس الأمن ، يمكنهما بعد ذلك بقليل أن يقذفا به خلف ظهريهما ، حتى يستأنفا سياسة لها طابع استعمارى .

وفى الوقت نفسه ، فإن تحطيم عبد الناصر كان قد تقرر بحزم ، وكانت الحرب هى الطريقة المواتية لتحقيق ذلك . وركز إيدن والفرنسيون اهتمامها بخلق تبرير للهجوم على مصر بتزامن مع الموعد الذى تصل فيه قواتهما الغازية إلى الاستعداد للمعركة . وكان عليهما أيضا أن يسيرا فى خط استنفاد لكل الوسائل السلمية نحو تسوية للقناة ، وهى تسوية لم يكونا يريدانها لأنها تجعل من المستحيل تبرير غزوهما المدبر لمصر . ولا يوجد أى دليل مقنع أنه فى المناورات الدبلوماسية فى أغسطس وسبتمبر وأكتوبر قام إيدن أو الفرنسيين باستطلاع جاد لأى بديل سوى استخدام القوة . وبدلا من ذلك فقد أخذا يبحثان عن مبررات للحرب . وتمشيا مع هذا قيل إنه عندما استشير الجنرال ديجول عن عملية القناة ، وكان وقتها خارج

السلطة ، أنه قال : إننى أوافق على مبدأ التدخل فى السويس ، ولكنى لا أريد أن تكون هناك سيطرة بريطانية على مسار العملية . أما عن الحكومة الأمريكية ، فإننى أقول : هذا ما نريد أن نفعله ، وإذا لم توافقوا ، حسنا .

وفى نهاية اجتماع مجلس الأمن فى ٣٠ أكتوبر . قدم العضو اليوغوسلافى اقتراحا ـ بناء على مواجهة المجلس بفيتو بريطانى فرنسى ـ بأن يدعو مجلس الأمن إلى دورة طارئة للجمعية العامة بشروط قرار الاتحاد من أجل السلام فى ٣ نوفمبر ١٩٥٠ . وقد قوبل ذلك بالترحيب وخاصة من الولايات المتحدة . وأحيلت المسألة إلى الجمعية العامة لبعض الوقت . وأخذت تصدر قرارا تلو الآخر بشأن نزاع قناة السويس .

وتحدث دالاس عن مشروع قرار أمريكى جاء فيه أنه يلاحظ الانتهاكات الكثيرة لاتفاقيات الهدنة الإسرائيلية العربية . كما يلاحظ أن إسرائيل بدأت الآن تتجاهلها بما قامت به من غزو . ويلاحظ أيضا أن بريطانيا وفرنسا تقومان بعمليات حربية ضد الإقليم المصرى . وأن الملاحة فى قناة السويس توقفت . ولهذا فإنه يحث كل الأطراف المشتركة فى الأعمال العدائية ـ وكأمر له أولوية ـ بأن تتفق على وقف فورى لإطلاق النار ووقف إرسال الأسلحة والقوات العسكرية إلى المنطقة كما أنه يحث على أن تسحب الأطراف المشتركة فى اتفاقية الهدنة فورا كل القوات إلى ما خلف خطوط الهدنة . والامتناع عن القيام بغارات عبرها ، واحترام الاتفاقيات بكل دقة . واستمر القرار بأن أوصى كل الدول الأعضاء بالامتناع عن إدخال أى مهمات عسكرية إلى منطقة الأعمال العدائية والتوقف عن أية أعمال تؤخر أو تمنع تنفيذ القرار . كما حث على اتخاذ خطوات لإعادة فتح القناة واستئناف ضمان حرية الملاحة ، بعد أن يسرى وقف اطلاق النار . وطالب السكرتير العام بأن يراقب ويبلغ المجلس والجمعية العامة بتنفيذ القرار ، لاتخاذ أى إجراء آخر يكون مناسبا طبقا للميثاق . وتبقى الجمعية العامة فى جلسة طارئة لحين تنفيذ القرار .

وقد تبنى مشروع القرار ٦٤ ضد خمسة . وكانت الأقلية تتكون من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل واستراليا ونيوزيلندا . وامتنعت ست دول هى البرتغال وجنوب أفريقيا وبلجيكا وكندا ولاوس وهولندا .

وقد عارض البريطانيون والفرنسيون تنفيذ قرار الأمم المتحدة وخاصة عندما أعقب أمر وقف اطلاق النار مباشرة ضغط أمريكى لإرغامهم على سحب فورى لقواتهم من قناة السويس لقد كان إذلالا بالغا لكل من إيدن وبريطانيا العظمى . وكان رئيس الوزراء تمر به نوبات متعاقبة من الغضب والدموع ، وهو يدعو إلى الصمود وإلى التحدى . وكذلك فعل بعض جنرالاته ، وخاصة أولئك الذين كان لهم خبرة سابقة بمصر وكانوا على ثقة بأنهم يستطيعون أن يتمسكوا بمكاسبهم ، مهما وجه ضدهم .

ولكن الوقت كان ضدهم . كان إيدن قد فقد تأييد معظم مجلس وزرائه ومعظم الشعب البريطانى . واستطاع ناصر أن يغلق القناة بفاعلية بأن أغرق سفنا فيها . وتم نسف خط أنابيب البترول من السعودية إلى البحر المتوسط . وضاعت دماء الحياة لأوربا فى رمال الصحراء السورية . وبدأت معظم أوربا الغربية تعانى من نقص خطير فى البترول .

وأضاف جورج همفرى وزير الخزانة الأمريكى اللمسة الأخيرة . فقد طلب البريطانيون قرضا للتغلب على انخفاض الجنيه الذى بدأ عندما بدأت الولايات المتحدة تعترض على العملية .

وفى أول نوفمبر عقد اجتماع بين دالاس وايدن .

وأبلغ إيدن دالاس أنه تلقى لتوه مكالمة تليفونية من القدس : « لقد أحرزنا نصرا كاملا » . وبدت على دالاس أمارات الدهشة والقلق ولكنه لم يكن غير سعيد . كان يعلم أن هذا صحيح ، بالرغم من ادعاءات ناصر المتعمدة بأنه أباد الجيش الإسرائيلى وسلاح الجو فى ٣٠ أكتوبر . ورد دالاس على إيدن وقد أحس

بالقلق : إذا ، هل تفكر فى البقاء فى شبه جزيرة سيناء ؟ إنك تعلم أن هذا سيؤثر على علاقاتنا ولن نستطيع أن نستمر فى تقديم المعونة الاقتصادية وكل أنواع المساعدات الأخرى التى تحصلون عليها منا .

وأجاب إيدن : سيدى ، لقد وقع حدث أكثر أهمية نتيجة هذا النصر الكامل . فهذه هى المرة الأولى التى يتم فيها مقاومة دكتاتورية عدوانية وكنتيجة لما فعلته إسرائيل ، فإن ناصر سيفقد كل مصداقية . وستحل محله حكومة معتدلة . ومن المحتمل أن إسرائيل وبعض الدول الأخرى ستكون قادرة على إقرار السلام أخيرا فى الشرق الأوسط . وهناك شىء آخر : أن نفوذ روسيا فى مصر سيضعف . والنصر قد يؤدى إلى تغيير كلى فى الخريطة السياسية .

ووضع دالاس يديه فى جيبى بنطلونه وانعقد حاجباه وهو يمشى حول المكتب . إن تصورات إيدن كبيرة ، وهو يميل إليها . وأجاب : اسمع ، إننى ممزق بشكل فظيع . فليس هنا أسعد منى بضرب ناصر . ومنذ الربيع كان لدى سبب وجيه لكراهيته .

واعتقد السفيران أن دالاس قد أغرته الفرصة .

وأخيرا كرر دالاس : إننى ممزق . ومع هذا ، هل يمكن أن نقبل هذه النهاية الطيبة إذا كانت قد تحققت بوسائل فيها انتهاك للميثاق ؟ انظر هنا . إننا يمكنا أن نحسن من موقفنا فى العالم إذا استخدمنا القوة ، مثلا فى كوريا ، أو فى ألمانيا أو كيمورى . ولكن إذا فعلنا ذلك فإن الأمم المتحدة ستنهار . ولهذا فإننى مجبر على العودة إلى تأييد القانون الدولى والميثاق . وعلى أن أعمل على أساس أن المصالح الطويلة الأمد للولايات المتحدة والعالم أسمى من اعتبارات المنفعة الذاتية . وهناك شئ آخر ، إذا لم ينسحب الغزاة ويعودوا إلى خلف حدود الهدنة ، فإن السكرتير العام همرشولد سيستقيل .

وعند هذه النغمة من الحرمان المحتمل ، ذهب السفير ودالاس كل فى سبيله المختلف نحو دورة طارئة للجمعية العامة .

وخلال أزمة قناة السويس كان يبدو للكثيرين أن دالاس كان قلقا حقيقة من احتمال التدخل العسكرى السوفييتى فى الشرق الأوسط . وقد استمر هذا القلق بالرغم من تأكيدات رئيس أركان القوات المشتركة وبعض العسكريين الأمريكيين الآخرين له بأن الاتحاد السوفييتى ليس فى وضع يسمح له باتخاذ أى إجراء عسكرى فى الشرق الأوسط حتى ولا عن طريق إرسال متطوعين .

وبينما كان دالاس مريضا فى المستشفى ، استمر ضغط الولايات المتحدة على إسرائيل بل إنه تصاعد إلى حد ما . وهناك مثال على ذلك وهو استدعاء الوزير الإسرائيلى فى واشنطون لوزارة الحرب وإبلاغه : بأننا على حافة الحرب . وأن رفض إسرائيل تنفيذ قرار الجمعية العامة يهدد السلام فى العالم . وأن موقف إسرائيل سيؤدى حتما إلى عواقب وخيمة عن طريق الأمم المتحدة . وربما يصل الأمر إلى حد الطرد من الأمم المتحدة .

عندئذ بعث السناتور ليندون ب . جونسون الزعيم الديموقراطى بمجلس الشيوخ ، خطابا إلى دالاس يحتج فيه على التهديد بفرض عقوبات ضد إسرائيل . وشكك فى مبدأ دالاس – إيزنهاور : « قانون للجميع » ، وقلب المائدة على سياسة رئيس الجمهورية : إن الأمم المتحدة لايمكن أن تطبق قاعدة للقوى وقاعدة للضعيف . وهى لا تستطيع أن تنظم ثقلها الاقتصادى ضد دولة صغيرة فى الوقت الذى لم تفعل ذلك ولو ادعاء ضد الدول الكبرى . إنى لم أجد فى الأمم المتحدة أى اقتراحات بفرض عقوبات اقتصادية ضد الاتحاد السوفييتى . لقد استجابت إسرائيل لتوجيهات الأمم المتحدة إلى حد كبير . مع أن روسيا لم تحاول أن تدعى أن تكون مؤدبة ... إن لإسرائيل الحق فى ضمانات من الأمم المتحدة حالما تسحب قواتها . وفى ١٩ فبراير وافقت لجنة السياسة الديمقراطية فى مجلس الشيوخ . بالإجماع على مقاومة أى محاولات فى الأمم المتحدة لفرض عقوبات على إسرائيل . وفى الوقت نفسه ، فإن دالاس سعى إلى استرضاء ناصر عن طريق فوزى والسفير هير ، بالنسبة لخططه فى العقبة وغزة .

وقد تراجع دالاس فى بعض النقاط قائلا : إن الإجابات تتوقف على الأمم المتحدة ولهذا . فإن إيدن ذهب لمقابلة همر شولد ليبحث معه هذه المسائل . وأوضح له ما تريد إسرائيل وما يريد دالاس أن يتنازلا عنه .

وكان همرشولد فى قمة الضيق لأن الولايات المتحدة وإسرائيل متفاهمان جيدا . وكان الشعر فى قمة جمجمته وفى اتجاه خلف رأسه يقف حتى نهايته . وقد رفض رفضا قاطعا وبغضب أن يرسل سفينة إلى العقبة تحمل علم قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة . وقال عندئذ : بالنسبة لغزة ، فإن لمصر حقوقها . إن ما رتبته مع دالاس لايناسبنى ولا يناسب مصر .

وكان الإسرائيليون بوجه عام وكثيرون غيرهم يرون أن همرشولد يجد ناصر صعب المراس فى التعامل معه ، وأن همرشولد ضعيف وأنه فقد حياده عن غير عمد . وأنه يؤيد مصر على طول الخط .

وفى ٣ نوفمبر استقال انتونى ناتنج وزير الدولة بوزارة الخارجية البريطانية . وكان هذا مثيرا للدهشة بل وصدم الكثيرين لأنه فى ١١ أكتوبر مجد بقوة سياسة مجلس الوزراء أمام مؤتمر حزب المحافظين .

وكتب سلوين لويد عن هذا يقول : استقال ناتنج أحد وزراء الدولة بوزارة الخارجية . وقد أبلغنى خلال الأسبوع الذى يبدأ فى ٢٢ أكتوبر أنه لايستطيع أن يؤيد العمل الذى اقترحناه ، وأنه سيستقيل ، لقد كان صديقا شخصيا مقربا منى . وقد عملنا معا عندما كان وكيلا للوزارة وكنت أنا وزير للدولة . وعندما عينت فى وزارة التموين فى أكتوبر ١٩٥٤ ، أوصيت بقوة بأن يخلفنى .

وعندما قال إنه يجب أن يستقيل حاولت أثناءه عن ذلك . وقد دهشت ــ وهذا أقل ما يقال ــ عندما وجدته يتخذ هذا الموقف بعد ما قاله فى مارس عن أن التهدئة لم تجد وأن ناصر سيخل بأى اتفاق يعقد معه . كما تذكرت أيضا لهجته العنيفة فى مؤتمر الحزب . واقترحت أن يأخذ اجازة لبعض الوقت ولا يشترك فى

المناقشة حول السويس . كان يمكن أن يدعى المرض الدبلوماسى . ولكنه قال إن هذا مستحيل . فإن عليه إن آجلا أو عاجلا أن يدافع عن تصرفات الحكومة . وهو أمر لا يستطيع أن يقوم به . ولمست قوة منطقه . وطلبت من لينوكس بويد . بعد أخذ موافقة إيدن ، أن يأخذ ناتنج فى وزارة المستعمرات كوزير دولة . إذا استطاع تدبير ذلك . وكان لينوكس بويد زميلا مخلصا ومتعاونا ووافق على ذلك . وعرضت الأمر على ناتنج ، ولكن رفض للأسف . ووافق على أن يؤجل إعلان استقالته يوما أو يومين حتى ٢ نوفمبر . وكنت آسفا جدا عندما سمعت أنه ينوى أن يستقيل من البرلمان ، فقد كان ذلك غير ضرورى على الإطلاق .

وكلما مرت الأيام ، كلما تعقد الموقف بسرعة وأصبح ينذر بالسوء .. وبعد أن واجه مجلس الوزراء خسارة جسيمة فى القوات الاحتياطية المطلوبة لاستمرار الأنشطة الاقتصادية لبريطانيا ، اضطر مجلس الوزراء إلى الموافقة على وقف إطلاق النار . ولقد كان بوسع أمريكا أن تستمر فى تقديم الدعم الاقتصادى لبريطانيا دون أن تطلب منها وقف إطلاق النار ، ولكن سياسة أمريكا كانت تقوم على استخدام سيطرتها على الاقتصاد المصرى لفرض وقف إطلاق النار . وكان ماكميلان يتخذ كل إجراءات ذكية وبطولية ليستكشف أى مورد لمواجهة الالتزامات والقضاء على أى ذعر . وقد سادت وجهة نظره القائمة على أساس عمليات المضاربة الأمريكية وغيرها . ووافق إيدن على وقف إطلاق النار .

وفى مساء الخامس والسادس من نوفمبر ، وعلى الأرجح فى الصباح الباكر للخامس من نوفمبر ، طلب إيزنهاور إيدن تلفونيا . وفيما بعد أعلن كريستيان بينو فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٦ فى الجمعية الوطنية أن الضغط الأمريكى كان هائلا . وكان جوهر المكالمة التلفونية مع إيدن هى : أننى أطلب منك أن تعطى أمرا بوقف إطلاق النار فورا إذا أردت أن تحافظ على التضامن البريطانى الأمريكى وعلى السلام . إننى لا أستطيع أن أنتظر أكثر من ذلك . لقد كانت للمكالمة طبيعة إنذار وكان آخر موعد هو منتصف ٦ نوفمبر .

وطلب إيدن موليه فى باريس وأبلغه : لابد أن نوقف إطلاق النار . لقد فزنا تقريبا بما ذهبنا من أجله . ولا يمكن لناصر أن يستمر طويلا الآن . ورجا موليه إيدن والدموع فى عينيه أن يصمد لساعات قليلة أخرى حتى تتمكن القوات من الوصول إلى السويس : إننا على وشك النجاح . ولانريد للحملة أن تكون بلا فائدة . كيف نتخلى عن الإسرائيليين ؟ ولكن إيدن قال على التليفون : إننى محاصر فى ركن . ولا أستطيع أن أستمر . لقد تخلى عنى الجميع . لقد استقال زميلى المخلص ناتنج وزير الدولة . ولا أستطيع حتى أن أعتمد على الإجماع بين المحافظين . أن أسقف كانتربرى . والكنيسة ، ورجال الأعمال البتروليين وكل إنسان أصبح ضدى . والكومنولث يهدد بالتفكك . ويقول نهرو إنه سيقطع الروابط . وكندا واستراليا توقفتا عن اتباع سياستنا . ولا أستطيع أن أقوم بدور حافر قبر التاج . ثم إننى أريدك أن تفهم وتفهم جيدا لقد كلمنى إيزنهاور تلفونيا . ولا أستطيع أن أسير فى الأمر وحدى بدون الولايات المتحدة . ستكون المرة الأولى فى تاريخ انجلترا .. لا ، ليس هذا ممكنا .

وأعلن إيدن لموليه : سنقوم بوقف إطلاق النار . وطلب منه . أن يتفهم ذلك . ورد موليه بوجهة نظره . واستمر إيدن يحاول أن يقنعه للانضمام إليه فى وقف إطلاق النار . فإذا سار إيدن فى طريقه ، فإن وقف إطلاق النار سيكون ساريا فى الساعة السابعة مساء بتوقيت لندن . وأقنع موليه إيدن بأن القتال يجب أن يستمر حتى الساعة ٥٩ ر ١١ مساء نفس اليوم ٦ نوفمبر ولكن إيدن أصر : على ألا تزيد دقيقة واحدة بعد ذلك .

وفى ٣ نوفمبر قدمت كندا وكولومبيا والنرويج مشروع قرار للجمعية العامة بشأن قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة . إن الجمعية العامة . وهى تضع فى اعتبارها الضرورة الملحة لتسهيل تنفيذ قرار وقف إطلاق النار الذى تبنته الجمعية فى ٢ نوفمبر ١٩٥٦ ، تطلب من السكرتير العام إعطاء أولوية لتقديم مشروع ــ فى خلال ثمانى وأربعين ساعة ــ لإنشاء قوة طوارئ دولية تابعة للأمم المتحدة ــ

بموافقة الدول المعنية ، لضمان وقف الأعمال العدائية والإشراف عليها طبقا للقرار المشار إليه .

وقد تبنت مشروع القرار ٥٧ دولة ضد لاشيء . وكان من بين الممتنعين كتلة الاتحاد السوفيتى ومصر وإسرائيل واستراليا ونيوزيلندا وبريطانيا وفرنسا .

وفى ٥ نوفمبر ١٩٥٦ أرسل رئيس الوزراء بولجانين برقية إلى رئيس مجلس الأمن . وطالبت البرقية بعقد اجتماع فورى لمجلس الأمن لمناقشة العدوان الجديد وعدم تنفيذ إسرائيل وبريطانيا وفرنسا لقرار الجمعية العامة . كما أنها عرضت مشروع قرار يدعو إلى وقف إطلاق النار خلال أربع وعشرين ساعة وهو نفس الوقت الذى حدده الإنذار الإنجليزى البريطانى وانسحاب كل القوات الأجنبية من مصر خلال ثلاثة أيام . وقالت البرقية إنه إذا رفضت الأطراف التنفيذ ، فعلى جميع أعضاء مجلس الأمن وخاصة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، كعضوين فى مجلس الأمن ولهما قوات جوية وبحرية قوية تحت تصرفهما ، إمداد جمهورية مصر التى كانت ضحية العدوان ـ بمساعدات حربية وغيرها ، وذلك بإرسال قوات بحرية وجوية ووحدات عسكرية ومتطوعين ومعلمين عسكريين وغير ذلك من أشكال المساعدة ، إذا رفضت المملكة المتحدة وفرنسا وإسرائيل تنفيذ هذا القرار خلال المدة المحددة .

وفى الوقت نفسه أرسل بولجانين مذكرات إلى حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل .

إن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة هما القوتان العظميان اللذان تمتلكان كل أنواع الأسلحة ومنها الأسلحة الذرية والهيدروجينية ... وللولايات المتحدة بحرية قوية فى منطقة البحر المتوسط . وللاتحاد السوفيتى أيضا بحرية قوية وسلاح جوى قوى . وأن الاستخدام المشترك والفورى لهذه الوسائل سيكون بمثابة ضمان لإنهاء العدوان ضد الشعب المصرى وضد شعب الشرق العربى .

وفى ٥ نوفمبر بعث إيزنهاور بخطاب إلى بن جوريون قال فيه : إن الأولوية

العليا يجب أن تعطى لانسحاب القوات الأجنبية وبعدها يجب اتخاذ خطوات جديدة ونشطة داخل إطار الأمم المتحدة لحل المشكلات الأساسية التى أدت إلى الصعوبات الحالية . واستمر الخطاب يقول :

ولا حاجة بى أن أؤكد الاهتمام الشديد الذى تولية الولايات المتحدة لبلادكم ، ولا أن أذكركم بالعناصر المختلفة لسياستنا بتأييد إسرائيل فى مجالات شتى ... وسيكون من دواعى الأسف الشديد لكل المواطنين فى بلادى أن تؤدى السياسة الإسرائيلية فى مسألة تثير قلقا شديدا فى العالم ، إلى التأثير بأى حال على التعاون الودى بين بلدينا .

وفى ٧ نوفمبر رد بن جوريون بأنه لا هو ولا أى شخص مسئول فى إسرائيل ينوى ضم شبه جزيرة سيناء .

وفى ٦ نوفمبر سلم ديلون السفير الأمريكى فى باريس رسالة مكتوبة لموليه . وكان جوهر ما فيها كالآتى : إذا استمررتم فى عملكم الخاطئ فلا تعتمدوا على الولايات المتحدة . إن الإجراء الصحيح هو الذى يتم من خلال الأمم المتحدة . ولابد أن توقفوا تدخلكم فى السويس وإذا لم تفعلوا فلايمكنكم الاعتماد على تأييدنا ، مما كان له وقع الصدمة على موليه وأعضاء حكومته . ومع هذا فإن الولايات المتحدة أعطت فيما بعد تأكيدات متكررة لفرنسا والمملكة المتحدة . بأنها ستحترم التزاماتها تجاه حلف الأطلنطى إذا شن الاتحاد السوفيتى هجوما ضدهما .

ومن جهة أخرى فقد حذرت الولايات المتحدة إسرائيل بأنها لن تحصل على حماية .

وفى التماس من تشرشل موجه إلى إيزنهاور بأن البريطانيين والفرنسيين فى وضع حرج فى السويس ، ولايجب أن يضطروا إلى الانسحاب تحت ضغط الولايات المتحدة ، أجاب رئيس الجمهورية على سير ونستون فى خطاب مطول إلى حد ما مؤرخ فى ٢٣ نوفمبر يبرر فيه سياسته قائلا : لقد حاولت بكل جهدى أن أجعل

إيدن يفهم موقفنا . وعلى سبيل المثال فى خطابى إليه فى ٣١ يوليو طلبت منه تجنب استخدام القوة إلى أن يثبت للعالم أن الأمم المتحدة لا تستطيع أن تحقق تسوية . ويجب أن ندرك بوجه خاص الموقف الذى ستتخذه روسيا إذا غزونا مصر . إن هذه ستكون سياسة القوة ، ونحن لانحبذ ذلك . إن ناصر هو موسولينى مصرى وسوف يكون علينا أن نكبح جماحه بشكل ما . ولكن القوة والغزو ليسا الطريقة لتصحيح الموقف . ولقد عرفت الآن نبأ الإنذار من الصحف . وعلى الفور قررنا أن نؤيد الأمم المتحدة . إن سياستنا قائمة على أساس أن عدونا الحقيقى هو الاتحاد السوفيتى ، ولن يسعد حكومة الولايات المتحدة شىء أكثر من أن ترى عودة البريطانيين إلى الشرق الأوسط ، ونحن لانريد أن يكون الاتحاد السوفيتى هناك . وفضلا عن ذلك ، فإننا سنساعدكم بالوقود والمال . كل ما نريده أن تسمح بريطانيا وفرنسا بدخول قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة . إننا لسنا معادين لبريطانيا وفرنسا ، وهناك أناس فى بريطانيا نفسها يستنكرون أعمال الحكومة فى علاقاتها بالأمم المتحدة . إننا نريد أن نكون أصدقاء . ومن السىء أن بريطانيا قد تصرفت ضد مبادئ التحالف ــ وسىء أيضا أنها فعلت كل ذلك بدون كفاءة . إنه أمر سىء إنه حتى من زاوية ضرورة العمل فإن الأمر تم بإدارة سيئة . وأعتقد أنه أمر سىء أن يقع أصدقاؤنا فى متاعب . وبعد تصويت الأمم المتحدة فى ٢٤ نوفمبر ، اجتمع ما لايقل عن ثلثى أعضاء البرلمان من حزب المحافظين وعددهم ١١٠ وذلك لوضع مشروع قرار يعرض على مجلس العموم ويستنكر السياسة الأمريكية والدبلوماسية الأمريكية . وكان ذلك أيضا احتجاجا على مظاهر خضوع سلوين لويد ومكميلان وبتلر للضغط الأمريكى . ويقول مشروع القرار الذى وضع فى ٢٦ نوفمبر : إن هذا المجلس يهنئ وزير الخارجية على جهوده لضمان السيطرة الدولية على قناة السويس ويستنكر قرار الجمعية العامة الذى يدعو إلى انسحاب فورى غير مشروط للقوات البريطانية والفرنسية من مصر كما يستنكر موقف أمريكا الذى يعرض التحالف الأطلنطى لخطر جسيم .

وكان رد الفعل بالنسبة لحوافز الولايات المتحدة ضد استخدام القوة بمعرفة

فرنسا والمملكة المتحدة هى الإشارة إلى أن نص المادة الأولى من معاهدة حلف الأطلنطى لم تمنع الرئيس ترومان من القيام بالحرب فى كوريا قبل الحصول على موافقة حلفائه أو موافقة الأمم المتحدة ، وأنه فعل ذلك بتأييد مسبق من دالاس لهذه السياسة . كما أن المادة الأولى لم يسمح لها بأن تقف فى طريق تهديدات دالاس باستخدام القوة ضد الصين الشعبية والهند الصينية .

إن السياسة الأمريكية التى أدت إلى إخضاع حلفائها فى السويس لخصها رئيس الوزراء الفرنسى السابق منديس فرانس فى مناقشة فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى ١٨ ديسمبر ١٩٥٦ . فقد لاحظ أن المجموعة السياسية لم تتميز بالمعارضة القديمة للثلاثة أمريكا وفرنسا وبريطانيا ضد واحدة روسيا ولكن بصيغة جديدة .. فالدولتان الكبيرتان أمريكا وروسيا تقفان ضد الدول الأصغر ، ومن هنا حدث قمع عملية السويس .

وقد عانى دالاس من عدم الرضاء بعد شهر أو أكثر عندما أعلن السفير الأمريكى فى فرنسا ، الذى كان طرفا وثيق الصلة بالعمليات التى أدت إلى وقف إطلاق النار ، بأنه يعتقد أنه لا الإقناع الأدبى ولا الضغط يمنع إمدادات البترول ولا الدبلوماسية الأمريكية هى التى أحدثت وقف إطلاق النار ، ولكن هذه التهديدات السوفيتية التى صيغت بلهجة عنيفة جدا . وقد اضطر ديلون إلى تعديل ملاحظاته بناء على إصرار دالاس . ومع هذا ، فإن الحقيقة تبقى كما هى . فقد شعر دالاس بالفزع من التهديد الروسى .

وفى ٢٥ نوفمبر اشترك محمود فوزى فى مقابلة فى التليفزيون الأمريكى هيئة الإذاعة القومية فى برنامج قابل الصحافة . وقد علق على دوره هرمان فاينر بما يلى : لا يوجد طاغية يحكم دولة عظمى فاق وزير الخارجية المصرى محمود فوزى فى تصميمه الشديد على أن يفعل بالقناة ما يريده هو وحده . ففى برنامج قابل الصحافة فى ٢٥ نوفمبر عندما استجوبته جماعة من هيئة الإذاعة القومية قال : إن كل ما على العالم أن يعرفه عن سيطرة مصر على القناة هو أننا ليس لدينا النية

لاستغلال أحد . وما نفعله بالقناة هو من شأننا لقد كانت القوة إلى جانبه ، ولهذا لم يكن هناك مجال لزحزحته مليمترا واحدا عن موقفه . لقد استخدم كلمات كما هى لم تمس وكلها فى مناقشة سابقة فى الأمم المتحدة . وهو يسأل الآن : إذا كانت مصر على صواب حتى الآن فلماذا تغير من موقفها ؟

وفى ٢٦ و ٢٧ نوفمبر ذهب سير هارولد كاكيا لمقابلة وزير الخزانة جورج همفرى . قال كاكيا إن الحكومة البريطانية تحتاج تأييدا أمريكيا لسحب مبالغ كبيرة من المال من صندوق النقد الدولى . وكان رد همفرى جافا فظا . لن تحصل على أى مبالغ من حكومة الولايات المتحدة إذا استطعت أن أمنع ذلك . إلى أن تخرجوا من السويس . إنكم مثل اللصوص الذين اقتحموا بيت شخص آخر . ولهذا أخرجوا . وعندما تفعلون ذلك . وليس قبل ذلك . ستحصلون على المعونة . وخلال الأسبوع الأخير من نوفمبر ١٩٥٦ عقدت اجتماعات فى واشنطون وعالجت أساسا البترول . وكان المشتركون شيرمان ادامز وهربرت هوفر الابن والأميرال رادفورد وجورج همفرى وارثر فليمنج ووزير الدفاع شارلز ويلسون وبعض خبراء البترول من وزارة الداخلية . وبعض الأفكار وجوانب المناقشات فى هذه الاجتماعات تستحق التسجيل .

إن رئيس الجمهورية يريد الآن عملا . على شكل تأييد أمريكى لحلفاء الولايات المتحدة ، فى أسرع وقت ودون انتهاك لدوره فى الأمم المتحدة . هذا هو أحد الأسباب التى أدت بلودج إلى الضغط لسرعة وصول قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة إلى منطقة القناة . لقد كان إيزنهاور مازال يخشى مضاعفات مع الاتحاد السوفيتى وربما متطوعين صينيين . ولكنه أيضا لم يكن يستطيع أن يزود بريطانيا وفرنسا بالبترول بينما مفاوضات همرشولد مع عبد الناصر لم تتم بعد .

وفى ٢٤ نوفمبر صدرت تعليمات إلى هوفر بأن يضغط من أجل تسليم البترول خلال يوم أو يومين ، بدلا من وقفه لفترة أخرى لأغراض استراتيجية . وكانت الاستدلالات المنطقية فى هذه الاجتماعات مطولة ومسلية . وكان المشتركون قلقين

من عدم رضاء همرشولد لنفس السبب . وكان رادفورد يشعر بالخوف من قيام السوريين بنسف التابلاين : وكانت تكاليف شحن البترول من البحر المتوسط إلى مرسيليا أرخص عشر مرات عن البترول من كليفستون إلى مرسيليا . وكانت الولايات المتحدة عن طريق أرامكو قد حثت الملك سعود على إبقاء التابلاين مفتوحا من السعودية إلى البحر المتوسط بمجرد الوعد بألايزود البريطانيون والفرنسيون بالبترول . وسمعت الجماعة ـ بطريقة خاصة ـ أن البريطانيين أبلغوا همرشولد أنهم سينسحبون ، ولكنهم يريدون من ناصر أولا أن يقبل قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة . وعندئذ دعا هوفر إلى تزويد بريطانيا بإمدادات البترول لأن هذا سيقنع فرنسا بالانسحاب . ولكن همفرى كان يخشى أنه إذا ضمت ٧٥ فى المائة من الإمدادات ، فإنها قد تبقى فى السويس . وقد تمسك حتى النهاية بفكرة أما أنه يجب أن يتم انسحاب للحلفاء أو تعهدات قاطعة بالانسحاب ، وأن الولايات المتحدة لايمكن أن ترجع عن كلمتها . ثم بدأ رادفورد يخشى تأثير فظاظته مع البريطانيين والفرنسيين على حلف الأطلنطى ومع هذا لم يكن يريد أن يظن أنهم يلوون ذراع أمريكا . وكان همفرى يرى وجهة نظر ناصر : بأنه لايجب أن ينتظر أسبوعين آخرين قبل أن يعطى البريطانيون تأكيدات بأنهم سينسحبون . وهكذا وهكذا .

وكان همرشولد مصمما طول الوقت على انسحاب غير مشروط لإسرائيل من جميع الأراضى المحتلة خلال الحرب . وقاوم كل المحاولات الإسرائيلية لربط هذا الإنسحاب بأية شروط ، مثل حرية المرور لإسرائيل فى خليج العقبة ، بالرغم من أنه كان ـ كموضوع منفصل ـ يؤيد حرية المرور هذه بعد إتمام الانسحاب .

وفى ٢٣ يناير ١٩٥٧ أعلن بن جوريون فى الكنيست أن إسرائيل لن تنسحب من شرم الشيخ أو قطاع غزة قبل أن تحصل على الضمانات التى طلبتها . وفضلا عن ذلك كانت إسرائيل مستعدة لتوقيع ميثاق عدم اعتداء مع مصر ، وقدم السفير إيدن اقتراحات بن جوريون المطولة إلى همرشولد ووزعت على جميع

الأعضاء . وكان لودج ودالاس وإيزنهاور قد تزايد غضبهم ونفذ صبرهم يوما بعد يوم ، ودعوا إسرائيل إلى الانسحاب ، مستخدمين الكلمة المختارة التى عثر عليها كريشنا مينون لبريطانيا وفرنسا : فى الحال .

ووجه إيزنهاور – بإيحاء من دالاس – خطابا إلى بن جوريون يقول فيه : « إننى أعلق أهمية قصوى على قرار الأمم المتحدة الخاص بإنهاء الأعمال العدائية فى مصر . وفى خطابك (خطاب بن جوريون) فى ٧ نوفمبر قلت إنكم ستنسحبون إلى خط الهدنة طبقا لقرار الأمم المتحدة فى ٢ نوفمبر . وقد أسعدنى ردك .

والآن مرت ثلاثة أشهر ، وذهب البريطانيون والفرنسيون ، ولكن إسرائيل لم تذهب . وهذا التأخير فى تنفيذ قرار الأمم المتحدة قد أدى إلى استمرار التوتر فى الشرق الأدنى وأثر على الجهود لإيجاد تسوية مع حلول دائمة للسلام . وفى أول فبراير أصدرت الأمم المتحدة قرارين آخرين .. وقد نص على أن تدخل قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة إلى خطوط الحدود ، والتوصل إلى أحوال سلمية ، طبقا لتقرير همرشولد فى ٢٥ يناير .. إلى آخره . وقد انضمت بعض الدول الأخرى فى تأييد هذين القرارين . وأعتقد أن تقرير السكرتير العام يضع الأساس حسم سلمى معقول للأعمال العدائية السابقة فى المنطقة بالنسبة لغزة وشرم الشيخ . والخطوة الجوهرية الأولى هى أن إسرائيل يجب أن تنسحب إلى ماخلف خط الحدود . وآمل بقوة أن يتم ذلك بلا تأخير» .

« إننا نرغب فى أن تستمر علاقات الصداقة مع إسرائيل وأن يستمر التعاون الذى أسهم فى تنمية إسرائيل . وأشعر بأننى على حق فى الحث بكل جدية على الانصياع لخطوات الأمم المتحدة لضمان الهدوء والعدالة بالنسبة لمصر والأراضى المجاورة » .

« إن التجاهل المستمر لهذه الآراء سيؤدى إلى إقرار مزيد من إجراءات الأمم المتحدة مما سيؤدى إلى اضطراب العلاقات بين جميع الدول والولايات المتحدة . لقد حاولت الأمم المتحدة القيام بعمل بناء ونأمل أن تفعلوا نفس الشيء . لقد

بذلنا الكثير لتسوية الأمور بعدل وآمل أن تسهموا أنتم أيضا فى ذلك » .

وفى رد بن جوريون قال :

« سيدى الرئيس ، فى القانون الذى تلقيناه منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة على جبل سيناء والذى أصبح جزءا من تراث الإنسانية ، جاءت الرسالة بألا يكون هناك تمييز بين إنسان وإنسان أو أمة وأمة . وخلال ألف عام من الاضطهاد لم يفقد شعبنا إيمانه بالعدالة النهائية والسلام والمساواة بين البشر . ومن غير المقصود بعد أن استعدنا استقلالنا فى وطننا القديم أن نخضع للتمييز . إن شعبنا لن يقبل هذا أبدا مهما قدم من تضحيات . إن إسرائيل ـ بالرغم من أنها صغيرة ـ لها الحق فى الأمن والحرية والحقوق المتساوية فى أسرة الدول . وإسرائيل ـ شأنها شأن أية دولة مستقلة ـ حرة وشعبها مصمم على الدفاع عن استقلاله . والمسألة ليست مسألة قانونية . إنها تؤثر على أسس الأخلاق الدولية نفسها : فهل ستتخذ الأمم المتحدة إجراء مع مصر وإجراء آخر مع إسرائيل ؟

« وأنتم أكثر من أى إنسان على قيد الحياة الآن ياسيادة الرئيس قد تستطيعون أن تساعدوا فى وضع حد لكل هذا العداء وإقرار السلام بين جيراننا وبيننا . إسمحوا لى فى الختام أن أشكركم على اهتمامكم الطيب فى رفاهيتى ، وهو أمر أقدره بعمق » .

وكان هناك مظهر آخر هو غارات الفدائيين من مصر على إسرائيل وخاصة أن إسرائيل استطاعت بوجه خاص واختارت أن تثير هذا الأمر كشرط سابق على الانسحاب ، وأنها تستطيع أن تستشهد من الصحف المصرية قبل الحرب بأنباء هذه الغارات بل وتمجيدها . ومع هذا وقفت مصر بحزم ضد أية شروط مهما كانت ـ على الانسحاب وكان همرشولد ـ من ناحية المبدأ ـ له نفس الرأى .

وحاول همرشولد ما فى وسعه أن يلتزم بدوره كسكرتير عام للأمم المتحدة . وكمثال ، عندما كان يصر على انسحاب إسرائيل الكامل من الأراضى المصرية

ومن قطاع غزة ، أعرب لى مرارا عن أمله بل وتوقعه أن تسمح مصر بعد انسحاب إسرائيل ، بمرور السفن الإسرائيلية فى خليج العقبة وقناة السويس . ولكنى بالنسبة لذلك ذكرت بعض التحفظات ولم ألتزم بشىء . وكان همرشولد من جانبه وفى حرصه الشديد على الاحتفاظ بموقف سليم ، يعارض أى ربط رسمى بين الأمرين وهما الانسحاب وحرية المرور . وفى مرحلة تالية أعرب لى عن عدم اتفاقه معى بالنسبة للفكرة التى تؤمن بها مصر وهى أن مسألة المرور فى العقبة والقناة مرتبطة بالمسألة الفلسطينية قائلا : بالرغم من أن بعض الفقهاء قد يوافقون على وجهة نظر مصر . وفى مرحلة تالية أبلغنى همرشولد بأن الإصرار على حسم هذا الأمر بالإيجاب يتصاعد وخاصة لدى البريطانيين والفرنسيين ، وأن وزراءهم أثاروا المسألة خلال الأيام القليلة الماضية . وأضاف رأيه بأن نقطة حرية المرور لابد أن يتم التوصل إليها فى أسرع وقت ممكن ، وأن مثل هذه الحرية ستتمشى مع مصالح كل الأطراف المعنية ، وخاصة مصر . وكان تعليقى أساسا هو أن معاهدة القسطنطينية التزمت بها مصر وعلى استعداد للالتزام بها فى المستقبل أيضا ، وأن أزمة المرور الإسرائيلى فى العقبة والقناة هى من خلق إسرائيل وبعض القوى الغربية .

وبالنسبة لمشكلة متعلقة بتلك ، وهى خليج العقبة أبلغنى همرشولد عن أمله فى أن تتغلب مصر على الصعوبة الناشئة عن إصرارها على أن المدخل إلى الخليج هو مياه إقليمية . وقال أنه يختلف معنا ، واستشهد بحالة خليج مشابه فى السويد وكيف أن الحكومة السويدية تعتبر مياه المدخل مياه دولية . ومع هذا فقد تذكر همرشولد ــ بعد تفكير ــ أن السويد اتخذت موقفا معارضا خلال الحرب واعتبرت هذه المياه إقليمية .

وقد روى لاش قصة المشاورات الحساسة الهامة بالنسبة لوضع قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة والضغوط بشأنها ، كما يلى : إن إبراز الإنجاز الفنى كان المسألة الأساسية لهدف الأمم المتحدة من تطهير القناة وإنشاء قوة الطوارئ

الدولية . وفى ١٦ نوفمبر طار همرشولد إلى القاهرة لإجراء مباحثات مكثفة مع ناصر وفوزى عن مهام القوة ، وموقعها والمدة التى ستبقى فيها وأين ستنتشر . وكان هناك اتفاق كامل من ناحية المبدأ ولكن بين المبدأ وتحقيقه يمكن أن تنشأ مئات من الآراء المتعارضة . ووصلت عناصر رمزية من قوة الطوارئ إلى مصر فى ١٥ نوفمبر ولكن الباب لم يكن قد فتح بعد على مصراعيه .

وفى مباحثات القاهرة حاول همرشولد إقناع عبد الناصر بأن يترك تكوين القوة فى أيدى السكرتير العام واللجنة الاستشارية ، وأن تشترك الجمعية العامة فى قرار نهائى بشأن متى تنسحب القوة عندما تنتهى من مهامها . ولكن لم يتم التوصل إلى اتفاق محدد حول هذا الأمر ، بالرغم أنه حدث ما يلى :

أصدرت الحكومة المصرية تصريحا بأنها عندما تمارس حقوقها السيادية على أى موضوع يختص بوجود ومهام قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة ، فإنها تسترشد ، بحسن نية ، بقبولها قرار الجمعية العامة ٣٩٤ الصادر فى ٥ نوفمبر ١٩٥٦ الذى ينشىء قيادة الأمم المتحدة . وهذه الصيغة كانت المفتاح الذى فتح فى النهاية الباب المصرى للسماح بدخول قوة الإنقاذ .

هل معنى هذا أن قوة الطوارئ ستبقى فى شرم الشيخ إلى أن تتم تسوية إسرائيلية مصرية ؟ كان إيدين يريد أن يعرف هل معنى هذا أن غزة ستكون فى الواقع تحت سيطرة الأمم المتحدة ؟ لقد رفض بيرسون أن يؤيد القرارين لأن الإجابة كانت غامضة بالنسبة لهاتين النقطتين . وقد سعى بينو إلى إقناع همرشولد على أن الصيغة لا يجب أن تكون معرضة للتفسير بأن إسرائيل تحصل على مكافأة . وأجاب بينو أن حرية الملاحة ليست مكافأة ولكنها حق وأن هناك مصالح أخرى متضمنة . ولكن همرشولد لم يرضخ . ففى كل تصريحاته عن الموقف الذى سيتبع انسحاب إسرائيل لم يقدم أى تأكيدات عن التدابير التالية فيما عدا أن قوة الطوارئ ستكون هناك للمحافظة على الهدوء .

وبينما كانت مصر مصرة على موقفها الذى وافقت عليه الجمعية بوجه عام ،

والقائم على أن مبدأ السيادة الوطنية ، وأن وجود قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة على أراضيها يتطلب بالضرورة الموافقة المستمرة للحكومة المصرية فإن همرشولد كان يبلغنى مرارا بأن مجلس الأمن سواء من ناحية الشكل أو المضمون العملى له دور يؤديه إذا رأت الدولة المضيفة أن وقت رحيل القوة قد حان . وأحيانا ، كان همرشولد يقول بشكل أكثر تحديدا إنه يرى أن موافقة المجلس مطلوبة ، وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن المجلس هو الذى تناول الأجزاء التنفيذية لإنشاء القوة . وكانت هذه من بين المسائل القليلة التى اختلفت فيها مع السكرتير العام . ومع هذا فإنه يبدو أنه كان يطرب لبعض ما أقول فى هذا الشأن عندما كنا نتحدث معا عن قوات الأمم المتحدة ككل لمواجهة الطوارئ . لقد أضفت فكرة أنه عند صياغة الاتفاقيات الخاصة بمرابطة القوة فى دولة معينة ، أن يكون هناك وقت معقول وكاف يسمح بإتمام انسحاب القوة .

وهكذا أمكن التوفيق بين مسألة السيادة الوطنية وهى مسألة مبدئية وسياسية فى جوهرها . وذلك بالموافقة على ضرورة الموافقة المستمرة للدولة المضيفة . والعناصر العملية لحفظ السلام . بإيجاد مجال لمجلس الأمن والأطراف المعينة بالقيام بالاستعدادات الضرورية واتخاذ الإجراءات التى قد يتطلبها الموقف .

ومن أجل التاريخ على الأقل ، فإننى أسمح لنفسى أن أشير هنا إلى :

١ ــ أنه لو كان هذا الاتجاه قد طبق عام ١٩٦٧ بالنسبة لقوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة فى مصر ، فإن الأحداث المؤسفة التى أعقبت انسحابها ما كانت لتحدث .

٢ ــ أننى كنت دائما أذكر القاهرة وممثلى بعض العواصم العربية الأخرى أن مسألة انسحاب قوات الطوارئ يجب أن تأتى بعد وليس قبل أن نكون مستعدين ، وأننا يجب ألا نسمح لبعض الدول العربية ، بحماقة أو بسوء نية ، أن تدفعنا إلى أى صدام مؤسف ، و أننى أعرف أنه لايوجد زعيم عربى واحد ، وهو يدرك ضعف بلاده يمكن أن ينظر إلينا وجها لوجه ويصر على أى كلام فارغ عن

أن مصر تحتمى خلف قوة الطوارئ . ومع هذا فإن هذه الاتهامات المغرضة بالرغم من أنها ليست منصفة . إلا أنها لعبت دورا فى القرارات المتعجلة والتصريحات التى أدت جزئيا إلى التعجيل بالكارثة وخلق مثل هذا التدمير والفوضى فى الشرق الأوسط . وأن الأمر سيحتاج إلى سنوات قبل أن يكون هناك أى أمل جاد فى الشفاء الكامل . ماذا كان يمكن أن يفعله همرشولد وليس يوثانت وكان حاضرا ؟ أن البعض قد يعتقدون أنه ربما من الأفضل فى الوقت الحاضر أن نعتبر ذلك مجرد تكهن ، ونترك أولئك الذين يرغبون فى الانغماس فى الماضى إذا كان لديهم وقت لذلك .

وبعد سنوات عديدة منذ إنشاء قوة الطوارئ للشرق الأوسط عقد السكرتير العام كورت فالدهايم فى ٥ يوليو ١٩٧٣ مؤتمرا صحفيا فى جنيف أدلى فيه بتصريح هام ومتصل بالموضوع . فقد سئل : بالنسبة للشرق الأوسط . إذا عدنا إلى الماضى ـ ألا يمكن لأحد أن يلوم الأمم المتحدة لأنها كانت هناك عند بدء الصراع عام ١٩٦٧ بدلا من أن تعمل على تسويته فى النهاية ؟ أجاب فالدهايم :

لا ، إننى يجب أن أدافع عن موقف سلفى فى هذا الأمر . لأنى أعتقد أن هناك سوء تفاهم . إن عملية حفظ السلام لا يمكن أن تحدث دون موافقة دولة ، حكومة . فمثلا رفضت إسرائيل أن يكون لديها مراقبون تابعون للأمم المتحدة أو قوة لحفظ السلام على أراضيها . وقد أعطت مصر موافقتها بتواجد هذه القوات على الأراضى المصرية . وعندما طلبت مصر وهى عضو فى الأمم المتحدة من السكرتير العام أن تنسحب هذه القوات . كان من المستحيل ألا تفعل ذلك . ومن الواضح أنك يمكن أن تتناقش حول الإجراءات ولكن قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة لا يمكن أن تخدم دون موافقة صريحة من الدول المعنية .

ملخص

يمكننا القول فى أبسط تعبير أن اللعبة أساسا كانت أن مصر تريد أن تخلص نفسها من الاستعمار وأن تكون لها السيطرة الكاملة على القناة . بينما فرنسا والمملكة المتحدة كانت تريد : أولا إبقاء السيطرة على القناة ، وثانيا إبقاء السيطرة على كل من القناة ومصر .

أما الولايات المتحدة فإنها لاعتبارات معادية للاستعمار وكذلك لاعتبارات تتسم بالأنانية ، كانت ترغب من ناحيتها فى استبعاد كل من فرنسا والمملكة المتحدة من منطقة الشرق الأوسط بأسرها ، وأن تخلفها بطريقتها الخاصة .

وكان الاتحاد السوفيتى يريد أن يختفى كل ذلك من المنطقة بما يسمح بالتسلل والنفوذ والنشاط السوفيتى فى المنطقة . وأن تتحقق الرغبة السوفيتية القديمة فى الوصول جنوبا إلى المياه الدافئة للبحر المتوسط .

وليس من الواضح بعد هل سيذهب السوفيت جنوبا إلى أبعد من ذلك ويطوفون بالبحر الأحمر وكل بحار العالم بما فيها بحار جنوب آسيا .

إن مصر كما جاء فى اتفاقية ٢ فبراير ١٨٦٦ أصرت على أن شركة قناة السويس البحرية العالمية هى شركة مصرية تخضع للقوانين والعادات المصرية وفى المادة ١٣ من معاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ . تأكدت بوضوح حقوق السيادة المصرية .

وفى الحالتين كانت مصر حريصة على أن تشير بشكل قاطع إلى أن القناة مصرية سواء فى ملكيتها أو السيادة عليها .

لقد كانت لعبة زاخرة بالأحداث . فكلما مرت السنون كلما تقاربت وأصبحت أكثر حيوية ، إلى أن جاء ١٩٠٩ ومد امتياز قناة السويس إلى ما وراء ١٩٦٨ . ونوقش الأمر فى البرلمان المصرى واغتيل بطرس غالى باشا رئيس وزراء مصر الذى كان من المفترض أنه يحبذ مد الامتياز .

وبعد ذلك أصبحت الصلة قوية بين صراعين : الصراع ضد الاستعمار وخاصة فيما يتعلق بمصر . والصراع ضد السيطرة الأجنبية المستمرة واستغلال قناة السويس . والتى كانت مظهرا بارزا للاستعمار .

وكان الموقف ككل مليئا بالتيارات والتيارات المضادة . وقد وصل إلى منتهاه . فمثلا : كانت الولايات المتحدة معادية للاستعمار بالرغم من أنها حليفة للقوتين الاستعماريتين الكبيرتين : فرنسا والمملكة المتحدة . ومرة أخرى كانت الولايات المتحدة ممثلة فى إيزنهاور ودالاس تكره عبد الناصر ولاتثق فيه . ومع هذا فقد عرضت مساهمة ضخمة فى قرض تقدمه لمشروع السد العالى . بالرغم من فشل ذلك فيما بعد . ومرة أخرى فإن دالاس وحكومته كانا من أكبر المؤيدين لمؤتمر لندن وقراراته . ومنها جمعية المنتفعين بقناة السويس ودفع رسوم القناة لها وعدم دفعها للحكومة المصرية . ومع هذا فإن كلا من دالاس وإيزنهاور قالا فيما بعد إن الولايات المتحدة لن تشق طريقها فى القناة عنوة إذا أصرت مصر على أن يتم الدفع لها . وبهذه الطرق . سمح لعبد الناصر بنطاق بإحكام قبضته على القناة والحصول على وقت كاف . وهو نفس عبد الناصر الذى قال دالاس عنه : لابد من إجباره على أن يتقيأ القناة .

وكان موقف الاتحاد السوفيتى وتصرفاته ليس أقل تورطا . وأحيانا كانت متناقضة . لقد بدأ السوفيت فى مرحلة مبكرة فى كراهية عبد الناصر وعدم الثقة به . وهاجمت الصحافة السوفيتية عبد الناصر ووصفته بأنه رجعى . ولكن موقفهم الطبيعى المعادى للاستعمار إزاء الدول الغربية قد أدى بهم إلى تأييد عبد الناصر فى عدائه للاستعمار ، وتأييده فى امتلاك مصر للقناة بالكامل

وإدارتها . لقد كانوا يريدونه أن يكون قويا بما يكفى لصد أرى هجمات من الغرب على مواقعه ، ولكن الاتحاد السوفيتى لم يكن يريده أن يصبح قويا جدا بحيث يصبح له سيطرة ونفوذ على الشرق الأوسط والمناطق الأخرى حوله . وكانوا بذلك يستطلعون الآفاق بالنسبة للمستقبل .

وقد أشار البعض إلى الهند على أساس أنها تصرفت بشكل متناقض وغريب وغير منطق فقد كانت تؤيد تحرير القناة من البريطانيين والفرنسيين والظهور بمظهر المؤيد لتأميم مصر للقناة . ولكنها لم تكن فى الحقيقة ضد الإدارة الدولية لهذا الممر المائى . وقال نهرو فى مرحلة ما إنه لو ترك الأمر له . لكان تصرف بشكل مختلف عما فعله عبد الناصر . وكان هناك البعض الذين يعتقدون أن موقف الهند ككل كان يقوم على عدم رغبة الهند فى أن يصبح عبد الناصر قويا بحيث يوحد الدول العربية والإسلامية حوله . وكان هذا التفكير يأخذ فى الاعتبار ملايين المسلمين داخل الهند .

وفى الوقت نفسه كان الكثيرون لايتجاهلون المد الإسلامى الكبير فى مناطق شاسعة من آسيا تضم ماليزيا وأندونيسيا ووجود ملايين من الجاليات الإسلامية الضخمة فى تايلاند والفلبين والصين . وإذا نظرنا إلى أفريقيا . وإلى خريطة الأديان فى تلك القارة الكبيرة ينتاب البعض أضغاث أحلام عن إمكانيات البعث الإسلامى وانتشاره فى هذه القارة العظيمة .

إن إعطاء مثال بعض الجوانب التفصيلية لما تقدم . فى الوقت المناسب . قد يساعد فى النهاية على إلقاء مزيد من الضوء عليه ويتيح لنا نفاذ البصيرة بشكل أفضل .

فى عام ١٩٥٦ كانت مصر هى التى طالبت بعقد مؤتمر لجميع الدول البحرية المهتمة . وكانت مصر هى التى أيدت تحييد القناة ولكنها رفضت التدويل . أما البريطانيون بعد أن فقدوا سيطرتهم على مصر والقناة فقد اعترضوا على عقد مؤتمر موسع وأصروا على التدويل بدلا من مجرد التحييد المنصوص عليه فى معاهدة

١٨٨٨ ، كما عكست بريطانيا أيضا موقفها بالنسبة لجنسية شركة قناة السويس ، عندما ذكرتها مصر بذلك .

إن الجوانب الاقتصادية والعامة لأزمة السويس قد ضعفت نتيجة الاعتقادات والمواقف السياسية المتناقضة فى أساسها .

ومن هذه ما كان سائدا بوجه خاص :

فالبريطانيون والفرنسيون ينوون الإطاحة بعبد الناصر أو على الأقل تحجيمه . ودالاس الولايات المتحدة يشعران أساسا بنفس الشعور .

وكانت مشاعر جزء من الزعامة البريطانية ـ كما صورها لويد ـ تقوم على أن حلفاءنا الأمريكيين ليس من السهل التعامل معهم . وكانت المشاعر البريطانية والفرنسية المتزايدة هى أن دالاس سيستمر فى تقديم اقتراح تلو الآخر حتى يصبح من العسير القيام بعملية عسكرية .

وكان دالاس يقول : إن عبد الناصر مستحيل التعامل معه وأنه عدو بينما رفض إيزنهاور فى مؤتمر صحفى فى ٥ سبتمبر ١٩٥٦ بشكل كامل وبلا قيد أو شرط استخدام القوة ، بالرغم من أنه فى بعض الحالات الأخرى لم يصل إلى حد نبذ استخدام القوة ولكنه جعله مشروطا باستنفاد كل الوسائل السلمية ومنها تلك التى تتم عن طريق الأمم المتحدة .

وقد أبلغ همرشولد سلوين لويد أنه يعتقد أن عبد الناصر أشبه بهتلر عام ١٩٣٥ وأن السوفيت لا يريدون أن يصبح عبد الناصر قويا .

ولكن همرشولد غير فيما بعد إلى الأحسن تقييمه للحاكم المصرى . ويرجع ذلك جزئيا إلى أنه بدأ يفهم بوضوح أكثر قضية مصر والجوانب الحسنة فى شخصية جمال ، كما يرجع جزئيا إلى عدم موافقة همرشولد أو سخطه على بعض سياسات وأعمال خصوم عبد الناصر . ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يتمتع به همرشولد من تفكير سليم واحترامه الحرفى لقواعد اللعبة . وعادة لم تكن الأمور تمر

بسهولة بينه وبين عبد الناصر . ولكن بعد الغزو الثلاثى لمصر كان يرى أنه الضحية .

وخلال كل هذه المواقف والأحداث شعر معظم الناس أن الولايات المتحدة تعتبر نفسها ــ وإن لم يكن علنا ــ الوريث المنطق والتاريخى للفرنسيين والبريطانيين فى الشرق الأوسط . وهذا يوضح جزئيا ــ من بين أشياء أخرى ــ غضب إيزنهاور الشديد عندما علم بنبأ الهجوم الثلاثى على مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .

وأذكر فى هذا الشأن أن دالاس أبلغنى فى منتصف أكتوبر ١٩٥٦ : لابد أن تكونوا على حذر يبدو أن الفرنسيين على وشك أن يشنوا الحرب الجزائرية فى مصر .

وحاول دالاس أيضا أن ينفى الاتهام بسوء نية الولايات المتحدة عندما سحبت عرضها للاشتراك فى تمويل السد العالى . فأبلغنى أنه وحكومته ــ وبعد دراسة دقيقة ــ قد توصلا إلى نتيجة بأن الاقتصاد المصرى الذى كان منهكا من قبل لن يتمكن من احتمال العبء الإضافى للنصيب المصرى من تكاليف السد العالى وأذكر فى هذا الصدد أننى عندما قابلت نيكسون فى البيت الأبيض فى ربيع ١٩٦٩ . أنه قال : إنه شعر بالأسف من انسحاب الولايات المتحدة بالنسبة للسد العالى . « ولو كان القرار بيدى عندئذ لما فعلت ذلك . ولكن كنت نائب الرئيس فى ذلك الوقت وكان الأمر كله فى يد الرئيس إيزنهاور وجون فوستر دالاس أساسا » . وفى مناسبة أخرى ، قال نيكسون إن دالاس كان الجنرال الحقيقى فى هذه النقطة . وأضاف أنهم لم يكونوا يقدمون على أى شىء فى هذه الفترة دون الرجوع أولا لدالاس . ومن سوء الحظ أن دالاس لم يكن يرجع لشخص آخر .

وعند هذه النقطة تخطر بباله مقارنة تكاد تكون حتمية بين نيكسون ودالاس . لقد عرفت ريتشارد نيكسون منذ أن كان نائبا للرئيس . وبالرغم من احترام إيزنهاور له كنت أنظر إليه على أنه لايزيد عن كونه سياسى محترف ماكر .

بالرغم من أنه أحيانا كان يثبت نفسه كرجل دولة قدير ، وخاصة فى الميدان الدولى . وأتوقف عن أى تعليق آخر فى هذا الخصوص . وأنا أضع فى اعتبارى ما تعرض له نيكسون من مصائب ومحن .

وكان جون فوستر دالاس ماكرا أيضا ، بل إنه كان مخادعا كما وصفه أحد الكتاب ، ولكنه لم يكن بلامبادئ مثل نيكسون ، وكان رجل دولة له معتقداته العميقة ـ حتى وإن كانت خاطئة أحيانا ـ مع شعور دينى .

إن الجو الذى سبق وتواكب مع عرض مسألة قناة السويس على مجلس الأمن فى ١٩٥٦ ، كان كئيبا .

وكما نتذكر فإن الحكومتين البريطانية والفرنسية أرسلتا فى ٢٥ سبتمبر خطابا إلى رئيس مجلس الأمن لعقد اجتماع للمجلس لبحث شكوى مشتركة تزعم أن مصر قد خرقت معاهدة ١٨٨٨ .

وفى ٢٤ سبتمبر تقدمت مصر لمجلس الأمن بطلب عقد المجلس لبحث الأعمال المدبرة ضد مصر من جانب بعض الدول وخاصة فرنسا والمملكة المتحدة .

أعمال ضد مصر من جانب بعض الدول ولاسيما فرنسا والمملكة المتحدة ، مما يشكل خطورة على السلام والأمن الدوليين وتعتبر انتهاكا خطيرا لميثاق الأمم المتحدة .

وكان من المفترض أن هذا جزء من مجهود لضمان تسوية سلمية . ولكن يقول سلوين لويد ـ ضمن أشياء أخرى : أرسل إيدن من باريس رسالة إلى لندن يذكر فيها أنه يشعر أن الفرنسيين وخاصة بينو ، فى حالة نفسية لإلقاء اللوم على أى أحد بما فيها إلقاء اللوم علينا إذا لم يتم العمل العسكرى قبل نهاية أكتوبر .

وقد ادعوا أن الجو سيكون عائقا فيما بعد . وأعلن ارتيابه بأن موليه ـ كما يعتقد ـ يرغب فى التوصل إلى تسوية بشروط معقولة إذا استطاع . ولكنه أبدى

شكه فى أن بينو يريد تسوية سلمية على الإطلاق .

ومن جهة أخرى فقد حاول لويد أن يدافع عن حكومته وموقفه بالنسبة لاستخدام القوة المسلحة . بأن نفى أى تواطؤ أو مؤامرة بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لهذا الغرض . وهذا الأسلوب من لويد رفضه الكثيرون ومن بينهم أنتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى السابق بوزارة الخارجية الذى استقال من منصبه احتجاجا على سياسة بلاده ضد السويس ، وبعث بخطاب إلى صنداى تايمز قال فيه : « لقد بدأ إيدن بتنظيم حملة لإعداد الشعب البريطانى لغزو مصر وإعادة القناة إلى ملاكها الذين لهم حق فيها » .

وفى خطاب موجه إلى الأمة فى التليفزيون أكد أن بريطانيا لن تسمح أبدا بأن تبقى القناة فى أيدى الأجانب ، لأنها حيوية لإمدادات البترول للأمة . وفى الوقت نفسه كان وزير خزانته هارولد ماكميلان يقول إنه يفضل أن يرهن كل الصور فى المعرض القومى على أن يستذله ناصر ، وقال لضيوف حفل العشاء الذين استمعوا إليه إن عدم القيام بشىء يعنى نهاية الأمبراطورية البريطانية ، وأن بريطانيا ستصبح هولندا أخرى إذا خضعت . ومن حسن الحظ أن السفير الهولندى الذى سمع هذه الملاحظة ، كان يتمتع بروح الفكاهة .

إن أولئك الذين عارضوا تزايد الروح الحربية عند رئيس الوزراء وجماعة الداخلية ، قد أطلق عليهم إيدن بغضب الشقيقات الضعيفات وعندما جاءت أنباء من واشنطون بأن فوستر دالاس ليس مسرورا على الإطلاق من الطريقة التى تم بها الأحداث فى بريطانيا ، وأنه سيرسل روبرت مورفى ليخفف الأمور ، قال بعنف إنه يفضل أن تنهار الأمبراطورية فجأة بدلا من أن يأكلها الجرذان .

ولكنه فى الواقع لم يكن قلقا من دالاس البغيض . فعندما يصل الأمر إلى الجوهر ، فإن إيزنهاور هو المسئول عن الولايات المتحدة ، وإيزنهاور لن يخذله ومهما كان الأمر ، فإنه صديق وزميل قديم وهو يعرف ما هى الحرب . وكان

ماكميلان يكرر : إذا قامت بريطانيا بعمل فإن آيك سيدعها تستمر فيه ، وهذا هو كل ما تحتاجه .

ومن المعتقد أن هذا التقدير الخاطئ كان أكبر تقدير دفع البريطانيون ثمنه غاليا . وسأل إيدن آيك هل يمكن أن يذهب إليه ويتشاور معه فى الموقف . وقال الرئيس : بالتأكيد يا أنتونى . تعالى ولنتحدث .

وكان هوفر لايرى أن هذا إجراء سليم . وكان فوستر يرى هذا أيضا . وقد أرسل برقية عاجلة إلى الرئيس يؤنبه فيها على أنه اتخذ هذه الخطوة دون استشارته ويقترح بقوة أن يتراجع عن دعوة رئيس الوزراء البريطانى . ومع هذا فإن إيزنهاور فعل ذلك بخضوع .

وفى الصباح التالى للانتخابات ، وبعد أن عاد دوايت د . إيزنهاور مرة أخرى إلى البيت الأبيض بأصوات كاسحة تدل على الثقة ، ذهب رئيس الجمهورية إلى وولتر ريد ليقابل وزير خارجيته . لقد كانت تمر بآيك لحظات يشعر فيها بالملل من رئاسة الجمهورية ، ولكنها لم تكن هذه اللحظة . لقد كان من الواضح لماكومبر ، الذى كان حاضرا ، أنه كان سعيدا بإعادة انتخابه . واتجه إلى جناح الرئاسة ، الذى وضعه تحت تصرف فوستر ، وجلس على كرسى منخفض ، وهو ينظر إلى فوستر وهو يستند على وسائد سريره العالى .
قال ماكومبر بعد ذلك . كان هذا بعد أيام قليلة من دعوة رئيس الوزراء إيدن ثم سحب الدعوة . كان رئيس الجمهورية يعلم أنه لم يكن التصرف الصائب فى ذلك الوقت . لقد كان يعتقد أصلا أنها فكرة طيبة ثم أقنعه مستر دالاس أنها ليست فكرة طيبة ... وكان من الواضح أن رئيس الجمهورية ، بالرغم من أنه يشعر بالإثارة لإعادة انتخابه . إلا أنه يشعر بشىء من العصبية من هذا اللقاء .

ويبدو لماكومبر أن آيك كان يحتاج إلى استبعاد مسألة من الطريق قبل أن يتحدث عن رئاسة الجمهورية . وهذا الأمر هو أن يعتذر بالنسبة لمسألة إيدن .

قال فى الواقع : فوستر ، إننى أفهم لماذا اعتبرتها فكرة سيئة . ولماذا كان لابد من إلغائها ، وكما تعلم فإنها أُلغيت . إننى أتفق معك تماما . ولكنى أريد أن أوضح لك ما كان يدور بذهنى عندما فعلتها

ثم دخل بعد ذلك ولمدة طويلة فى لغو فارغ عن الصداقات القديمة والزمالة فى الحرب ، والتحالفات القديمة . وما إلى ذلك . ويتذكر ماكومبر دائما أن فوستر كان ينظر إليه من أعلى بينما الرئيس يتلعثم . ولم يكن هناك تعبير على وجه وزير الخارجية . وكل ما قاله فوستر : حسنا ياسيادة الرئيس . أعتقد أنه كان من الصواب إلغاؤها .

وكان من الواضح أنه يريد أن ينتقل إلى موضوعات أخرى . ولكن الرئيس واصل الحديث فى نفس الموضوع .

واستطرد قائلا : بعد أن طلبت منه وأنت تعرف لماذا فعلت ذلك . أعتقد أنه كان يتوقع .

وقاطعه فوستر بحزم : فهمت . بلهجة تشير إلى أنه بالنسبة إليه فإن الموضوع يعتبر منتهيا . ويقول ماكومبر إنه أبلغ فوستر بعد ذلك أنه يعتقد أنه كان خسيسا لأنه كان صارما فى صباح اليوم التالى لانتخاب رئيس الولايات المتحدة .

وفى الوقت الذى ساد فيه شعور عام لخيبة الأمل فى كثير من الدوائر الغربية بالنسبة لتناول مجلس الأمن لأزمة قناة السويس . صرح الرئيس إيزنهاور فى مؤتمر صحفى فى ١٣ أكتوبر وبعد قرار المجلس قائلا : إن لدى إعلان . أفضل إعلان يمكن أن أذيعه على أمريكا هذه الليلة . إن التقدم الذى تم إحرازه اليوم فى تسوية النزاع حول السويس بعد ظهر اليوم فى الأمم المتحدة أمر يدعو للسرور . لقد تقابلت مصر وبريطانيا وفرنسا عن طريق وزراء خارجيتها واتفقوا على مجموعة من المبادئ التى سيتفاوضون بناء عليها . ويبدو أن الأزمة الكبرى قد انتهت . لا أقصد أن أقول إننا خرجنا تماما منها . ولكنى تحدثت إلى وزير الخارجية قبل أن أحضر إلى هنا الليلة . وأقول لكم إنه فى قلبه وفى قلبى دعاء عظيم بالشكر .

هذا التصريح صدم كثيرا من الغربيين وبينهم لويد . بل دالاس نفسه . ولم تكن صدمتهم أقل بل أكثر عندما رفض إيزنهاور فى مؤتمر صحفى آخر فى ٥ سبتمبر رفضا باتا وبلاقيد أو شرط استخدام القوة .

وكما سنرى بوضوح أكثر فإن فلسفة ـ بل بدقة أكثر ـ فلسفات اللعبة يمكن أن نشرحها كما يلى :

من جانب دالاس فقد ناور ليؤخر وليكون الوقت تحت تصرفه لإيجاد حل يكون سلميا ، وبمنع استخدام البريطانيين والفرنسيين للقوة ، يمكنه منع عودتهم الاستعمارية إلى الشرق الأوسط

والطريقة التى اتبعها دالاس فى هذه اللعبة كانت مشابهة للاعب ورق ماهر يعرف كيف يستخدم أوراقه ، أو لاعب بلياردو يضرب الكرة الأولى لتضرب كرة ثانية فيصل إلى الكرة الثالثة .

وعلى الجانب البريطانى والفرنسى فإنهم كانوا يهدفون إلى عدم السماح لعبد الناصر بالوقت الكافى ليؤكد سيطرته على القناة وبناء دعاية على نطاق العالم لصالحه ، والإضرار بالموقفين الفرنسى والبريطانى . وفضلا عن ذلك ، على الأقل فى عقلهم الباطن ، السماح بإمكانية استخدام القوة وتدميرهم لعبد الناصر واستعادة مواقعهم فى الشرق الأوسط .

وموازيا لذلك فإن العقل المصرى والعمل المصرى تم توجيهها لإتاحة مزيد من الوقت لتأكيد سيطرة مصر على القناة . وإثبات قدرة مصر على إدارة القناة . وتكثيف جهودها فى مجال العلاقات العامة فى العالم كله والحصول باطراد على مزيد من الأصدقاء العديدين وتفاهم أفضل .

واعتمد دالاس على المادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة التى تنص على أن جميع الوسائل السلمية يجب استنفادها قبل اتخاذ أية اجراءات أخرى . أكثر من اعتماده على المادة ٥١ التى تحتفظ للدول بحق الدفاع عن النفس .

وعبر إيزنهاور مرارا عن نفسه بنفس المعنى . وفى إحدى المناسبات فى ١٢ أغسطس ١٩٥٦ أبلغ بعض أعضاء الكونجرس بأنه قد تشجع بالموقف الذى اتخذته انجلترا عندما عارض هيوجيتسكل استخدام القوة العسكرية ضد ناصر إلى أن تستنفد كل المحاولات الممكنة للتوصل إلى تسويات سلمية .

وكانت الطريقة التى يعالج بها دالاس الأمور أحيانا ، بل فى معظم الأحيان ، محيرة لدرجة أنها كانت تثير سخط الكثيرين ، ومنهم بعض أصدقائه أما هل كانت طريقته هذه مقصودة أم لا فإنها مسألة تخضع للتخمين . وهناك بعض الأمثلة التى قد تساعد على إظهار ذلك .

فنى النصف الثانى من أكتوبر كان إيدن يشير إلى دالاس بشكل غير مباشر ، معربا عن نفاذ صبره من مسار الإجراءات عندما قال : لقد خدعنا طوال شهور عديدة من المفاوضات ، من ذريعة إلى ذريعة ، ومن خديعة إلى خديعة ومن حيلة إلى حيلة .

وذات يوم أعطى دالاس نفسه مثالا مسليا ، ولو أنه قد يثير ضيق البعض . فنى ١٦ أكتوبر عقد مؤتمرا صحفيا وصل فيه إلى النقطة التى قال فيها : « إن الكلمات قد يكون لها معان مختلفة بحيث يصعب جدا التعبير عن أفكارنا بكلمات دون التعرض لخطر سوء تفسيرها . إن كلمة الإشراف هى كلمة تحتوى على سلسلة كاملة من المعانى . وإذا كنت تشرف فعلا على عملية فقد تتواجد فعلا فى البقعة التى تراقب فيها ، بل وتديرها ، بحيث لا ألصق أى سحر بكلمة إشراف . كما حدث مع كلمات أخرى استخدمت مثل مشاركة وهكذا . وأعتقد أن المشكلة العملية هى أن تكون لديك اتصال دولى كاف بالأعمال اليومية للقناة بحيث لاتستطيع أن تصل إلى نوع التفضيل المستتر أو التمييز الذى أشير إليه » .

وفى هذا الموضوع ، كما فى موضوعات عديدة أخرى ، وبالرغم مما قد يحدث من أخطاء أو خلافات فإننى ودالاس كنا أحيانا نجد لغة مشتركة بيننا وكقاعدة كان كل منا واضحا للآخر . إن ما كان يفعله دالاس ، سواء أكان خطأ أو

صوابا . كان له جذور عميقة فى شعوره ببراعته الفائقة فى التمثيل ، ومشاعره الدينية . ومهما كان دالاس . فقد كان يقوم بدوره حتى نخاع عظمه .

أما سلوين لويد فقد كان يعطى الانطباع بأنه يحب العمل الشاق بوجه خاص وأنه بوجه عام حسن النية . وإن كان من العسير عليه أن يخفى أنه مثقل بعبء القضية التى يترافع عنها . ويحاول أن يحصل على أفضل النتائج من أى موقف سيء . ومع هذا فقد كنت أشعر بأن الود المتبادل كان تلقائيا وحقيقيا .

وبالنسبة لكريستيان بينو كنت أجده على مايظهر أكثر ثقافة من نظيره البريطانى ومن الطبيعى أن يكون انتمائه أكثر للقارة الأوروبية . وكانت اللقاءات بيننا — تبدو لى — مثيرة . وتبدو وكأنها تحديا بالنسبة للصبر من جانبى . وإلى جانب دماثته فقد كنت أشعر بشكل واضح أن ما يهم بالنسبة لفكرة هو ما يوجد فى الجزء الخلفى من عقله . وأنه غالبا ما يذكر محدثه بالمثل الفرنسى بأنه لا يوجد أصم غير ذلك الذى لايريد أن يسمع .

وللقيام بدوره . كان نهرو يتبنى موقفا بين الالتزام والابتعاد . فى إحدى المناسبات ، كما سبق أن ذكرت . تحدث بما يفيد أنه لو كان مكان عبد الناصر للعب اللعبة بشكل مختلف . ولكنه كان يعارض بشكل مطلق استخدام القوة ضد مصر وقد اقترح أيضا أن تذهب إسرائيل إلى المحكمة الدولية بالنسبة لدعوى مصر إنها فى حالة حرب مع إسرائيل ، ومن ثم لها الحق فى منعها من المرور . وعن هذا كتب أحد المعلقين أن نهرو ، فيما عدا ذلك ، كان هادئا مثل إله من الرخام بالنسبة لمتاعب إسرائيل . ولا يمكن أن يطلق على كريشنا مينون — حقا — أنه الأنا الثانية لنهرو . ولكنه لعدة سنوات استطاع بمقدرة — وإن كان بعصبية فى غالب الأحيان — أن يعبر فى المحافل الدولية عن سياسات نهرو وسياسات الهند .

وقد وصف دالاس متفكها أحد جوانب أسلوب مينون عندما أشار إلى طنين مينون .

وقد كتب لويد فى كتابه السويس ١٩٥٦ عن مينون بين أشياء أخرى :

« لقد عملنا معا فى الأمم المتحدة فى كوريا بما أعتقد أنها نتائج مرضية . لقد كان رجلا غريبا ، مكروه عالميا ولا يدعو للثقة . ولكنه عندما يريد ، كان له سحر خاص وكان حاد الذهن . ولم يكن يناقش معى أية مشاكل دون أن أشعر فى ذهنى فى نهاية حديثنا أن فكرة جديدة قد طرحت أو أن بعض الضوء قد ألقى على شىء كان غامضا » .

إن ذكرياتى عن التعاون وبعض المشاجرات الخفيفة مع مينون تدلنى على أن تعليق لويد كان صحيحا . فمن جهتى آليت على نفس وأقنعت زملائى العرب أن يكونوا صبورين وأن يحاولوا أن يبقوا مينون والهند فى جانبنا . بالرغم من بعض تصرفاته التى كانت كريهة وتحتمل معنيين معا .

وعن مينون مرة أخرى يقول لنا لويد : وبالرغم من ذلك . فإن مينون كان دائما يجعل كل شىء معقدا فيما بعد .

كان مينون يشرح آراء نهرو . فالنزاع على إلغاء الامتياز لايجب أن يسمح له بالتطور إلى أزمة دولية . ونهرو لم يوافق على أسلوب ناصر فى تأميم القناة . وأضاف مينون أن ناصر أمامه الكثير جدا ليتعلمه . ولكنه كان هادئا ومعقولا بعد انقلابه . وقلت إن هتلر كان مثله تماما بعد انقلابه . وكان احتلال الراينلاند مثالا . فلو كان كبح جماح هتلر . لتعلم ضرورة احترام النظام الدولى .

وأضاف لويد : إن كريشنا مينون لم يصل إلى نيويورك ليقوم بالدور الذى ارتآه لنفسه وهو إثارة المتاعب . فقد استطاع مرة أن يحقق الوحدة . وقد أبلغنى فوزى وشبيلوف وهمرشولد أنهم أسفوا على تدخله .

وعلق هيكل على علاقات مينون بهمرشولد وبى كما يلى : كان بين الجانبين ــ محمود فوزى وهمرشولد ــ من جهة وكريشنا مينون من جهة أخرى . عدم ثقة متبادل . ولم يكن ذلك أنسب شىء لبحث قضيتنا . فالهند ــ إلى جانب الاتحاد السوفيتى ــ كانت أقرب إلى وجهة نظرنا . ولكن فوزى وهمرشولد شعرا أن كريشنا

مينون كان يعمل بطريقة مسرحية ، وأن جهوده كانت موجهة أساسا إلى إبقاء نفسه فى الضوء بصرف النظر عما إذا كان ذلك ضروريا أم لا ، مفيدا أم ضارا .
ويضيف هيكل : وأتذكر أن كريشنا أبلغنى مرة فى نيويورك ماذا يفعل داج ومحمود ؟ إن داج هو الاسم السويدى لمحمود ومحمود هو الاسم المصرى لداج .

وفى هذا الصدد كتب هرمان فاينر فى كتابه « دالاس » عن السويس أنه كان من المقرر أن تحضر الهند مؤتمرات لندن ، وكان يبدو أنها تريد أن تكون مثل روسيا خصما للقوى الغربية هناك . ولم يكن وزير الخارجية دالاس مولعا بالبانديت نهرو أو كريشنا مينون . وربما لم تكن قد وصلته بعد ما يثار من تعليقات ساخرة فى السلك الدبلوماسى عن هذين الرجلين . فقد كان يقال : إن نهرو هو دوريان جراى ، بينما مينون هو صورة دوريان جراى . وعلى أى حال لم يكن مولعا بهما . فهو يعرف مدى الكراهية العميقة الممزوجة بالاحتقار التى يحملها مينون للولايات المتحدة . كانت كراهية مريرة مدمرة لما يعتبره مدنية أدنى ، هذا إن كانت مدنية على الإطلاق . وقد حاول مينون أن يؤثر على نهرو بالنسبة للاستخفاف بالولايات المتحدة عندما كان نهرو فى طريقه لزيارة الولايات المتحدة لأول مرة . ولابد أن مينون قد شب على هذا ، وفى انجلترا تكون لديه الاعتقاد بأن لديه مقدرة وقوة روحية لحكم بريطانيا أو العالم ، أفضل من رئيس الوزراء ستانلى بولدوين مثلا ، أو ماركيز ساليزبرى أو أنتونى إيدن ، أو باقى هؤلاء ، لولا بلد المنشأ ولون جلده . ومهما كان مدى صدق اعتقاده فإن الميزان الاستراتيجى للعالم وقتئذ ، وضعه فى مركز نفوذ أدبى رئيسى فى الأمم المتحدة .

وكانت أخلاقيات نهرو ، التى يشاركه فيها مينون صلبة وعلى أساس متين ومعبر عنها تعبيرا بليغا وفخما مثل مسيحية الولايات المتحدة . وكانت النتائج بالطبع مختلفة تماما ، وخاصة فى الشئون الخارجية ، لأن نهرو ومينون كانا من دعاة الهند أولا .

وفى أعقاب انتصار ناصر ، ظهر ما عرف بمبدأ إيزنهاور ، الذى كان من

المفترض أنه يردع العدوان الشيوعى فى الشرق الأوسط ولكن فوستر دالاس اعترف فى مجالسه الخاصة أنه موجه ضد توسع عبد الناصر فى الدول العربية أكثر منه ضد التعديات السوفيتية . وكان جوهر المبدأ هو أن العدوان المسلح الصريح من أية دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية سيواجه بالقوات العسكرية للولايات المتحدة . وفى ظل تلك الظروف . فإن بعض حلفاء أمريكا كانوا يعتقدون أن المسألة تبدو وكأنها إحساس من أمريكا بالخطأ نتيجة الإهمال السابق .

وفى عام ١٩٦٨ . كانت بعض الدوائر الغربية تعتبر أن دعاية عبد الناصر تبدو وكأنها على وشك أن تحرض القوات المسلحة اللبنانية . وفى الأردن والعراق كان هناك عصيان فى أول مراحلها ولكنه كان نشيطا . وفى بغداد قتل الملك ورئيس وزرائه نورى السعيد وسحلت جثتهما فى الشوارع . كما أن الجماهير قتلت رئيس وكالة المخابرات المركزية المحلى يوجين بيرنز .

وكان هناك تساؤل : هل كان ذلك عدوانا مسلحا صريحا من « دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية » ؟ أم أنه ـ كما هو فى مسألة السويس . مجرد ظهور آخر للقومية العربية ؟ لقد قيل إن دالاس ذهب إلى الكرة الأرضية المضيئة فى مكتبه بوزارة الخارجية وأخذ يدرسها فى صمت وهو يبرى قلما من الرصاص بمطواته . وغالبا ما كان يفعل ذلك عندما كان يفكر فى اتخاذ قرار . تم استقر رأيه . فذهب إلى البيت الأبيض وأبلغ رئيس الجمهورية بأن ينفذ مبدأ إيزنهاور . وكان يبدو له أن المصالح الأمريكية قد تهددت . وإذا سمح للموقف بأن يتدهور . فإن الشرق الأوسط كله سينهار وينقلب إلى فوضى . وماذا نتج عن الفوضى سوى الشيوعية ؟ ولهذا ...

وقد صدرت تعليمات إلى الأميرال ارلى بيرك وبدأت تصدر الإشارات الضوئية للأسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط . وفى هذه المرة كانت الأوامر خاصة بلبنان . حيث سينزل جنود الأسطول فى بيروت العاصمة . ويحتلون المدينة . ووصفت المهمة بأنها حيوية وعاجلة . ونزل جنود الأسطول إلى

الشاطئ وهم فى حالة تأهب كامل للمعركة ، وهم يتوقعون أن يقابلوا عناصر من الجيش السوفيتى . أو على الأقل بعض المصريين المحاربين . ولكنهم وجدوا بعض الجميلات اللبنانيات يأخذن حمامات الشمس وينتظرون أن يحيوهن بدلا من ذلك .

وفى اللحظة التى تقرر فيها نزول القوات فى لبنان ، التقط رئيس الجمهورية سماعة التليفون وطلب لندن ليبلغ رئيس الوزراء ماكميلان بقراره .

وصاح ماكميلان : « إنكم تقومون بسويس أخرى بدلا منا » ويتذكر رئيس الوزراء البريطانى فيما بعد أنه بعد أن قال ذلك « ضحك رئيس الجمهورية » . ولاشك أنها كانت ضحكة جوفاء .

ومن الواضح أنه لم يكن أحد يدرك فى تلك اللحظة أن المملكة المتحدة ستسير على نفس المنوال بطريقة موازية فترسل بعض قواتها إلى الأردن ، فى أعقاب الثورة العراقية ، وأنه بعد ذلك بقليل نسبيا ، ستنسحب القوات البريطانية والأمريكية من الأردن ثم من لبنان .

النظر إلى الأمام

إن الجزء المباشر والأسهل من هذا التمرين هو النظر إلى الأمام نحو التحسين الحالى وفى المستقبل للقناة والذى يهدف إلى جعلها أصلح للملاحة الدولية ، من ناحية المرور والخدمات . وكانت القناة بالفعل أو كانت على وشك ــ مع بعض الاستثناءات ــ أن تكون قادرة على استقبال كل أنواع الناقلات وغيرها من السفن ، كما أن الخدمات المتصلة بذلك والتى كان يمكنها تقديمها قد كادت أن تصبح الآن ممتازة . وفضلا عن ذلك ، فإن مدن بورسعيد والاسماعيلية والسويس ، وجزء كبير من المنطقة الواقعة حول القناة كانت تنمو لتصبح أكثر استعدادا لأغراض التجارة والأحواض الجافة والصناعة والزراعة بالإضافة إلى السوق الحرة وصناعات تكرير البترول والصيد .

ومنذ إعادة فتح القناة فى ٥ يونيو ١٩٧٥ كان من الواضح للجميع أن مصر مصممة على إعادة تشييد وتأهيل كل منطقة القناة ـ وجعلها منطقة استقرار وسلام .

وإذا نظرنا إلى الأمام فإن كلا من البترول والسلع الأخرى من المتوقع أن تزيد بشكل ملحوظ بالنسبة للتطور الصناعى والتجارى ـ سواء فى أوربا أو أمريكا أو آسيا أو أفريقيا وغيرها من أنحاء العالم .

إن تنمية ما يسمى عادة العالم الثالث قد بدأت بالكاد ولا شك أنها ستقوى حتما فى السنوات التالية سواء اختيارا أو بالضرورة .

وبوجه عام يبدو أن آسيا تسير بشكل أفضل من أفريقيا فى هذا الشأن . ومع هذا فإنه باستثناء قليل من الدول وخاصة اليابان ، فإن دول هاتين القارتين ومعظم دول أمريكا الوسطى والجنوبية لابد أنها تشعر بضرورة الإسراع بالتنمية إذا أرادت لشعوبها الخروج من دائرة التخلف والانضمام إلى الأسرة الكبرى التى تتكون من الدول المتقدمة والمتطورة ـ وبالتوازى مع هذا ـ فإن الدول المتقدمة تدرك بشكل متزايد الأهمية الحيوية لتوسيع وتعميق ميادين الإنتاجية الكافية والرفاهية فى العالم ـ وهى الميادين التى ستصبح أسواقا أفضل مصادر للتموين بشكل لا يضاهى .

وهذا الإدراك ـ بالنسبة للشرق الأوسط ـ يجعلنا ندرك ضرورة إقامة ودعم السلام والإنتاجية المحسنة كثيراً فى المنطقة ـ لأن البديل هو أهوال التدمير البشعة والأزمة الاقتصادية الطاحنة ـ التى سيأتى بها للمنطقة انفجار جديد له أصداء رهيبة فى كثير من أنحاء العالم ـ ولا يجب أن نبخل بجهد ـ بقدر ما يستطيع الإنسان ، لمنع حدوث ذلك .

وحتى فى الوقت الراهن ، بعد أكثر من ٢٣ عاما من تأميم مصر للقناة ـ فإن معظم الناس المهتمين بهذه المسألة لازالوا يتذكرون كيف أنه ثارت شكوك حقيقية أو مفتعلة بالنسبة لثبات مصر فى إدارة القناة .

إن القناة مثلها مثل بذرة أو شجيرة يعتنى بها جيدا . فتنمو وتستمر فى النمو . لما فيه خير مصر والعالم . والقناة اليوم كافيه للتجارة الدولية أكثر بكثير من قبل . مما يدل على التقدم الذى يعطى الأمل فى الاستمرار . وفضلا عن ذلك . فإن منطقة القناة أعيد بناؤها بحيث أصبح الحاضر أكثر ازدهارا . والإنفاق تحت القناة التى تصل الجانب الغربى بسيناء حفرت ، وأنبوب البترول الذى يصل السويس بالإسكندرية تم وأصبح إضافة هامة لقدرة القناة على نقل البترول عبر الأراضى المصرية .

ومن البداية منذ التأميم ، فإن نجاح مصر فى إدارة القناة كان بالنسبة لها هام للغاية . بل حيوى . فبدونه ما كان يمكن لأى مناقشات أخرى أن تجدى . ولا نهار الهيكل الكامل لموقف مصر وسياستها تجاه القناة .

ومع هذا فإن نجاح مصر فى إدارة القناة لم يتركنا والعالم بدون أى أسئلة أخرى . هل أصبحت القناة منذ ذلك الوقت محصنة ضد الحروب والإغلاق بحيث تستمر فى القيام بدورها العظيم والمتنامى بالنسبة للسلام والازدهار العالميين . هل سيكون ذلك ممكنا على الإطلاق . بينما عدد كبير من الناس فى الشرق الأوسط محرومون من حقوقهم الوطنية والإنسانية ؟ .

إن أحد المعلقين وقع بحرفى س . هـ . فى لاكسبريس يومى ١١ و ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ كتب — من بين أشياء كثيرة يقول : إن صراعا إسرائيليا عربيا خامسا يمكن أن ينشب إذا فشلت إسرائيل ومصر فى الاتفاق . وأضاف : بالنسبة للولايات المتحدة ، التى تستورد حوالى ٤٠ فى المائة من احتياجاتها البترولية . فإن إغلاق الصنبور العربى ستكون له عواقب وخيمة . وبيقين فإن الصدمة ستعجل بوصول الاقتصاد العالمى إلى كساد جديد وعميق ؟ .

ولا ينبغى أن نصاب بالذعر الشديد . ولكن علينا جميعا أن نواجه الحقائق وأن نزن الأحداث النهائية . إلى أى مدى تستطيع شعوب الشرق الأوسط والعالم أن تتحمل التضحيات البشرية والمادية إذا نشبت حرب جديدة فى المنطقة ؟

وكيف يؤثر ذلك ــ من بين أشياء أخرى خطيرة للغاية ــ على موقف البترول والطاقة فى العالم وهو الموقف الذى أصبح بالفعل خطيرا ومحفوفا بالمخاطر؟ هل يمكننا نحن دول الشرق الأوسط ودولا أخرى عديدة . أن نتحمل ذلك؟ إن ثمة تحديد علينا جميعا أن نواجهه . ومسئولية لا يمكن أن ننحيها جانبا . وسيتوقف الكثير على من سيثبت أنه الأكبر: الزعماء أم الأحداث .

وقد يكون من المناسب فى هذا الخصوص أن نلخص عدة حقائق جديدة . فى حوالى منتصف ١٩٨٠ . ستستقبل القناة أكثر من نصف أسطولى العالم من الناقلات والسفن التجارية . ومن المفترض أن أول ناقلة حمولة ١٥٠ ٠٠٠ طن ستعبر القناة من الجنوب إلى الشمال يوم ٥ يونيو ١٩٨٠ . وفى حوالى ١٥ مارس ١٩٧٩ انتهى كل العمل فى حفر جانبى القناة . مع عمليات التبطين لحماية الجوانب النهائية للممر المائى من الانهيار والتحلل .

ولو نظرنا إلى القناة من السماء . من طائرة هليكوبتر مثلا . فإننا نرى بوضوح أكبر أن مشروع التوسيع والتعميق قد خلق قناة أخرى . وأن القناة القديمة تختفى تدريجيا .

إن حوالى ١٠ ٠٠٠ عامل وعدة مئات من المهندسين والأخصائيين والخبراء مشغولون فى إنهاء مهمتهم فى الوقت المحدد .

ومن بين أشياء أخرى فإنهم يستخدمون ٣٦ حفارة عملاقة تساعد أيضا فى خلق مساحات جديدة من الأرض لتكون جاهزة لأغراض البناء . وبوجه عام فإن الهدف هو توسيع القناة بنسبة ١٠٠ فى المائة وتعميقها بنسبة ٥٠ فى المائة .

وقد علق أخيرا المهندس مشهور أحمد مشهور . وهو رئيس هيئة قناة السويس الذى يتمتع بكفاءة عالية على العمل الذى كان يتم وقتئذ فقال : إن البعض قد يميل إلى عدم تصديق المخطط الذى يظهر ضخامة العمل الذى تم إنجازه فى هذه المرحلة الأولى، وأنه يساوى فى حجمه العمل الذى تم خلال القناة

القديمة عندما حفرت لأول مرة ، ويبلغ حوالى أحد عشر ونصف حجم السد العالى . وأضاف : أن هيئة القناة تعمل بنشاط على إقامة شبكة اتصالات على أحدث طراز . وسيصبح من الممكن التحكم فى المرور الكترونيا .

واستطرد مشهور قائلا إن شبكة مماثلة لمنع التلوث على وشك أن يتم إنشاؤها فى سبع محطات لحماية مياه القناة . عن طريق وسائل أخرى وذلك بضخ مواد كيماوية لإزالة البترول الذى تتركه ناقلات البترول التى تدمر جزئيا وتحتاج إلى إصلاح أو لمجرد مرورها .

وهناك مقارنة بين قناة السويس وقناة بنما من النواحى التاريخية والقانونية والسياسية والاقتصادية والعسكرية وقد يكون من المناسب ذكرها هنا .

هناك قاسم مشترك هو فردناند ديليسبس وهو مرتبط ارتباطا وثيقا للمشروعين . فبالرغم من أنه بدأ عندما كان فى الرابعة والسبعين وكانت منطقة بنما من أكثر الأماكن غير الصحية فى العالم ، فإنه لم يستطع أن يستمر حتى النهاية كما فعل مع قناة السويس . وتوقف المشروع عام ١٨٨٩ . ثم استأنف العمل فيه بعد ذلك عام ١٩٠٢ تحت رعاية الولايات المتحدة .

وهناك قاسم مشترك آخر وهو الادخار الكبير فى المسافة والذى تم تحقيقه عن طريق كل من القناتين .

هذا الأمر والأمور الأخرى المتعلقة به هى نقاط تشابه وبعد ذلك بدأت تظهر الاختلافات . وغالبا ماكانت كبيرة .

وبوجه عام فإن قناة السويس كانت النموذج الأصلى لقناة بنما . وأن خلفها تاريخ طويل من المحاولات والشكوك والمناقشات وحتى المؤامرات . وفيما عدا استثناء واحد فإنه لا توجد ملامح تتعلق بالحفر وإنشاء قناة بنما

ومنذ البداية وبعد ذلك استمرت مصر فى إيضاح لا يدع مجالا للشك أنها تمتلك قناة السويس وأن القناة جزء لا يتجزأ من أراضيها وأنها تحت سيادتها .

بينما كانت الحالة مختلفة تماما بالنسبة لقناة بنما التى سيطرت عليها الولايات المتحدة الأمريكية ، ومع مر السنين أصبحت شيئا فشيئا مثار خلاف بين دولة بنما والولايات المتحدة .

وهذا يفسر الأهمية القصوى للاتفاقات التى تم التوصل إليها بين بنما والولايات المتحدة بشأن القناة عام ١٩٧٨ . ولا يوجد أى منافسة حقيقة بين القناتين .

أما عن مدى التحسينات والتوسع . فإن هذا أقل صعوبة نسبيا وأقل تكلفة فيما يتعلق بقناة السويس . أما بالنسبة لقناة بنما . فقد كان هناك تفكير وخطة مبدئية لحفر قناة أخرى فى أمريكا الوسطى فى منطقة أقل وعورة من منطقة قناة بنما .

وبينما نرجو لقناة بنما كل خير . إلا أننا لا نملك إلا أن نقول إن الآمال الكبار لها ما يبررها بالنسبة لمستقبل قناة السويس وتعاظم دورها فى الازدهار والسلام والدوليين .

بعض الشخصيات الرئيسية :

من أبرز الدول المشتركة فى لعبة قناة السويس : مصر وفرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والهند .

والسطور القادمة ستوضح لنا باختصار . وفى شكل عينة . كيف كانت اللعبة تمارس ، وبهذا نلقى بعض الضوء على عدة لاعبين رئيسيين . وذلك بالإضافة إلى ما سبق ذكره عنهم أو عن آخرين غيرهم فى هذا الكتاب .

ففضلا عما كتب عنهم مسبقا هنا وفى أماكن أخرى . فإن كينيث لوف فى كتابه «السويس والحرب التى شنت مرتين» يتحدث عن جمال عبد الناصر فيقول :

«إن معظم الذين قابلوا ناصر . ومن بينهم إيدن ، قد اعترفوا بسحر ناصر

حتى وإن لم يخضعوا له . كتب منزيس إلى إيدن عن ناصر يقول : إنه أبعد ما يكون عن السحر . إنه متناقض إلى حد ما ، مع بعض التصرفات المثيرة للضيق ، مثل تحويل عينيه إلى السقف عندما يتحدث إليك ، وعندما تظهر على شفتيه ابتسامة سريعة الزوال إذا لم يستطع أن يفكر فى شىء آخر يفعله » .

وكتب إيدن بغموض إلى إيزنهاور فى أغسطس ١٩٥٦ عن نظام يخلف نظام ناصر . ولكن يبدو أنه لم يتطور إلى أكثر من صراخه فى التليفون لناتتنج فى مارس : أريد تدميره ... ولا يهمنى إذا أدى هذا إلى فوضى واضطرابات فى مصر .

وقال إيدن : إن نورى السعيد وشاه إيران والملك حسين والسفير الليبى قد حذروه من ناصر .

أما سلوين لويد فقد أطلق على ناصر فى إذاعة له قبلها بيومين أنه شخص يسىء استخدام القومية العربية فى سبيل طموحه الشخصى .

وبعد أن هبت عاصفة السويس قال دالاس : «يجب أن نعادل وزن عبد الناصر لأن له ثقله . ولن ندعه يصبح شبه المعبود للشرق الأوسط » . ولكن الوسائل التى تبناها دالاس لتحقيق هدفه كانت غير حكيمة ، كما أنها نفذت بطريقة سيئة . ومثال ذلك محاولته أن يبنى الملك سعود الذى كان معروفا أنه غير بارع وأنه يفتقر إلى الزعامة ذات الثقل .

وعن دالاس قيل : إن المشكلة معه هى أنه يبدو أنه يريد أن يكسب كل رهان . وكان على استعداد لأن يعد بالمعونة العسكرية والاقتصادية لدول حلف بغداد ولكنه كان يرفض رفضا باتا أن ينضم إليه . وكان على استعداد لأن يبحث الوسائل لتخفيض الدعم الاقتصادى لناصر ، ولكنه كان مصمما على تجنب أى مظهر بأنه كان يتواطؤ مع حلفائه . وعن هذا قال إيدن إنه حتى دالاس كان يجب أن يعلم أن الخوف من التواطؤ كان السبب فى كثير من الأخطاء فى دبلوماسية ف . د . روزفلت أثناء الحرب .

وفى هذا الصدد ، قد يكتشف المرء ـ ربما لدهشته ـ موقفا مشابها فى تاريخ الولايات المتحدة بالنسبة للأحداث التى وقعت منذ زمن طويل . وكمقدمة للمهمة البحرية التى كلف بها قائد البحرية بيرى ، والتى هدفت إلى انفتاح اليابان على العالم الخارجى ، وكان هذا شيئا طبيعيا بالنسبة للولايات المتحدة بالذات . إننا نقرأ فى التعليمات الصادرة إليه فى ١٨٥٢ أنه نظرا إلى أن اليابانيين لا يثقون بالبريطانيين وغيرهم من الأوربيين ، فإنه لابد أن تشرح لليابانيين أن الولايات المتحدة لا علاقة لها فى هذا الشأن بأية دولة أوربية .

إن التعليقات حول دالاس وأسلوبه وأدائه أثناء أزمة قناة السويس وحولها كانت غزيرة ومتنوعة . فمثلا قيل : إنه كان يحبذ حلف بغداد . ولكن عندما قيل له إن نورى السعيد لا يمكن أن يستمر فترة أطول مالم يتم عمل حاسم لإظهار أن سياسته فى حلف بغداد تحقق نتائج فى العراق ، لم يظهر دالاس أنه يأخذ الأمر على محمل الجد .

وسلوين لويد كتب بدوره يقول : إن ازدواج الشخصية هذا كان واضحا فى لندن . فقد كنت أرى عادة ونتتروب اولريتش السفير ، مع وزيره باربور اولدريتش الهاوى ، وهو متحمس لأن يعلن التعاون الأنجلو أمريكى . ومن جهة أخرى فإن باربور رجل وزارة الخارجية الأمريكية المحترف كان يبدو أنه يعتمد على البريطانيين لتنفيذ السياسة الأمريكية ، وهو يتوقع أن مثل هذا التعاون الوثيق يمكن أن يخفى عن الجمهور بل ويجب أن يخفى عن الجمهور .

وحتى نهاية يناير ١٩٥٧ سادت الطريقة الأولى من هاتين الطريقتين وهى طريقة همرشولد ولودج وإيزنهاور . وكان دالاس أيضا يواجه تأنيبا قاسيا من لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ومن لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب . وهنا ، كانت كل أخطائه المفترضة فى الشرق الأوسط يتم تشريحها من كل جانب بمباضع فى غاية المهارة ، وليس على يد الحزب الديموقراطى وحده .

ولكن أحد كبار المسئولين فى وزارة الخارجية البريطانية الذى كان حاضرا

أيضا وهو سير الكسندر كادوجان ، كان ضجرا جدا وكتب فى مفكرته ليلة ١٣ يوليو ١٩٤٢ : ان ج . ف . د . هو أمريكى من النوع العنيف المتسلط الذى لا ترجى منه فائدة ... فليكن الله فى عوننا .

وعن حافة الهاوية قال دالاس : عليك أن تنتهز الفرص من أجل السلام كما تنتهز الفرص من أجل الحرب . يقول البعض إننا وصلنا إلى حافة الحرب . وبالطبع لقد وصلنا إلى حافة الحرب . والقدرة على الوصول إلى هذه الحافة بدون الدخول فى حرب هى الفن الضرورى . وإذا لم تستطع أن تتقنه فإنك حتما تدخل فى حرب . وإذا حاولت أن تهرب وإذا كنت خائفا من الوصول إلى الحافة ، فإنك ضائع .

وهناك تعليقات بأن هذا كان استعراضا للعجرفة وأنه كلف فوستر دالاس غاليا . وقد أسرع منتقدوه إلى الإشارة إلى أن معظم جوانب الأزمة التى زعم أنه حلها بالوصول إلى حافة الهاوية لم تحدث بالطريقة التى قال إنها حدثت بها .

وقد وصفه جيمس روستون فى نيويورك تايمز بأنه خبير على أعلى مستوى فى فن التخبط الدبلوماسى . وأضاف أنه لا يتعثر فى شراك خداعية ، ولكنه يحفر لها على مقاسها . ثم يدوس عليها بعناية ثم يقفز .

ولوحظ أن علاقة دالاس بدوايت إيزنهاور حتى بعد سنوات ثلاث سنوات المنصب ، لم تتوثق أبدا فى حقيقة الأمر . والحقيقة أن رئيس الجمهورية كان غير مستريح إلى حد ما مع نبى العهد القديم ولم تكن لديه رغبة فى أن يدرجه بين دائرة أصدقائه الحميمين . أما عن فوستر فقد كان ينظر إلى رئيس الجمهورية بمزيج من العاطفة والاستخفاف ، وهو أمر عادى بالنسبة لما يشعر به رجل دولة محترف تجاه هاو ضعيف .

ويقول ليونارد موسلى فى كتابه « دالاس » : فى عام ١٩٦٠ كان إيزنهاور قد عاد لتوه من دورة الأمم المتحدة ، وبينما كان فى نيويورك اجتمع مع عبد الناصر لأول مرة . وتشير القصة إلى أن ذلك فعل الأعاجيب بالنسبة لذات إيزنهاور . إن

دوايت إيزنهاور كان دائما من الأبطال العسكريين فى نظر ناصر وهو يضعه فى مصاف الانبروك ومونتجمرى وروملي وباتون ـ وقد ذهب إلى جناح الرئيس فى والدورف استوريا ليشكره على العمل الذى قام به خلال أزمة السويس .

ويقول الرئيس المصرى : إنكم بإتخاذكم هذا الموقف قد وضعتم مبادئكم أمام أصدقائكم .

وقيل إنه استطرد قائلا للرئيس الأمريكى إنه بالرغم من أنه كان يشعر بأن جون ف . كينيدى هو المرشح الأكثر شبابا وتحررا إلا أنه لوكان له حق التصويت لأعطى صوته لريتشارد م . نيكسون فى الانتخابات الوشيكة لأن نيكسون كان نائبا لآيك ومصر لا تشعر إلا بالامتنان نحو الرجلين على موقفهما عام ١٩٥٦ .

أما عن بينو فكتب سلوين لويد يقول : فى كراتشى كان اجتماعى الأول مع بينو وزير خارجية فرنسا . وقد شعرت بالميل تجاهه . فقد كان متحدثا لبقا . ولم نتبادل كثيراً من الكلمات فى المرة الأولى هذه ولكنه كان شخصية مثيرة للاهتمام . وأعتقد أن أحد اهتماماته الجانبية هى كتابة القصص الخيالية للأطفال . وقد أبلغته أن تصريحه الأخير فى القاهرة الذى هاجم فيه حلف بغداد لم يكن متوقعا من صديق وحليف . فقال إنه كان للاستهلاك المحلى .

ويضيف لويد عن موضوع آخر : إن الرواية المذكورة فى كتاب بينو توحى بأن المباحثات الخاصة مع فوزى قد تمت قبل التصويت فى ١٣ أكتوبر على القرار البريطانى الفرنسى ، وأننى لم أكن حاضرا فيها بعد أن غادرت لندن وأنا مثبط الهمة . وقد راجعت السجلات للمرة الثانية وأننى مرتاح لأن روايتى صحيحة . ويستطرد لويد : لقد أخبرنى دالاس أنه أخذ فكرة سيئة عن بينو . فلم يفهم ماذا يقصد . وهو لم يتأثر بكلامه . ولم أشأ أن أبلغه بأننى أعلم أن هذا الشعور متبادل بينهما .

وكان لروبرت منزيس الاسترالى وكريشنا مينون الهندى دورهما اللذان يتمشيان مع شخصية كل منهما تماما . فالأول كان يتصرف بطريقة عابرة ومنافية للذوق السليم ، والثانى ــ إذا استخدمنا تعبير دالاس الذى سبق أن ذكرناه ــ كان كثير الطنين .

أما عن إيدن فقد قيل إن النقد الذى وجهته إلى دالاس لجنة العلاقات الخارجية كان مخففا بالمقارنة بالنقد الذى اضطر إيدن إلى سماعه خلال بعض المناقشات فى مجلس العموم . فمثلا عندما قال إذا سعت الحكومة المصرية إلى التدخل (هنا صاح أحد النواب من العمال : استفزاز متعمد) فى أعمال الجمعية ، أو رفضت أن تقدم لها الحد الأدنى الجوهرى من التعاون ، فإن هذه الحكومة تكون قد خرقت للمرة الثانية معاهدة ١٨٨٨ (صيحات من المعارضة : استقل) ــ ولابد أن أذكر المجلس أن ما أقوله (صياح ساخر : يا لك من صانع للسلام) هو نتيجة تبادل للآراء بين ثلاث حكومات ــ وفى هذه الحالة فإن حكومة صاحبة الجلالة والحكومات الأخرى المعنية ستكون فى حل من إتخاذ أية خطوات أخرى (ماذا تقصد بهذا) تكون ضرورية (إنك تتحدث عن الحرب) سواء عن طريق الأمم المتحدة ، أو أية وسائل أخرى ، لتأكيد حقوقنا .

عندئذ نهض جيتسيكل ليقول إن الحكومة نفسها قد انتهكت معاهدة ١٨٨٨ بسحب المرشدين وأن العالم قد ينتهى إلى نتيجة بأن الحكومة تتعمد إيجاد عذر للتدخل المسلح ضد مصر . وأضاف جيتسيكل : إن اتهامنا للحكومة ينصب على أنها قد وصلت بالبلاد إلى هذه المعضلة : أما أن ننفذ التهديدات باستخدام القوة أو نواجه أعظم تراجع دبلوماسى فى تاريخنا .

إن عرض إيدن كان يدعو إلى الحرب بشكل مخيف . ولكنه صرح فى مؤتمر صحفى فى اليوم التالى بقوله : إننا لا ننوى أن نشق طريقنا بالقوة .

وكان داج همرشولد بحكم منصبه وشخصيته ، مشاركا وكان الجميع يشعرون بأثر عمله . وثمة تلخيص لموقف همرشولد الأساسى من أزمة قناة السويس وهو أن

جوهر موقف السكرتير العام يتمثل فى معتقدين . كانا يظهران المرة بعد الأخرى منذ عرض نزاع السويس على الأمم المتحدة . الأول هو المحافظة غير المشروطة على السيادة المصرية على كل ذرة من التراب وعلى كل حق شرعى . هذه السيادة التى انتهكت . وأن جوهر الميثاق هو المحافظة على السيادة الوطنية .

وثانيا : لا يجب الحصول على أية ميزة نتيجة العدوان . وقد اتهم البعض همرشولد بأنه لا يهتم بضحايا ناصر . وأنه يفكر من زاوية واحدة . بل ظن البعض أنه ضيق الأفق . وأن كل اهتمامه منصب على مبادئ الميثاق . وهناك عديد من الناس الذين اعتقدوا أنه شخصيا يضع كل الثقل على السلام وليس على تعبير العدالة فى فقراته .

وفى تلك اللحظة كان مما يناسب كبار زعماء السياسة الأمريكيين أن يقفوا إلى صفه . وأن يحولوا كل متاعبهم المتعلقة بالضمير والقوة إليه بمعنى أو بآخر . ولهذا كان البعض يعتبر أن الولايات المتحدة قد تنازلت لهمرشولد عن مبادرتها فى هذا الشأن . وكمثال على ذلك فإن سياسة همرشولد بالنسبة لتشكيل قوة الطوارئ الدولية كانت كما يلى : استبعاد قوات بريطانيا وفرنسا من قوة الطوارئ الدولية . فكيف يتوقع أحد أن تسمح مصر باشتراكها . أو أن توافق على ذلك الكتلة الافرو آسيوية ؟

ثانيا : فسر السكرتير العام قرار الجمعية العامة بأنه يعنى أنه ليست هناك نية لإنشاء قوة الطوارئ الدولية لتشمل الميزان العسكرى فى الصراع الحالى . ومن ثم الميزان السياسى الذى يؤثر على الجهود لتسوية الصراع .

ثالثا : كان همرشولد مصمم على ترك السيطرة السياسية العامة على القوة فى أيدى السكرتير العام . أى فى يديه . وأن قوة الطوارئ الدولية لن تكون وكالة لفرض شيء بالقوة . ولكن مجرد الإشراف على وقف إطلاق النار . وحتى عندئذ ، فإنه حتى مجرد دخول المنطقة نفسه سيترك لموافقة مصر . لأن إجراء الجمعية العامة بالرغم من أنه ملزم تماما بالنسبة لبريطانيا وفرنسا إلا أنه ليس إلا

مجرد توصية . وأخيرا رفض استخدام قوة الطوارئ الدولية لضمان حرية الملاحة ، وطلب الحلفاء أن تخول لهم سلطة تطهير القناة .

وقد هاجمت همرشولد بعض الدوائر الاستعمارية وبالذات الصهيونية ، واتهمته بالتحيز لمصر وحاولت أن تلقى شكوكا على نزاهته وولائه لواجبه وتجرده الأمين كسكرتير عام للأمم المتحدة .

وعندما فشلوا فى محاولتهم كان يبدو أنهم فقدوا أعصابهم ، ولم يترفعوا عن عملية إلقاء الطين والنزول إلى حد مهاجمة شخص همرشولد وهو هجوم قابله كثير من الكتاب والساسة بالسخط والاستهجان ، وكان من بينهم كريستيان بينو الذى وصف هذه الادعاءات بأنها غير صحيحة وتدعو للسخرية . وأضاف : أن علاقاتى الشخصية مع داج همرشولد كانت فى الواقع ممتازة ، وإن لم تكن « خاصة » ، وهو لم يكن عدوا لفرنسا ، بل أن الهجمات عليه آلمت مواطنى جدا .

وجاء فى كتاب « الأزمة » لترينس روبرتسون : أن ناصر ووزير الخارجية فوزى استضافا السكرتير العام ضيافة عربية حارة ، وقد استجاب همرشولد بما كان متوقعا منه لهذه المعاملة الناعمة والمميزة . لقد كره ذلك .

وقد شرح ناصر أن قواته لم تصدر إليها الأوامر بالتحرك إلى العوجة إلا بعد أن أقام اليهود تحصينات هناك . وقد اقترح همرشولد أنه إذا أمكن إقناع بن جوريون بالانسحاب من هذه التحصينات فإن مراقبى الهدنة التابعين للأمم المتحدة يمكن أن يحتلوها ويمكن لناصر أن ينسحب . ورد ناصر على هذا الاقتراح الساذج برد من ردوده ــ بأن همرشولد « يجب أن يتحدث أولا مع بن جوريون ثم يعود إلى القاهرة وعندئذ قد يكون من الممكن لمصر أن تصل إلى تفاهم ، مع الأمم المتحدة ، إنك تفهم ذلك » .

وهذه المقابلة تبعتها مناقشة مع وزير الخارجية استمرت طوال مابعد الظهر. إن قدرة فوزى على التحدث طويلا دون أن يقول شيئا ، وذكاء همرشولد الحاد عندما يواجه ممارسات ذهنية معقدة ، كل ذلك كان يستثير فى الرجلين روح

التحدى . وحالما قدم همرشولد اقتراحا غامضا ، بدأ فوزى يتطرق إلى مسالك عربية غريبة من التفكير ، بينما أخذ همرشولد يتبعه عن عمد ، وفى صبر منتظرا الوصول إلى النهاية المسدودة التى يضطر عندها إلى الالتزام . وكانت الرؤوس منخفضة والأصوات خافتة والمبارزة قد استغرقتهما ، وعندما انتهت عاد همرشولد إلى الواقع مع تعاطف دائم لما وصفه فيما بعد بأنه كفاح هذه الشعوب من أجل هدف السلام واحترام الذات .

إن ميلاد هذا التعاطف مع العرب قد نضج مع تورط الأمم المتحدة بشكل متزايد فى مشكلات الشرق الأوسط لقد كان همرشولد يدعو الملوك ورؤساء الوزارات ورؤساء الجمهوريات . وهم جميعا كانوا يستضيفونه بكرم زائد فى قصورهم الفاخرة ويرضون غروره باللطف الشرقى والمهارة الشرقية .

وكان الأمر مختلفا فى إسرائيل .

فقد كان بن جوريون بقميصه المفتوح الياقة يجلس فى مواجهة همرشولد ببدلته الزرقاء الأنيقة كالعادة . عبر مائدة ضخمة .

وقد كتب أورجات فى.كتابه «همرشولد» :

همرشولد يجد فى فوزى صديقا وزميلا يمكنه أن يتحدث إليه بصراحة حتى فى أكثر المسائل صعوبة دون أن يخشى ألا يفهمه . وكان وضع فوزى أكثر دقة من موقف بن جوريون فى إسرائيل . وكان همرشولد يعرف الصعوبات وحدود الإمكانيات المتاحة له للتصرف . لقد كان يرى أن خلف كياسته وثقافته تكمن الحكمة والطيبة . وقد استطاعت الصداقة بينهما أن تعمر بالرغم من خيبة الأمل التى ميزت السنوات التالية وبالرغم من التجربة المريرة فى الكونغو . وكان همرشولد يواجه النقد فى المجالات الخاصة . ولا سيما فى بريطانيا العظمى ، بسبب قربه الشديد من فوزى . وعلى أساس أنه يتأثر به أكثر من اللازم . ولكن من مكاتباته مع فوزى عبر السنين . سواء أكانا متفقين أو مختلفين على المسألة

المطروحة . فإنه لم يكن هناك أساس لهذه الانتقادات . لقد وجد فى هذا الرجل اللطيف المتحضر الحكيم صديقا وعامل مؤثر هام من أجل الاعتداد فى منطقة من العالم أصبح من النادر بشكل متزايد أن تجد فيها هذه الصفة .

وكتب لاش فى كتابه «همرشولد» : «ربما كان أبرز مظهر لدخول همرشولد صورة الشرق الأوسط هى الطريقة التى دعم بها سيطرته الشخصية على الموقف وسلطته مع الشخصيات القومية الشيطة فى المطقة . وكانت أصعب مشكلة بالنسبة له مع بن جوريون الذى كان معاديا لهمرشولد لأنه كان يعتقد أن همرشولد يعادى إسرائيل . وفى أول زيارة لهمرشولد فى يناير ١٩٥٧ لإسرائيل طلب من الإسرائيليين إلغاء حفل الاستقبال فى القدس لأنه شعر أنه لا يجب أن يكون محايدا فحسب . بل وأن يظهر أيضا حياده هذا . وبدون علمه اعترض معاونوه على أن يقوم موظفو الجوازات الإسرائيليون بوضع الخاتم الإسرائيلى على جوار سفره . ومن المعتقد أنهم فعلوا ذلك احتراما لحساسية العرب من هذه المسألة . ولكن الشىء الذى كان يثير حنق بن جوريون أكثر من أى شىء آخر هو سؤال له مغزى وجهه همرشولد إلى دكتور ناحوم جولدمان رعيم المنظمة اليهودية العالمية . فقد أبلغ همرشولد جولدمان أنه يعرف موقفه من تقسيم فلسطين وأنه اطلع على المذكرة الموقعة بالحروف الأولى من جولدمان ودين اتشيسون عن هذه المسألة وكان يريد أن يسأل دكتور جولدمان سؤالا . وقال إنه سيفهم إذا شعر أنه لا يريد الإجابة عليه والسؤال هو : ألا زلت حتى اليوم محبذا للتقسيم

وقد أوحى السؤال بأن همرشولد كان ضد إقامه دولة يهودية . وقد أغضب ذلك بن جوريون إلى حد كبير .

«ومع هذا فإن كلا من الرجلين انجذب إلى الآخر . وكلما كثرت المعاملات بينهما كلما شعرا بالاحترام والإعجاب المتبادل . وكان بن جوريون يقدر سرعة بديهة همرشولد ورقة شعوره . وكان سكرتير عام الأمم المتحدة قد انجذب إلى بن جوريون بسبب مزجه بين الحيوية العملية والعلم القائم على الحكمة . لقد كانا

يتحدثان بالساعات وهما يحتسيان كميات كبيرة من الشاى . بينما زوجة بن جوريون . باولا ، التى تتحدث بفظاظة تدخل وتخرج وهى تتفوه بتعليقات لاذعة

وكانت تسأل همرشولد : لماذا لا تتزوج ؟ عندئذ ستهتم بزوجتك وتتركنا لشأننا .

« وفى القاهرة كان همرشولد يقوم بعمله ببراعة مع دكتور محمود فوزى وزير الخارجية المصرى . وكان يعجب ببراعة فوزى الدبلوماسية وبمعرفته وحدة ذهنه ولطف معشره وكان يحبه كإنسان . وكان يحترم الرئيس ناصر . ولكنه أخذ انطباعا بعد مباحثات عديدة بأن الزعيم المصرى لا يشعر بالأمان وأنه غير مفهوم فى الغرب . وكان يبالغ فى شرح آراء ناصر للزعماء الغربيين .وكما كان يتحدث مع بن جورين . فقد كانت لهمرشولد مشاكل مع ناصر . إلا أنها من نوع مختلف . فى إحدى اجتماعاته الأولى كان يظن أنه قد توصل إلى تفاهم مع الزعيم المصرى فى إحدى النقاط الجوهرية الخاصة بالعوجة . ولكن عندما وصل إلى مطار القاهرة تسلم تقريرا عاجلا يفيد أن ناصر لن يتمسك بالتفاهم . وعاد لتوه إلى القاهرة وطلب اجتماعا عاجلا مع ناصر ودخل الغرفة وقال له إنه مخطئ إذا اعتقد أن السكرتير العام يقنع بما يبدو فى الظاهر أنه تفاهم . » .

وثـــائـــق

مذكرة من رئيس الوزراء نيكولاى أ . بولجانين إلى الرئيس إيزنهاور :

فى هذه اللحظة التى تتسم بالاضطرابات والمسئولية بالنسبة لقضية السلام العالمى . أكتب إليكم نيابة عن الحكومة السوفيتية . لقد مر أسبوع كامل منذ أن قامت القوات المسلحة لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل ـ استجابة لإرادة قوى خارجية ـ بالهجوم على مصر دون أى سبب . محدثة فى أعقابه الموت والدمار .

إن القصف غير الإنسانى من جانب القوات الجوية البريطانية والفرنسية فى

مصر مارال مستمرا . وقد هبطت القوات البريطانية والفرنسية على الأراضى المصرية . ودمرت نيران المعتدين قيما هائلة خلقتها أيدى الشعب المصرى . ولا زالت الخسائر فى الأرواح تتصاعد كل يوم . إن حربا عدوانية ضد مصر وضد الشعب العربى . الذى كانت غلطته الوحيدة أن تمسك بحريته واستقلاله . تشن أمام أنظار العالم كله .

إن الموقف فى مصر يدعو إلى إجراء فورى وحاسم من جانب هيئة الأمم المتحدة . وفى حالة عدم اتخاذ مثل هذه الإجراءات فإن هيئة الأمم المتحدة ستفقد هيبتها وستتفكك

إن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن وهما القوتان العظميان اللتان تمتلكان كل أنواع الأسلحة الحديثه . ومنها الأسلحة الذرية والهيدروجينية . ونحن نتحمل مسئولية خاصة لوقف الحرب وإعادة السلام والهدوء إلى منطقة الشرق الأدنى والأوسط . ونحن على قناعة بأنه إذا أعلنت حكومتا الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة عن إرادتهما فى ضمان السلام ومعارضة العدوان فإن العدوان سينتهى ولن تكون هناك حرب .

سيدى الرئيس ، فى هذه اللحظة الحرجة التى توضع فيها تحت الاختبار المبادئ الأخلاقية السامية وأسس وأهداف الأمم المتحدة . فإن الحكومة السوفيتية تتقدم إلى حكومة الولايات المتحدة باقتراح بالتعاون الوثيق حتى يمكن وضع حد للعدوان ووقف أى سفك جديد للدماء .

إن للولايات المتحدة بحرية قوية فى منطقة البحر المتوسط كما أن لها أيضا قوة جوية قوية . وإن الاستخدام المشترك والفورى لهذه الوسائل من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، مؤيدة بقرار من الأمم المتحدة . سيكون ضمانا أكيدا بإنهاء العدوان ضد الشعب المصرى وشعب الشرق العربى .

إن الحكومة السوفيتية تتجه إلى حكومة الولايات المتحدة لتناشدها بأن تضم

قواتها فى الأمم المتحدة لتبنى إجراءات حاسمة لوضع نهاية للعدوان . إن الحكومة السوفيتية قد تقدمت بالفعل إلى مجلس الأمن والدورة الخاصة غير العادية للجمعية العامة باقتراحات مناسبة . ومثل هذه الخطوات المشتركة من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لن تهدد مصالح بريطانيا وفرنسا . فالجماهير الشعبية لبريطانيا وفرنسا لا تريد الحرب . إنهم مثل شعبنا يرغبون فى المحافظة على السلام .

وهناك دول أخرى عديدة ، إلى جانب بريطانيا وفرنسا ، تهتم بالتهدئة الفورية واستئناف العمل الطبيعى لقناة السويس والذى توقف بسبب العمليات العسكرية .

إن العدوان ضد مصر قد تم ارتكابه – ليس من أجل حرية الملاحة فى قناة السويس ، التى تم ضمانها – ولكن لأن حرب اللصوص شنت بهدف استعادة الحكم الاستعمارى فى الشرق ، والذى أطاح به الشعب .

وإذا لم توقف هذه الحرب ، فإن ذلك يعنى خطر التحول إلى حرب عالمية ثالثة .

وإذا أيد الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ضحية العدوان ، فإن الدول الأخرى الأعضاء فى الأمم المتحدة ستنضم إلينا فى هذه الجهود . وبهذا فإن سلطة الأمم المتحدة ستتدعم بشكل كبير وسيتم إعادة السلام وتقويته

إن الحكومة السوفيتية على استعداد للدخول فى مفاوضات فورية مع حكومة الولايات المتحدة للتحقيق العملى للاقتراحات المبينة أعلاه ، حتى يمكن اتخاذ إجراء فعال لصالح السلام خلال الساعات القادمة

فى هذه اللحظة المتوترة من التاريخ ، التى يحدد فيها مصير كل الشرق العربى ، ومصير العالم فى الوقت نفسه ، أتوقع ردا إيجابيا منكم

٥ نوفمبر ١٩٥٦

مذكرة من رئيس الوزراء بولجانين إلى رئيس الوزراء سير أنتونى إيدن :

إن الحكومة السوفيتية ترى من الضرورى أن تلفت نظركم إلى الحرب العدوانية التى تشنها بريطانيا وفرنسا ضد مصر فى الوقت الحالى . والتى لها أخطر النتائج على قضية السلام العام .

إن الدورة غير العادية للجمعية العامة تبنت قرارا للوقف الفورى للأعمال العدائية وانسحاب القوات الأجنبية من الأراضى المصرية .

ولكن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لم تأخذ ذلك فى أعتبارها ، واستمرت فى تكثيف أعمالها العسكرية . وهى مستمرة فى القصف الوحشى للمدن والقرى المصرية . كما أن قواتها هبطت على الأراضى المصرية .

وبهذه الطريقة فإن الحكومة البريطانية ـ إنما تقوم مع فرنسا وإسرائيل ـ بالسير فى طريق العدوان الذى لم يسبقه استفزاز على مصر .

والأسباب التى قدمتها بريطانيا لتبرير أعمال العدوان هى أسباب مرفوضة تماما .

لقد أعلنت الحكومة البريطانية أنها تدخلت فى الصراع الإسرائيلى المصرى لمنع منطقة قناة السويس من أن تصبح مسرحا للأعمال العدائية . إن التدخل الأنجلو ـ فرنسى فى منطقة قناة السويس هو الذى حولها إلى مسرح للحرب . ولقد أعيق المرور فى القناة لما أدى إلى الإضرار بمصالح الدول المستخدمة للقناة .

وإن محاولات الفرنسيين والبريطانيين تبرير عدوانهما بإظهار اهتمامهما بالمحافظة على حرية الملاحة فى القناة لهو شىء لا يمكن تصديقه .

ويجب القول بأن العدوان ضد مصر لا يمكن أن يبرر بالمصالح الخاصة لفرنسا وبريطانيا فى الملاحة فى القناة .

إن حكومتى بريطانيا وفرنسا لا يمكنهما اغتصاب حق إتخاذ القرار فى شئون تتعلق بحرية الملاحة فى القناة . لأنه توجد أيضا قوى أخرى لها مصالح . وهذه

القوى تستنكر الأعمال العدوانية لبريطانيا وفرنسا وتطالب بالمحافظة على السلام والنظام فى الشرق الأدنى والأوسط .

ومن المعروف جيدا أيضا أن حرية الملاحة فى القناة قد ضمنتها مصر بالكامل . إن مشكلة قناة السويس ما هى إلا تبرير للعدوان الأنجلو فرنسى . وأهدافه أبعد مما تبدو .

ولا يمكن إخفاء أن حربا تقوم على السلب والعدوان ضد الشعوب العربية قد شنت ضد الاستقلال الوطنى لدول الشرق الأدنى والأوسط بهدف استعادة نظام العبودية الاستعمارى الذى رفضته الشعوب .

ولا شىء يمكن أن يبرر حقيقية أن القوات المسلحة لبريطانيا وفرنسا . وهما قوتان عظميان ، وعضوان دائمان فى مجلس الأمن . قد هاجمتا دولة حصلت حديثا فقط على استقلالها وليس لديها وسائل كافية للدفاع عن نفسها .

وما هو الموقف الذى ستجد بريطانيا نفسها فيه إذا هى نفسها هوجمت من دول أقوى تمتلك كل أنواع الأسلحة التدميرية الحديثة ؟ .

وهناك دول الآن لا تحتاج إلى إرسال أسطول أو قوة جوية إلى سواحل بريطانيا ولكن يمكنها استخدام وسائل أخرى مثل أسلوب الصواريخ .

ولو كانت الأسلحة الصاروخية قد استخدمت ضد بريطانيا وفرنسا فمن المرجح أنهما كانا سيصفان هذا بأنه عمل وحشى .

ومع هذا فبأية طريقة يختلف الهجوم غير الإنسانى من قبل القوات المسلحة لبريطانيا وفرنسا على مصر المنزوعة السلاح تقريبا عن هذا ؟ .

وبما أننا قلقون بشكل عميق من مجرى الأحداث فى الشرق الأدنى والأوسط ، وبما أننا نسترشد بصالح المحافظة على السلام العالمى . فإننا نرى أن الحكومة البريطانية يجب أن تستمع لصوت القضية المشتركة وتضع حدا للحرب فى مصر .

إننا ندعوكم ، وندعو البرلمان وحزب العمال نقابات العمال وشعب بريطانيا لوقف العدوان ووقف سفك الدماء .

إن الحرب قد تمتد إلى دول أخرى وتصبح حربا عالمية ثالثة . إن الحكومة السوفيتية قد اتصلت بالفعل بالولايات المتحدة وتقدمت باقتراح لاستخدام القوات البحرية والجوية ، مع باقى أعضاء الأمم المتحدة ، لوقف الحرب فى مصر وكبح العدوان .

إننا مصممون تماما على سحق العدوان وإعادة السلام إلى الشرق باستخدام القوة . ونأمل فى هذه اللحظة الحرجة أن تظهروا التعقل اللازم وأن تستخلصوا ما يستتبع ذلك من نتائج .

٥ نوفمبر ١٩٥٦ .

مذكرة من رئيس الوزراء بولجانين إلى رئيس الوزراء جى موليه : إننى أجد من واجبى أن أخاطبكم بشأن الموقف الذى نشأ فيما يختص بتطور العدوان الفرنسى ــ البريطانى على مصر . إننى يجب أن أقرر بكل صراحة بأن الحرب ضد الدولة المصرية التى شنتها فرنسا وبريطانيا باستخدام إسرائيل كأداة ، قد تكون لها نتائج فى غاية الخطورة على السلام العام .

إن الغالبية العظمى من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة بالدورة الخاصة غير العادية للجمعية العامة تؤيد الوقف الفورى للعملية الحربية وانسحاب القوات الأجنبية من الأراضى المصرية .

ومع هذا ، فإن العمليات العسكرية فى مصر قد امتدت باطراد . وتعرضت المدن والقرى المصرية للقصف الوحشى . وهبطت القوات الفرنسية والبريطانية على الأراضى المصرية . وسفكت دماء أناس أبرياء تماما .

وإن تصرف حكومة فرنسا بهذه الطريقة ، مشتركة مع حكومتى بريطانيا وإسرائيل ، إنما يدخل فى باب العدوان الذى لم يسبقه استفزاز ، ضد مصر .

وبالرغم من أن الهجوم المسلح ضد مصر قد غطته الحكومتان الفرنسية والبريطانية بإحالته مرات عديدة إلى اهتمامها الخاص بالإدارة الطبيعية لقناة السويس . إلا أنه من الواضح أن المقصود ليس حرية الملاحة فى قناة السويس ، التى ضمنتها مصر والتى لم تنقطع بالعملية العسكرية لفرنسا وبريطانيا ، ولكن برغبة المستعمرين فى إعادة نير العبودية الاستعمارية إلى شعوب الشرق العربى التى تكافح من أجل استقلالها الوطنى وحريتها .

وخلال اجتماعنا فى موسكو فى مايو الماضى تحدثنا عن حقيقة أنكم تستلهمون فى أعمالكم المثل الاشتراكية ولكن هل الهجوم المسلح الأشبه بهجوم رجال العصابات ضد مصر ، والذى يبدو كأنه حرب استعمارية مكشوفة ، له علاقة بالاشتراكية ؟ كيف يمكن لأحد أن يجد علاقة بين المثل الاشتراكية والهجوم الغادر من فرنسا ضد دولة لم تفعل شيئا سوى تحقيق استقلالها منذ وقت قريب . وهى ليست مسلحة بما فيه الكفاية للدفاع عن نفسها ؟ .

إننا مقتنعون تماما أن الحرب الاستعمارية ضد مصر تسير ضد المصالح الأساسية للشعب الفرنسى الذى يريد بقوة المحافظة على السلام وأن ينمى التعاون الاقتصادى والثقافى مع الشعوب الأخرى ، ويشترك معه فى ذلك شعب بريطانيا وشعب الاتحاد السوفيتى .

ماذا يكون موقف فرنسا إذا هاجمتها دول أخرى تحت تصرفها وسائل تدمير حديثه ومرعبة ؟ .

إننا نناشد حكومة فرنسا ، من أجل المحافظة على السلام ، كما نناشد البرلمان وشعب فرنسا وقف العدوان ووقف سفك الدماء . إننا نناشدكم ونناشد البرلمان والحزب الاشتراكى ونقابات العمال والشعب الفرنسى بأسره ـ لوضع حد للعدوان المسلح ووقف سفك الدماء .

إن المرء لا يمكنه إلا أن يرى أن الحرب فى مصر قد تمتد إلى دول أخرى وتتطور إلى حرب عالمية ثالثة .

وإننى أرى من واجبى أن أبلغكم أن الحكومة السوفيتية قد خاطبت بالفعل الأمم المتحدة ورئيس الولايات المتحدة باقتراح لاستخدام القوات البحرية والجوية باشتراك الأعضاء الآخرين فى الأمم المتحدة لوقف الحرب فى مصر وكبح العدوان . إن الحكومة السوفيتية مصممة تماما على سحق المعتدين وإعادة السلام فى الشرق .

مازال هناك وقت لاستخدام التعقل ، ووقف ومنع القوى الميالة للقتال من أن تكون لها اليد العليا . ونأمل أن تظهر الحكومة الفرنسية فى هذه اللحظة الحاسمة الحكمة فى تقدير الموقف الذى نشأ ، وأن تستخلص النتائج المناسبة منه .

٥ نوفمبر ١٩٥٦

تبادل المذكرات بين رئيس الوزراء بولجانين ورئيس الوزراء بن جوريون :

لقد سبق أن أعربت الحكومة السوفيتية عن استنكارها الواضح للعدوان المسلح من جانب إسرائيل وكذلك بريطانيا وفرنسا ضد مصر . والذى يعتبر انتهاكا مباشرا ومكشوفا لميثاق ومبادىء الأمم المتحدة .

إن الغالبية الساحقة لدول العالم استنكرت أيضا العمل العدوانى الموجه ضد الدولة المصرية فى الدورة الخاصة وغير العادية للجمعية العامة ودعت حكومات إسرائيل وبريطانيا وفرنسا لوقف العمليات العسكرية فورا وسحب القوات الغازية من الأراضى المصرية .

إن الإنسانية المحبة للسلام تدمغ بسخط الأعمال الإجرامية للمعتدين الذين هاجموا أراضى وسيادة واستقلال الدولة المصرية . وأن حكومة إسرائيل . وهى تتجاهل ذلك . وتعمل كأداة للقوى الاستعمارية الأجنبية . قد استمرت فى مغامرتها الطائشة . متحدية كل شعوب الشرق التى تكافح ضد الاستعمار من أجل حريتها واستقلالها .

إن أفعال حكومة إسرائيل هذه تدل بوضوح كيف أن كل التأكيدات الزائفة

عن حب إسرائيل للسلام ورغبتها فى التعايش سلميا مع الدول العربية المجاورة لا قيمة لها . إن حكومة إسرائيل بهذه التأكيدات تسعى فى حقيقة الأمر إلى مجرد تهدئة الدول الأخرى وعدم يقظتها . بينما تستعد لهجوم غادر ضد جيرانها .

إن حكومة إسرائيل . وهى تنفذ إرادة شعب آخر وتتصرف طبقا لتعليمات من الخارج ، إنما تعبث بمصير السلام وبمصير شعبها نفسه وبطريقة إجرامية وغير مسئولة . إنها تزرع الكراهية لدولة إسرائيل بين شعوب الشرق . مما لابد أن يؤثر على مستقبل إسرائيل . ويعرض للخطر وجود إسرائيل نفسه كدولة .

إن الحكومة السوفيتية ، إذ تهتم اهتماما حيويا بالمحافظة على السلام وضمان الهدوء فى الشرق الأوسط والأدنى . فإنها تتخذ فى هذه اللحظة إجراءات تهدف إلى وقف الحرب وكبح جماح المعتدين . ونحن نناشد حكومة إسرائيل بأن تعود إلى صوابها قبل أن يفوت الوقت وأن توقف عملياتها العسكرية ضد مصر .

إننا نناشدكم ونناشد البرلمان والشعب العامل لدولة إسرائيل . وكل شعب إسرائيل أن يوقف العدوان وأن يوقف سفك الدماء ، وأن تسحبوا قواتكم من الأراضى المصرية .

ونظرا للموقف الذى نشأ ، فإن الحكومة السوفيتية قررت إبلاغ سفيرها فى تل أبيب بأن يغادر إسرائيل ويعود فورا إلى موسكو . ونأمل من حكومة إسرائيل أن تتفهم وتقدر هذا التحذير حق قدره .

٥ نوفمبر ١٩٥٦

وصلتنى مذكرتكم فى ٥ نوفمبر وقرأتها بعناية . وآسف لأننى لابد أن أشير إلى أن بعض المناقشات قائمة على معلومات غير كاملة وغير صحيحة تلقيتموها .

فمنذ أكثر من سنتين شكل حاكم مصر قوة خاصة باسم الفدائيين هدفها التسلل خلسة داخل حدود بلادنا وقتل المواطنين العاملين فى الحقول والذين يستخدمون الطرق فى التنقل والذين يسكنون إلى بيوتهم . وفى البداية كانت هذه

الجماعات تعمل من المناطق التى تحتلها مصر مثل قطاع غزة .

وأخيرا تم تنظيم مثل هذه الجماعات من القتلة فى الأردن ولبنان وسوريا ، وتعرضت أرواح مزارعينا على طول الحدود يوميا لهجماتهم القاتلة . وخلال فترة أزمة السويس توقف نشاط هذه الجماعات . إلا أنه منذ ثلاثة أسابيع عادوا فكثفوا من نشاطهم .

وجاء فى قرار أصدره فى ١٥ فبراير ١٩٥٦ قائد الفرقة الثالثة فى سيناء اللواء أحمد سالم ــ وذلك طبقا لصورة فوتوغرافية مرفقة مع هذا ــ ما يلى ــ ضمن أشياء أخرى :

« على كل قائد أن يعد نفسه ورجاله للحملة المحتمة مع إسرائيل بهدف تحقيق غايتنا السامية وهى إبادة إسرائيل والقضاء عليها فى أقصر وقت ممكن وفى أكثر المعارك قسوة ووحشية » .

لقد نظم حاكم مصر مقاطعة اقتصادية ضد إسرائيل مخالفا بذلك ميثاق الأمم المتحدة . وأقام حصارا ضد حريتنا فى الملاحة فى قناة السويس وخليج إيلات ولمدة خمس سنوات انتهك قرارا لمجلس الأمن بشأن حرية مرور سفن إسرائيل فى قناة السويس . وبعد أن منع مجلس الأمن مرة أخرى فى ١٣ أكتوبر من هذا العام كل أنواع التمييز المستتر بالنسبة لحرية الملاحة فى قناة السويس . أعلن حاكم مصر أن التمييز ضد إسرائيل سيستمر .

ومنذ حوالى أسبوعين عقد الحاكم المصرى ميثاقا عسكريا مع الأردن وسوريا ضد إسرائيل . لهذا فإن الإجراء الذى قمنا به فى نهاية أكتوبر قد كان ضروريا للدفاع عن النفس ولم يكن عملا أملته الرغبات الخارجية كما قيل لكم . واستجابة لمناشدة الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها الطارئة الخاصة ، أوقفنا إطلاق النار ولم يحدث صراع مسلح بيننا وبين مصر لعدة أيام مضت .

وأمس صرحت فى الكنيسيت باسم حكومة إسرائيل بأننا راغبون فى الدخول

فى مفاوضات مباشرة مع مصر لتحقيق سلام مستقر دون أية شروط مسبقة ودون أى إجبار . ونأمل أن تستخدم كل الدول المحبة للسلام وخاصة تلك التى لها علاقة صداقة مع مصر - كل مالها من نفوذ لدى مصر لعقد مباحثات سلام دون أدنى تأخير .

وفى الختام أحاول أن أمنع نفسى من التعبير عن دهشتى وأسفى للتهديد الموجه إلى وجود إسرائيل ورفاهيتها والذى تضمنته مذكرتكم . إن سياستنا الخارجية تمليها حاجاتنا الأساسية ورغبتنا فى السلام . ولم يقررها - ولن يقررها - أى عامل خارجى .

وباعتبارنا دولة ذات سيادة فإننا نقرر طريقنا بأنفسنا . ونحن ننضم إلى كل شعوب العالم المحبة للسلام فى السعى من أجل علاقات قائمة على السلام والعدل فى منطقتنا وفى العالم بأسره .

٨نوفمبر ١٩٥٦

تبادل المذكرات بين الرئيس إيزنهاور ورئيس الوزراء بن جوريون :

من ايزنهاور إلى بن جوريون :

كما تعلمون فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة قد دبرت وقف إطلاق النار فى مصر ، ووافقت عليه مصر وفرنسا والمملكة المتحدة وإسرائيل . وقد أرسلت إلى مصر قوة تابعة للأمم المتحدة طبقا لقرارات الجمعية العامة الخاصة بهذا الموضوع

وهذه الهيئة قد ناشدت كل القوات الأجنبية الأخرى بالانسحاب من الأراضى المصرية ، وخاصة انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خط الهدنة العام . أن القرار الذى يغطى وقف إطلاق النار والانسحاب قدمته الولايات المتحدة وحصل على الأغلبية الساحقة من أصوات الجمعية .

وأن التصريحات المنسوبة إلى حكومتكم بما يفيد بأن إسرائيل لا تنوى

الانسحاب من الأراضى المصرية ـ طبقا لما طالبت به الأمم المتحدة ـ قد عرضت على . ولابد أن أقول بصراحة يا سيادة رئيس الوزراء ، إن الولايات المتحدة تنظر إلى هذه التصريحات ـ إذا كانت صحيحة ـ بقلق عميق .

وأى قرار تتخذه حكومة إسرائيل سيقوض بشكل خطير الجهود العاجلة التى تقوم بها الأمم المتحدة لإعادة السلام فى الشرق الأوسط . ولا يمكن إلا أن تؤدى إلى شجب إسرائيل باعتبارها منتهكة للمبادئ ولكل قرارات الأمم المتحدة .

ونحن نعتقد ـ أنه كأقصى أنواع الأولوية فإن السلام يجب أن يعود وأن القوات الأجنبية ـ فيما عدا قوات الأمم المتحدة ـ يجب أن تنسحب من مصر . وبعدها ينبغى اتخاذ خطوات جديدة ونشيطة داخل إطار الأمم المتحدة لحل المشكلات الأساسية التى أدت إلى الصعوبات المحلية . إن الولايات المتحدة قد أودعت فى الجمعية العامة قرارين تهدفان إلى تحقيق الهدف الأخير . وتأمل أن يتم إقرارها حالما يتم معالجة هذه الحالة الطارئة .

ولا حاجة لى أن أؤكد لكم عن الاهتمام العميق الذى تشعر به الولايات المتحدة تجاه بلادكم . ولا أن أذكر العناصر المختلفة لسياستنا بتأييد إسرائيل بطرق عديدة . وفى هذا السياق فإننى أحثكم على تنفيذ قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة والتى تعالج الأزمة الحالية وأن تعلنوا قراراتكم فى الحال . وسيكون من دواعى الأسف الشديد لمواطنى إذا أدت السياسة الإسرائيلية فى مسألة بمثل هذه الخطورة للعالم إلى الإضرار بأى حال بالتعاون بين بلدينا

٧ نوفمبر ١٩٥٦

من بن جوريون إلى إيزنهاور :

تلقيت بعد ظهر اليوم فقط رسالتكم التى تأخر إرسالها بسبب عطل فى الاتصالات بين وزارة الخارجية الأمريكية وسفارة الولايات المتحدة فى تل أبيب .

إن قولكم إن قوة الأمم المتحدة قد أرسلت إلى مصر طبقا لقرارات الجمعية العامة المتعلقة بالموضوع ، لهو أمر رحبنا به . ولم يحدث أننا خططنا لضم صحراء سيناء . وبالنسبة لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بانسحاب القوات الأجنبية من مصر وإنشاء قوة دولية . فإننا بعد الانتهاء من تدابير مرضية مع الأمم المتحدة متعلقة بدخول هذه القوة الدولية إلى منطقة قناة السويس . سنسحب قواتنا عن طيب خاطر .

وبالرغم من أن جزءا هاما من هدفنا لم يتحقق من عملية سيناء بتدمير عصابات الفدائيين والقواعد التى يخططون ويوجهون منها فإننا يجب أن نكرر طلبنا العاجل للأمم المتحدة بأن تطلب من مصر التى استمرت دائما فى القول بأنها فى حالة حرب مع إسرائيل . بأن تتخلى عن هذا الموقف . وأن تنبذ سياستها فى المقاطعة والحصار . وأن توقف إدخال العصابة القاتلة إلى الأراضى الإسرائيلية . وأن تعيش فى سلام – طبقا لالتزاماتها بميثاق الأمم المتحدة – مع الدول الأعضاء . وأن تدخل فى مفاوضات سلام مع إسرائيل .

وبالنيابة عن حكومتى أود أن أعبر لكم عن شكرنا لإشارتكم إلى الاهتمام العميق للولايات المتحدة بإسرائيل وسياستها بتأييد بلادنا . وأنا أعرف أن كلمات الصداقة هذه تنبع من عميق قلوبكم وأود أن أؤكد لكم أنكم ستجدون إسرائيل دائما على استعداد أن تقدم إسهامها السامى إلى جانب الولايات المتحدة فى جهودها لتقوية العدالة والسلام فى العالم .

تصريح إيزنهاور عن الشرق الأوسط
رسالة إلى الكونجرس ـ ٥ يناير ١٩٥٧
مقتطفات

١ ـ إن الشرق الأوسط الذى تشتهيه دائما روسيا ستحركه اليوم أكثر من أى وقت مضى الشيوعية الدولية .

٢ ـ إن الحكام السوفيت مستمرون فى إظهار أنهم لن يتورعوا عن استخدام أية وسيلة لتحقيق أهدافهم .

٣ ـ إن الدول الحرة فى الشرق الأوسط تحتاج ، وتريد فى معظمها ، قوة إضافية لتأكيد استقلالها المستمر .

ومن الطبيعى أن أفكارنا تتجه إلى الأمم المتحدة كحام للدول الصغيرة . وميثاقها يعطيها مسئولية أولية للمحافظة على السلام والأمن الدوليين . وقد أعطت بلادنا الأمم المتحدة تأييدها الكامل بالنسبة للأعمال العدائية فى المجر ومصر . وأن الأمم المتحدة كانت قادرة على إحداث وقف إطلاق النار وإنسحاب القوات المعادية من مصر لأنها كانت تتعامل مع حكومات وشعوب تشعر بأحترام كبير لآراء الإنسانية كما تعكسها الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولكن فى حالة المجر ، فإن الموقف كان مختلفا . لقد استخدم الاتحاد السوفيتى الفيتو ضد إجراء مجلس الأمن بطلب انسحاب القوات السوفيتية من المجر . وقد أظهر عدم اكتراث فظا بتوصيات بل ولوم الجمعية العامة . وأن الأمم المتحدة يمكن أن تكون حامية يعتمد عليها تماما للحرية عندما تتدخل طموحات الاتحاد السوفيتى .

وفى ظل كل الظروف وضعت أمامكم مسئولية كبرى بدأت تلقى على عاتق الولايات المتحدة . ولقد أظهرنا ـ بحيث لا يكون هناك شك لدى أحد

ـ تكريسنا لمبدأ أن القوة لا يجب أن تستخدم دوليا لأى غرض عدوانى وأن سلامة أراضى واستقلال دول الشرق الأوسط يجب ألا تنتهك .

لقد كانت هناك تصريحات عديدة وتنفيذية من الولايات المتحدة بالنسبة للشرق الأوسط . وهناك إعلان ثلاثى فى ٢٥ مايو ١٩٥٠ ، أعقبه تأكيد رئاسى فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٠ لملك السعودية . وهناك إعلان رئاسى فى ٩ إبريل ١٩٥٦ بأن الولايات المتحدة ستعارض ـ فى إطار الوسائل الدستورية ـ أى عدوان فى المنطقة ، وهناك إعلاننا فى ٢٩ نوفمبر ١٩٥٦ بأن تهديد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لإيران أو العراق أو باكستان أو تركيا ستنظر إليه الولايات المتحدة بمنتهى الخطورة ، والإجراء الذى اقترحته ستكون له المعالم التالية .

أولا وقبل كل شىء سأخول الولايات المتحدة مساعدة والتعاون مع أية دولة أو مجموعة من الدول فى المنطقة العامة للشرق الأوسط فى تطوير قوتها الاقتصادية المكرسة للمحافظة على الاستقلال الوطنى .

كما أنها ـ فى المقام الثانى ـ ستخول السلطة التنفيذية للقيام فى نفس المنطقة ببرامج المساعدة العسكرية والتعاون مع أى دولة أو مجموعة من الدول إذا رغبت فى مثل هذه المعونة .

كما إنها ـ فى المقام الثالث ـ ستخول مثل هذه المساعدة والتعاون أن تضم استخدام القوات المسلحة للولايات المتحدة لضمان وحماية سلامة الأراضى والاستقلال السياسى لهذه الدول التى تطلب مثل هذه المعونة ضد العدوان المسلح السافر من أية دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية .

هذه الإجراءات يجب أن تكون متمشية مع الالتزامات التعاهدية للولايات المتحدة ، ومنها ميثاق الأمم المتحدة ومع أى إجراء أو توصيات للأمم المتحدة . كما أنها ستخضع ـ إذا وقع هجوم مسلح ـ للسلطة المهيمنة لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة طبقا للميثاق .

فهرس

رقم الإيداع ٨٦/٧٨٢٠
الترقيم الدولى ٠ ـ ٠٦٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

حرب السويس

كتبه باللغة الإنجليزية الدكتور محمود فوزى باعتباره وزير خارجية مصر أثناء حرب السويس. وقائد ملحمتها الدبلوماسية على منابر الأمم المتحدة وبين كواليسها.

وللدكتور محمود فوزى أسلوبه الخاص المتميز والذى يتمثل فيه حرص الدبلوماسية ودهاؤها. وأحيانا غموضها.. وبشاعرية ذكية يحلق فى المعنى ويصوغ - فى حذق - عبارته.

وها هو - مثلا - فى المقدمة يقول:

«.. فهأنذا أكتب الآن بكل ما أستطيع بوضوح واختصار. ولكنى شعرت - كما قد يشعر آخرون فى مثل ظروفى - بأنى مدين لشعبى وللآخرين بشيئين بالذات لابد من تسجيلهما:

الأول: أمور لم تكن معروفة سوى لى وللجانب الآخر الذى كنت أتعامل معه وهو مايتطلب إما أن أسجل هذه الأمور بالكامل أو أصحح أو أكمل ماسجلوه.

والثانى: تحليلى لهذه الأمور وتقييمى لمغزاها والطريقة التى عولجت بها.

ولايمكن أن يقوم أحد بهذين الأمرين بالوكالة.. ولهذا فلابد أن أستمر فى هذه المهمة.. وربما وأنا مبتسم.»

وترجم الكتاب إلى العربية السفير الدكتور مختار الجمال الذى تخصص فى الترجمة للدكتور محمود فوزى عندما كان يرسل تقاريره اليومية من الأمم المتحدة إلى الرئيس جمال عبد الناصر.

هذا.. وقد بدأ الدكتور محمود فوزى عمله الدبلوماسى عام ١٩٢٦..

وعمل وزيرا لخارجية مصر أكثر من اثنى عشر عاما فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

وفى عهد الرئيس السادات تولى رئاسة الوزراء ثم نائبا لرئيس الجمهورية.

ثم توفاه الله إلى رحمته عام ١٩٨١ تاركا سجلا حافلا بالعطاء المتميز قوميا ودوليا فضلا عن مدرسة فى الدبلوماسية المصرية الحديثة التى كان رائدها وأستاذا لها.

